http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٧٤

الولد فى ميراث الأم ، وإن كان للقلب إخوة من الأنوار والأسرار يتقوى بهما فللروح من ميراث الحكمة السدس ، والباقي كله للقدرة ، ولا يعرف هذا إلا من حقق معرفة القدرة والحكمة ، ذوقا وكشفا ، وإلّا .. فليسلم لأهل المعرفة.

والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى حكمة تقسيم تركة الأب والابن على ما فرض ، وأن ذلك لا يعلمه إلا هو ، فقال : آباؤُكُمْ ...

يقول الحق جل جلاله : قد بينت لكم ما يرث الأب من ابنه ، وما يرث الولد من أبيه ، ولو وكلت ذلك إليكم لأفسدتم القسمة لأنكم لا تدرون أيهم أقرب نفعا للآخر ، هل الأب أقرب نفعا لابنه ، فتعطوه الميراث كله دون ولد الميت ، أو الولد أقرب نفعا لأبيه ، من الأب لابنه ، فتخصونه بالإرث ، ففرضت ميراث الأب وميراث الولد ، ولم نكل ذلك إليكم. فَرِيضَةً حاصلة مِنَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً بمصالح العباد حَكِيماً بما فرض وقدّر.

وقال ابن عباس : لا تدرون أيهم أطوع لله عز وجل من الآباء والأبناء ، وأرفعكم درجة يوم القيامة ، لأن الله تعالى يشفع المؤمنين فى بعضهم بعضا ، فيشفع الولد فى والديه ، إن كان أرفع درجة منهما ، فيرفعهما الله إليه ، ويشفع الوالدين فى ولدهما ، إن كانا أرفع درجة منه ، فيرتفع إليهما لتقر بذلك أعينهما. هـ. بالمعنى.

الإشارة : الإنسان لا تقوم روحانيته إلا ببشريته ، وبشريته إلا بروحانيته ، فلا يدرى أيهما أقرب له نفعا ، لأن البشرية محل للعبودية ، والروحانية محل لشهود عظمة الربوبية ، ولا بد للجمع بينهما ، وكذلك الحس ، لا يقوم إلا بالمعنى ، والمعنى لا يقوم إلا بالحس ، فلا تدرى أيهما أقرب نفعا لك أيها المريد ، فتؤثره ، وإن كانت المعاني هى المقصودة بالسير ، لكن لا تقوم إلا بوجود الحس ، فلا بد من ملاحظته.

وقال الورتجبي هنا ما نصه : أشكل الأمر من تلك الطائفتين ، أيهم يبلغ درجة الولاية والمعرفة الموجبة مشاهدة الله وقربته ، التي لو وقعت ذرة منها لأحد من هذه الأمة لينجو بشفاعته سبعون ألفا بغير حساب ، أي : اخدموا آباءكم وارحموا أولادكم ، فربما يخرج منهم صاحب الولاية ، ليشفع لكم عند

الله تعالى ، وحكمة الإبهام هاهنا ليشمل الرحمة والشفقة على الجمهور ، لتوقع ذلك الولي الصادق.
هـ. قلت : فسر الآباء والأبناء بالحسيين ، وتشمل الآية أيضا الآباء والأبناء المعنويين والروحانيين. والله تعالى أعلم.

(٤٧٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٧٥
ثم ذكر ميراث الزوج والزوجة ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ١٢]
وَلَكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِها أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِها أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصى بِها أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)
يقول الحق جل جلاله : وَلَكُمْ أيها الأزواج ، من ميراث أزواجكم نِصْفُ ما تركن إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ. فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ وارث ، ذكرا أو أنثى ، مفردا أو متعددا ، من بطنها أو من صلب بنيها أو بنى بنيها وإن سفل ، منكم أو من غيركم ، فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ، بعد قضاء الدين وإخراج الوصية.
وَلَهُنَّ أي : الزوجات من ميراث الزوج الرُّبُعُ مما ترك إِنْ لَمْ يَكُنْ له ولد لاحق ، ذكرا أو أنثى ، على وزان ما تقدم فى الزوجة ، فَإِنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ تنفرد به إن كانت واحدة ، ويقسم بينهن إن تعددن ، ولا ينقص لأهل السهام مما فرض الله لهم إلا ما نقصه العول على مذهب الجمهور ، خلافا لابن عباس ، فإنه لا يقول بالعول.
فإن قيل : لم كرر قوله : مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ مع ميراث الزوج وميراث الزوجة ، ولم يذكره قبل ذلك إلا مرة واحدة فى ميراث الأولاد والأبوين؟ فالجواب : أن الموروث فى ميراث الزوج هو الزوجة ، والموروث فى ميراث الزوجة هو الزوج ، فكل واحدة قضية مستقلة ، فلذلك ذكر ذلك مع كل واحدة ، بخلاف الأول فإن الموروث فيه واحد ، ذكر حكم ما يرث منه أولاده وأبواه ، وهى قضية واحدة ، فلذلك قال فيه : مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ مرة واحدة.
قاله ابن جزى. قال البيضاوي : فرض للرجل بحق الزواج ضعف ما للمرأة كما فى النسب ، وهكذا قياس كل رجل وامرأة ، إذا اشتركا فى الجهة والقرب ، ولا يستثنى منه إلا أولاد الأم والمعتق والمعتقة.
هـ.

الإشارة : إذا ماتت النفس ، ولم تبق لها بقية ، وورثت الروح ما كان لها من العلوم الكسبية : النقلية والعقلية ، وأضافته إلى مالها من العلوم الوهبية ، فانقلب الجميع وهبيا ، قال بعض شيوخ أشياخا : (كنت أعرف أربعة عشر علما ، فلما دخلت علم الحقيقة سرطت ذلك كله ، فلم يبق إلا الكتاب والسنة) ، أو كما قال. وقال أبو سليمان الداراني :

إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام ، جالت فى الملكوت ، ثم عادت إلى صاحبها بطرائف العلوم ، من غير أن يؤدى إليها عالم علما.

(٤٧٥/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٧٦

فإن بقي للنفس بقية ، نقص ميراث الروح منها ، بقدر البقية ، كما أن الزوج ينقص ميراثه مع الفرع ، وكذلك إذا ماتت الروح بالرجوع عن طريق الجد ، ورثت النفس ما كان لها من العلوم الوهبية ، والمعاني والأسرار القدسية ، فتأكلها ، وتردها نقلية حسية ، بعد أن كانت وهبية ذوقية ، فتتحسس المعاني ، وتتكثف الأواني. والعياذ بالله من السلب بعد العطاء ، إلا أن ميراث النفس من الروح أقوى ، فإن بقي للروح شيء من الحياة ، نقص ميراث النفس منها ، كنقص الزوجة مع الفرع من ميراث الزوج ، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ميراث الأخ للأخ ، فقال :

وَإِنْ كانَ رَجُلٌ ...

قلت : الكلالة : انقطاع النسل ، بحيث لم يبق للميت فرع ولا أصل ، لا ذكر ولا أنثى ، وهو مصدر من تكلّله النسب ، إذا أحاط به كالإكليل ، لأن ورثته أحاطوا به وليسوا منه. ونظم بعضهم معنى الكلالة ، فقال :

إن امرؤ يسأل عن كلالة هو انقطاع النّسل لا محالة

لا والد يبقى ولا مولود قد هلك الأبناء والجدود

فتحتمل أن تطلق هنا على الميت ، أو على الورثة ، أو على الوراثة ، أو على القرابة أو على المال. فإن كانت على الميت ، فإعرابه خبر كان ، و(يورث) صفة ، أو (يورث) خبر كان ، و(كلالة) حال من الضمير فى (يورث) ، أو «كان» تامة ، و(يورث) صفة و(كلالة) حال من الضمير. وإن كانت على الورثة ، فهو خبر كان ، على حذف مضاف أي : ذا كلالة ، وإن كانت الوراثة فهو مصدر فى موضع الحال ، وإن كانت القرابة ، فهو مفعول من أجله ، أي : يورث من أجل القرابة. وإن كانت للمال ، فهو مفعول ثان ليورث ، وكل من هذه يحتمل أن تكون «كان» تامة أو ناقصة. قاله ابن جزى. و(غير مضار)

، منصوب على الحال ، أو العامل فيه (يوصى) ، و(مضار) اسم فاعل ، ووصية : مصدر ليوصى ، أو مفعول (مضار).

يقول الحق جل جلاله : وإن كان الميت رجلا أو امرأة ، يورثان كلالة ، بحيث لا فرع لهما ولا أصل ، قد انقطع عمود نسبهما ، ولهما أخ أو أخت لأم فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ. فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ فِي الثُّلُثِ

(٤٧٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٧٧

، الذكر والأنثى سواء ، لأن الإدلاء للميت بمحض الأنوثة ، ومفهوم الآية : أنهما لا يرثان مع الأم والجدة ، كما لا يرثان مع البنت وبنت الابن ، إذ ليس حينئذ بكلالة ، وإنما قيدنا الأخ والأخت بكونهما للأم لأن الأخ الشقيق أو للأب سيأتى فى آخر السورة. والأخت تقدم أنّ لها النصف ، وأيضا : قد قرأ سعد بن أبى وقاص ، وابن مسعود : «وله أخ أو أخت لأم».

وهذا كله مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصى بِها أَوْ دَيْنٍ حال كونه غَيْرَ مُضَارٍّ فى الوصية أو الدين ، كالوصية بأكثر من الثلث ، أو للوارث ، أو فرارا منه ، فإن علم أنه قصد الإضرار ، رد ما زاد على الثلث ، واختلف فى رد الثلث على قولين. قاله ابن جزى. وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ ، أي : نوصيكم وصية ، أو غير مضار وصية من الله. قال ابن عباس : (الإضرار فى الوصية من الكبائر). وَاللَّهُ عَلِيمٌ بمصالح عباده ، يقسم المال على حسب المصلحة ، حَلِيمٌ لا يعاجل بالعقوبة من خالف حدوده.

الإشارة : اعلم أن الأخوة فى الشيخ كالأخوة فى النسب ، لأنهم يرضعون من ثدى واحدة ولبن واحد ، فإن مات أحدهم ، ورث أخوه المدد الذي كان يأخذه من شيخه ، وكذا إذا رجع – فإنه موت – فينقلب المدد إلى أخيه ، ومثاله كماء فرّق على قواديس ، فإذا انسدت إحدى القواديس رجع الماء إلى الأخرى ، فإن كانوا أكثر من واحد فهم شركاء فى ذلك المدد ، والله تعالى أعلم.

ثم حذّر الحق – تعالى – من مخالفة ما حدّ فى الوصايا والمواريث ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣ الى ١٤]

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَلَهُ عَذابٌ مُهِينٌ (١٤)

قلت : توحيد الضمير فى (ندخله) «١» مراعاة للفظ (من). وجمع الحال فى (خالدين) مراعاة للمعنى. و(خالدين) و(خالدا) : حال مقدرة من ضمير (ندخله) ، كقولك : مررت برجل معه صقر صائدا به غدا ، وليسا صفتين لجنات ونارا ، وإلا لوجب إبراز الضمير لأنهما جرتا على غير من هما له.

(١) قرأ نافع وابن عامر «ندخله» بالنون ، وقرأ الآخرون بالياء.

(٤٧٧/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٧٨

يقول الحق جل جلاله : تِلْكَ الأحكام التي شرعناها لكم فى أمر الوصايا والمواريث ، هى حُدُودُ اللَّهِ حدّها لكم لتقفوا معها ولا تتعدوها وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ فيما أمر به وحدّه ، وَرَسُولَهُ فيما شرّعه وسنّه يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها. وَذلِكَ هو الْفَوْزُ أي : الفلاح الْعَظِيمُ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ فيما أمر ونهى ، وَرَسُولَهُ فيما شرعه ، وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ التي حدها ، فتجاوز إلى متابعة هواه ، يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَلَهُ عَذابٌ مُهِينٌ. وهذا إذا أنكر مشروعيتها فيكون كافرا ، وإلّا كان عاصيا فى حكم المشيئة ، ومذهب أهل السنة أنه لا يخلد ، وحملوا الآية على الكافر ، أو عبارة عن طول المدة ، كما فى قاتل النفس. والله تعالى أعلم.

الإشارة : قد حدّ الحق – جل جلاله – لأهل الشريعة الظاهرة حدودا قام ببيانها العلماء ، وحدّ لأهل الحقيقة – وهى سر الولاية – حدودا ، قام بها الأولياء ، فمن قام بحدود الشريعة الظاهرة كان من المؤمنين الصالحين ، ومن تعداها كان من العاصين الظالمين ، ومن قام بحدود الحقيقة الباطنية ، وصحب أهلها كان من المحسنين العارفين المقربين ، ودخل جنة المعارف ، ومن تعدّ حدود الحقيقة ، أو لم يصحب أهلها كان من عوام أهل اليمين ، وله عذاب الحجاب فى غم الحساب ، وقال فى الحاشية : فى حد حدوده إشارة للعبودية ، فى إخراج كل عن نظره واختياره ، ثم انقياده وذلته لحكم ربه ، والوقوف عند حدوده.

وقال الورتجبي : قيل : (تلك حدود الله) أي : الإظهار من الأحوال للمريدين على حسب طاقتهم لها ، فإن التعدي فيها يهلكهم ، وقال أبو عثمان : ما هلك امرؤ لزم حده ولم يتعد طوره. هـ. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولمّا فرغ الحق تعالى من الأمر بحفظ الأموال ، شرع فى الكلام على حفظ الأنساب ، وقدّم الكلام أولا على الزنى إذ به تختلط الأنساب ، ويختل نظام حفظها ، ثم تكلم بعد على النكاح وما يحرم من النساء وما يحل ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٥ الى ١٦]

وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) وَاللَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما فَإِنْ تابا وَأَصْلَحا

فَأَعْرِضُوا عَنْهُما إِنَّ اللَّهَ كانَ تَوَّاباً رَحِيماً (١٦)
يقول الحق جلا جلاله : وَالنساء اللَّاتِي يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ أي : الزنى ، سمّى فاحشة لفحش قبحه وبشاعة فعله شرعا ، مِنْ نِسائِكُمْ المسلمات ، فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أي : اطلبوا من رماهنّ بذلك أن يشهدوا

(٤٧٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٧٩
عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، أي : من عدول المؤمنين يرونهما كالمرود فى المكحلة ، وإنما جعلوا أربعة مبالغة فى الستر على المؤمن ، أو ليكون على كل واحد اثنان ، فَإِنْ شَهِدُوا عليهن بذلك فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ، واجعلوه سجنا لهن حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أي : يستوفى أجلهن الموت ، أو يتوفاهن ملك الموت ، أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا كتعيين الحد المخلّص من السجن ، وكان هذا فى أول الإسلام ثم نسخ بما فى سورة النور من الحدود ، ويحتمل أن يراد التوصية بإمساكهن بعد أن يجلدن كى لا يعدن إلى الزنى بسبب الخروج والتعرض للرجال.
واكتفى بذكر حدّهن ، بما فى سورة النور ، وهذا الإمساك كان خاصا بالنساء بدليل قوله وَالَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ أي : الزاني والزانية منكم ، (فآذوهما) بالتوبيخ والتقريع – (فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما) أي :
اقطعوا عنهما الأذى ، أو أعرضوا عنهما بالإغماض عن ذكر مساوئهما.
قيل : إن هذه الآية سابقة على الأولى نزولا ، وكان عقوبة الزنى الأذى ثم الحبس ثم الجلد ، وقيل ، الحبس فى المساحقات ، والإيذاء فى اللواطين ، وما فى سورة النور فى الزناة. والذي يظهر. أن الحكم كان فى أول الإسلام فى الزنا : الإمساك للنساء فى البيوت بعد الإيذاء بالتوبيخ ، فتمسك فى بيتها حتى تموت ، أو يجعل الله لها سبيلا بالتزوج بمن يعفها عنه. والإيذاء للرجال بالتعيير والتقريع والتحجيم حتى تتحقق توبته ، ثم نسخ ذلك كله بالحدود ، وهو جلد البكر مائة وتغريبه عاما ورجم المحصن. والله تعالى أعلم.
الإشارة : ينبغى للعبد ، إذا طغت عليه نفسه ، وأرادت ارتكاب الفواحش ، أن يستشهد عليها الحفظة ، الذين يحفظون عليه تلك المعاصي ، فإن لم تستح ، فليعاقبها بالحبس فى سجن الجوع والخلوة والصمت ، حتى تموت عن تلك الشهوات ، أو يجعل الله لها طريقا بالوصول إلى شيخ يغيّبه عنها ، أو بوارد قوى من خوف مزعج أو شوق مقلق ، فإن تابت وأصلحت ، أعرض عنهاو اشتغل بذكر الله ، ثم يغيب عما سواه. وبالله التوفيق.
ثم ذكر الحق تعالى وقت التوبة التي تقبل ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٧ الى ١٨]

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٨)

(٤٧٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٨٠

يقول الحق جل جلاله : إِنَّمَا التَّوْبَةُ التي يستحق عَلَى اللَّهِ قبولها فضلا وإحسانا هى لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ أي : المعاصي متلبسين بِجَهالَةٍ أي : سفاهة وجهل وسوء أدب ، فكل من اشتغل بالمعصية فهو جاهل بالله ، قد انتزع منه الإيمان حتى يفرغ ، وإن كان عالما بكونها معصية ، ثُمَّ يَتُوبُونَ بعد تلك المعصية مِنْ قَرِيبٍ أي : من زمن قريب ، وهو قبل حضور الموت لقوله بعد : حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ، وقوله – عليه الصلاة والسلام – : «إنّ اللّه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» وإنما جعله قريبا لأن الدنيا سريعة الزوال ، متاعها قليل وزمانها قريب ، فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ تصديقا لوعده المتقدم ، وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً بإخلاصهم التوبة ، حَكِيماً فى ترك معاقبة التائب ، إذ الحكمة هى وضع الشيء فى محله.

وعن الحسن : قال : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «لما أهبط إبليس قال : وعزتك وعظمتك لا أفارق ابن آدم حتى تفارق روحه جسده ، قال الله تعالى : وعزتى وعظمتى لا أحجب التوبة عن عبدى حتى يغرغر بها». وعن أبى سعيد الخدري أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : «إنّ الشيطان قال : وعزتك لا أبرح أغوى عبادك ، ما دامت أرواحهم فى أجسادهم. قال الله تعالى : وعزتى وجلالى وارتفاع مكانى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى».

قال ابن جزى : وإذا تاب العبد توبة صحيحة بشروطها ، فيقطع بقبول توبته عند جمهور العلماء. وقال أبو المعالي : يغلب ذلك على الظن ولا يقطع. هـ.

وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ مقبولة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ أي : بلغت الحلقوم قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ فلا توبة لهم ، أُولئِكَ أَعْتَدْنا أي : أعددنا وهيأنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً ، قال البيضاوي : سوّى الحق تعالى بين من سوّف التوبة إلى حضور الموت من الفسقة ، وبين من مات على الكفر فى نفى التوبة للمبالغة فى عدم الاعتداد بها فى تلك الحالة ، وكأنه يقول : توبة هؤلاء وعدم توبة هؤلاء سواء. وقيل : المراد بالذين يعملون السوء : عصاة المؤمنين ، وبالذين يعملون السيئات : المنافقون لتضاعف كفرهم ، وبالذين يموتون : الكفار. هـ.

الإشارة : توبة العوام ليست كتوبة الخواص ، إنّ الله يمهل العوام ترغيبا لهم فى الرجوع ، ويعاقب الخواص على التأخير على قدر مقامهم فى القرب من الحضرة ، فكلما عظم القرب عظمت المحاسبة على ترك المراقبة ، منهم من يسامح له فى لحظة ، ومنهم فى ساعة ، ومنهم فى ساعتين ، على قدر المقام ، ثم يعاتبهم ويردهم إلى الحضرة.

وقال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى فى حاشيته : إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ أي : إنما الهداية بعد الذلة ، على الله لأنه الذي يخلص من قهره بكرمه الفياض وبرحمته التي غلبت غضبه ، كما قال تعالى :

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٨١

كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، ونبه على وقوع الذنب بهم قهرا ، ثم تداركهم بالهداية والإنابة ، فضلا على علمه بتربيتهم وتدريجهم لمعرفته بالعلم والحكمة بقوله : وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً. هـ.

ثم شرع فى أحكام النكاح ، وبدأ بالعضل لأنه يتعذر معه العقد ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (١٩)

قلت : أصل العضل : التضييق ، يقال : عضلت الدجاجة ببيضها إذا ضاقت ، ثم أطلق عرفا على منع المرأة من التزوج.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يحل لكم أن تمنعوا النساء من النكاح لترثوا ما لهن كَرْهاً. قال ابن عباس : كانوا فى الجاهلية إذا مات الرجل ، وله امرأة ، كان قريبه من عصبته أحق بها من نفسها ومن غيره ، فإن شاء تزوجها من غير صداق ، إلا الصداق الأول الذي أصدقها الميت ، وإن شاء زوّجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا ، وإن شاء عضلها وضيّق عليها لتفتدى منه بما ورثت من الميت ، أو تموت فيرثها ، وإن ذهبت إلى أهلها قبل أن يلقى وليّ زوجها ثوبه عليها فهى أحق بنفسها. فكانوا على ذلك فى أول الإسلام ، حتى توفى أبو قيس بن الأسلت الأنصاري ، وترك امرأته «كبشة بنت معن الأنصارية» ، فقام ابن له من غيرها فطرح ثوبه عليها ، ثم تركها ولم يقربها ، ولم ينفق عليها ، يضارّها لتفتدى منه ، فأتت إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن أبا قيس توفى وورث نكاحى ابنه ، وقد أضرّ بي وطوّل علىّ ، فلا هو ينفق علىّ ولا يدخل بي ، ولا يخلى سبيلى ، فقال لها النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «اقعدى فى بيتك حتى يأتى فيك أمر الله». قالت : فانصرفت

وسمعت بذلك النساء فى المدينة فأتين النبي صلّى اللّه عليه وسلم وهو فى مسجد الفضيخ ، فقلن : يا رسول الله : ما نحن إلا كهيئة كبشة ، غير أنه لا ينكحنا الأبناء ، ونكحنا أبناء العم ، فنزلت الآية.

فمعنى الآية على هذا : لا يحل لكم أن تجعلوا النساء يورثن عن الرجال كما يورث المال.

وقيل : الخطاب للأزواج الذين يمسكون المرأة فى العصمة ليرثوا مالها ، من غير غبطة بها ، وإنما يمسكها انتظارا لموتها ، وقيل : الخطاب للأولياء الذين يمنعون ولياتهم من التزوج ليرثوهن دون الزوج.

وَلا يحل لكم أيضا أيها الأزواج أن تَعْضُلُوهُنَّ ، أي : تحبسوهن من غير حاجة لكم فيهن لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ من الصداق افتداء فيه بإضراره. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : (هى أيضا فى الأزواج الذين

(٤٨١/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٨٢

يمسكون المرأة ويسيئون عشرتها حتى تفتدى بصداقها) ، إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، كالنشوز وسوء العشرة وعدم العفة ، فيحل له حينئذ حبسها حتى تفتدى منه بصداقها ، فيأخذه خلعا على مذهب مالك. والله تعالى أعلم.

الإشارة : لا يحل للمريد أن يضيق على نفسه تضييقا يفضى إلى العطب ، فالنفس كالبهيمة : علفها واستخدامها ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «لا يكن أحدكم كالمنبت ، لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى».

فبعض الناس يسمعون أن من ضيّق على نفسه أورثته العلوم ، فيضيق عليها تضييقا فاحشا ليرث ذلك منها كرها ، وإنما يمنعها من شهواتها الزائدة على قيام البنية ، إلا أن تأتى بفاحشة مبينة ، بحيث تطغى عليها ، فيضيق عليها بما لا يفضى إلى الهلاك ، وهذا كله إنما ينفعه إذا صح ملكه لها بالعقد الصحيح من الشيخ الكامل ، وإلّا كان تعبه باطلا ، كمن يريد أن يرى امرأة غيره أو دابة غيره. والله تعالى أعلم.

ثم أمر الحق تعالى بحسن العشرة مع النساء ، فقال :

وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ...

يقول الحق جل جلاله : وعاشروا النساء بِالْمَعْرُوفِ بأن تلاطفوهن فى المقال وتجملوا معهن فى الفعال ، أو يتزيّن لها كما تتزين له. قال الورتجبي : كونوا فى معاشرتهن فى مقام الأنس وروح المحبة ، وفرح العشق حين أنتم مخصوصون بالتمكين والاستقامة والولاية ، فإن معاشرة النساء لا تليق إلا فى المستأنس بالله ، كالنبى صلّى اللّه عليه وسلم وجميع المستأنسين من الأولياء والأبدال ، حيث أخبر صلّى اللّه عليه وسلم عن كمال مقام أنسه بالله ورؤيته لجمال مشاهدته حيث قال : «حبّب إلىّ من

دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة.» «١»
ثم قال : عن ذى النون : المستأنس بالله يستأنس بكل شيء مليح ووجه صبيح ، وبكل صوت طيب وبكل رائحة طيبة. ثم قال : عن ابن المبارك : العشرة الصحيحة : ما لا يورثك الندم عاجلا ولا آجلا ، وقال أبو حفص : المعاشرة بالمعروف : حسن الخلق مع العيال فيما ساءك. هـ.
فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فاصبروا فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً إما ولدا صالحا أو عاقبة حسنة فى الدين. قال ابن عمر : إن الرجل يستخير الله فيخار له فيسخط على ربه ، فلا يلبث أن ينظر فى العاقبة فإذا هو قد خير له. هـ. حكى أن أبا الإمام مالك رضي اللّه عنه تزوج امرأة فدخل عليها فوجدها سوداء ، فبقى متفكرا

---

(١) الحديث أخرجه أحمد والنسائي والحاكم وغيرهم : بدون لفظ : «ثلاث». وقال الحافظ ابن حجر. وليس فى شيء من طرقه لفظ «ثلاث». انظر : الفتح السماوي.

ولم يقربها ، فقالت له : هل استخرت ربك؟ فقال : نعم ، فقالت : أتتهم ربك ، فدخل بها ، فحملت بالإمام مالك صاحب المذهب. وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «لا يفرك مؤمن مؤمنة – أي لا يبغضها – إن سخط منها خلقا رضى منها آخر». قال الورتجبي : قيل : غيب عنك العواقب لئلا تسكن إلى مألوف ، ولا تفر من مكروه.
الإشارة : إذا طهرت النفس من البقايا ، وكملت فيها المزايا ، وانقادت بكليتها إلى مولاها ، وجب الإحسان إليها والصلح معها ومعاشرتها بالمعروف ، فإنما تجب مجاهدتها ما دامت كافرة فإذا أسلمت وانقادت وجب محبتها والإحسان إليها. فإن كرهتها فى حال اعوجاجها فجاهدتها ورضتها حتى استقامت كان فى عاقبة ذلك خير كثير ، وعادت تأتى إليك بالعلوم اللدنية تشاهد فيها أسرارا ربانية.
قال الورتجبي : كل أمر من الله – سبحانه – جاء على مخالفة النفس امتحانا واختبارا ، والنفس كارهة فى العبودية فإذا ألزمت عليها حقوق الله بنعت الرياضة والمجاهدة واستقامت فى عبودية الله ، أول ما يطلع على قلبك أنوار جنان القرب والمشاهدة ، قال الله تعالى : وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى ، وفى أجواف ظلام المجاهدة للعارفين شموس المجاهدات وأقمار المكاشفات. هـ. المراد منه.
فإذا لم يصبر العبد على أذى زوجته ، وأراد فراقها ، فلا بد أن يؤدى إليها صداقها ، كما أشار إلى ذلك

الحق جل جلاله ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٢٠ الى ٢١]

وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (٢١)

قلت : «بهتانا» : حال ، أو على إسقاط الخافض.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ أَرَدْتُمُ أن تبدلوا زوجا مَكانَ زَوْجٍ أخرى بأن تطلقوا الأولى وتتزوجوا غيرها ، وقد كنتم أعطيتم إِحْداهُنَّ قِنْطاراً أو أقل أو أكثر ، فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً بل أدوه لها كاملا. ثم وبّخهم على ما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، فقال : أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً ، أي : مباهتين وآثمين ، أو بالبهتان والإثم الظاهر ، والبهتان : الكذب الذي يبهت المكذوب عليه ، روى أن الرجل كان إذا أراد أن يتزوج امرأة

(٤٨٣/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٨٤

جديدة ، بهت التي عنده بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه فى تزوج الجديدة ، فنهوا عن ذلك.

ثم استعظم ذلك فقال : وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ بالمماسة والجماع حتى تقرر الصداق واستحقته بذلك ، وقد أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً وهو حسن الصحبة ، أو الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان ، أو تمكينها نفسها منه ، فإنها ما مكنته إلا لوفاء العهد فى الصداق ودوام العشرة. والله تعالى أعلم.

الإشارة : إذا كان العبد مشتغلا بجمع دنياه ، عاكفا على حظوظه وهواه ، ثم استبدل مكان ذلك الانقطاع إلى مولاه والاشتغال بذكر الله ، حتى أفضى إلى شهود أنوار قدسه وسناه ، فلا ينبغى أن يرجع إلى شيء خرج عنه لله.

ولا يلتفت إلى ما ترك من أمر دنياه ، فإن الرجوع فى الشيء من شيم اللئام وليس من شأن الكرام ، وتأمل ما قاله الشاعر :

إذا انصرفت نفسى عن الشيء لم تكن إليه بوجه آخر الدهر تقبل

وكيف تأخذ ما خرجت عنه لله ، وقد أفضيت إلى شهود أنوار جماله وسكنى حماه ، فاتحد عندك كل الوجود ، وكل شيء عن عين بصيرتك مفقود ، بعد أن أخذ عليك مواثيق العهود ، ألا ترجع إلى ما كان يقطعك عن حضرة الشهود ، وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم شرع يتكلم على ما يحرم من النساء ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٢٢]

وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلاَّ ما قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَمَقْتاً وَساءَ سَبِيلاً (٢٢)

قلت : أوقع «ما» على ما يعقل لقلة عقل النساء ، كما تقدم «١» ، أو مصدرية ، والاستثناء منقطع أو متصل على وجه المبالغة فى التحريم ، أي لا تنكحوا ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف لآبائكم إن قدرتم عليه ، فهو كقول الشاعر :

لا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب «٢»

يقول الحق جل جلاله : ولا تتزوجوا ما تزوج به آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ بالعقد فى الحرائر والوطء فى الإماء ، إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ فإن الله قد عفا عنكم بعد فسخه وردّه ، إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً عظيمة عند الله ،

---

(١) راجع : تفسير قوله تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى .. الآية (٣) من هذه السورة.

(٢) البيت للنابغة الزبيانى.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٨٥

ما أحله لأحد من الأمم قبلكم ، وَمَقْتاً أي : ممقوتا فاعله عند الله وعند ذوى المروءات من عباد الله ، وكان يسمى ولد الرجل من امرأة أبيه مقيتا ومقتيّا. وَساءَ سَبِيلًا ، وبئس طريقا لمن يريد أن يسلكه بعد التحريم.

فالمراد بالنكاح فى الآية : العقد ، فعلى هذا لا تحرم المرأة على الولد إذا زنا بها أبوه على المشهور ، قال فى الرسالة :

ولا يحرم بالزنا حلال. هـ.

الإشارة : ما جرى فى آباء البشرية يجرى فى آباء الروحانية من طريق الأدب لا من طريق الشرع ، فلا ينبغى للمريد أن يتزوج بامرأة شيخه ، مات عنها أو طلقها ، فإن ذلك قبيح ومقت عند أرباب الأدب ، وأما بنت الشيخ فإن قدر على القيام بتعظيمها فلا بأس ، وقد تزوج سيدنا على – كرم الله وجهه – بنت سيدنا رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم ، لكن السلامة فى الترك أكثر.

وهنا إشارة أخرى أرق ، وهى أن يشير بالنساء إلى الأحوال ، فلا ينبغى للفقير أن يتعاطى أحوال الشيخ ، ويفعل مثله. فإن الشيخ فى مقام وهو فى مقام ، فإذا رجع الشيخ إلى الأسباب وتعاطى العلويات ، فلا يقتدى به. إلا أن يدرك مقامه ، وكان شيخ شيخنا يقول : (لا تقتدوا بالأشياخ فى أفعالهم ، وإنما

اقتدوا بهم فى أقوالهم ، فإن أقوالهم لكم ولهم ، وأفعالهم خاصة بهم). إلا ما قد سلف لهم من الأحوال فى حال سيرهم ، فخذوها وسيروا من حيث ساروا ، حتى تدركوا ما أدركوا ، وافعلوا ما شئتم. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية المحرمات ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٢٣]

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَبَناتُكُمْ وَأَخَواتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخالاتُكُمْ وَبَناتُ الْأَخِ وَبَناتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضاعَةِ وَأُمَّهاتُ نِسائِكُمْ وَرَبائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلاَّ ما قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢٣)

قلت : «كتاب الله عليكم» : مصدر مؤكد. أي : كتب الله ذلك كتابا ، أو على الإغراء.

(٤٨٥/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٨٦

يقول الحق جل جلاله : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ من النساء أصناف : منها بالنسب ومنها بالرضاع ومنها بالمصاهرة : فأما التي تحرم بالنسب فهى أُمَّهاتُكُمْ ، وهى الأم ، والجدة من الأم ومن الأب ما علون ، وَبَناتُكُمْ وهى البنت وبنت الابن ، وبنت البنت ما سفلن ، وَأَخَواتُكُمْ وهى الأخت الشقيقة والتي للأب والأخت للأم ، (و عماتكم) وهى أخت الوالد وأخت الجد ما علت ، شقيقة أو لأب أو لأم ، وَخالاتُكُمْ وهى أخت الأم وأخت الجدة ما علت ، شقيقة أو لأب أو لأم ، وَبَناتُ الْأَخِ الشقيق ، أو للأب ، وما تناسل منهم. وَبَناتُ الْأُخْتِ ، فيدخل كل ما تناسل من الأخت الشقيقة أو للأب أو للأم. والضابط فى ذلك : أنه يحرم على الرجل أصوله وإن علت ، وفصوله وإن سفلت ، وفصول أبويه ما سفلت ، وأول فصل من كل أصل متقدم على أبويه.

ثم ذكر ما يحرم بالرضاع ، فقال : وَأُمَّهاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضاعَةِ ذكر تعالى صنفين ، وحرمت السّنّة كل ما يحرم من النسب. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «يحرم من الرّضاع ما يحرم من النّسب» فيدخل الأصناف السبعة ، وهى الأم من الرضاع والبنت والأخت والعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت.

ثم ذكر ما يحرم بالمصاهرة ، فقال : وَأُمَّهاتُ نِسائِكُمْ ، وتقدمت زوجة الأب ، وسيأتى حليلة الابن ، وَرَبائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمْ لا مفهوم لهذا القيد ، لكنه جرى مجرى الغالب ، فهى محرمة ، كانت فى حجره أم لا ، على قول الجمهور ، وروى عن على رضي اللّه عنه أنه أجاز نكاحها إن لم

تكن فى حجره. وأما قوله :
اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فهو معتبر إجماعا ، فلو عقد على المرأة ولم يدخل بها ، فله طلاقها ويأخذ ابنتها ، ولذلك قال : فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أن تنكحوهن.
وَحَلائِلُ أَبْنائِكُمُ وهى التي عقد عليها الابن فحلت له ، فتحرم على الأب بمجرد العقد. والحاصل : أن زوجة الأب وزوجة الابن وأم الزوجة يحرمن بالعقد ، وأما بنت المرأة فلا تحرم إلا بالدخول بأمها ، فالعقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات. وقوله تعالى : الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ احترز به من زوجة المتبنّى فلا تحرم حليلته ، كقضية زيد مع رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم.
وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ، شقيقتين أو للأب أو للأم ، وهذا فى النكاح ، وأما فى الملك دون الوطء فلا بأس ، أما فى الوطء فمنعه مالك والشافعي وأبو حنيفة ، وأجازه الظاهرية ، إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ أي : فى الجاهلية ، فقد عفا عنكم ، إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً ، قال ابن عباس : (كانت العرب تحرم كل ما حرمت الشريعة إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين ، فلذلك ذكر الحق تعالى : إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ فيهما.

(٤٨٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٨٧
[سورة النساء (٤) : آية ٢٤]
وَالْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ إِلاَّ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (٢٤)
وَحرم الله تعالى – الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ وهنّ اللاتي فى عصمة أزواجهن ، فلا يحل نكاحهن ما دمن فى عصمة الزوج ، إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ من الغنيمة ، فإذا سبيت الكافرة ، ولها زوج ، جاز لمن ملكها أن يطأها بالملك بعد الاستبراء ، قال فى المختصر : وهدم السبي النكاح ، إلا أن تسبى وتسلم فى عدتها فهو أحق بها ، وقد بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم جيشا إلى أوطاس ، فأصابوا سبيا من العدو ، ولهن أزواج من المشركين فتأثموا من غشيانهن ، فنزلت الآية مبيحة لذلك ، كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أي : كتب الله ذلك عليكم كتابا ، وهو ما حرّم فى الآية من النساء.
الإشارة : اعلم أن الإنسان لا يصير كاملا عارفا حتى يولد ثلاث مرات بعد الأم الحسية ، أولها : خروجه من بطن حب الدنيا الدنية ، ثم من الغفلة والشهوات الجسمانية ، ثم من ضيق الأكوان الظلمانية ، إلى فضاء المشاهدة والمعاينة ، وقال بعض الأولياء : (ليس منا من لم يولد مرتين) : فاعتبر الأولى والثالثة ، فإذا خرج الإنسان من هذه البطون حرّم الله عليه نكاحها والرجوع إليها.

وكذا يحرم عليه الرجوع إلى ما تولد منه من الزلات ، والأحوال الظلمانية ، وما كان ألفه وتواخى معه من البطالات والمألوفات ، وما وجد عليه أسلافه من التعصبات والحميات والرئاسات ، ولا فرق بين ما واجهه من ذلك من قبل الآباء والأمهات ، وكذلك ما ارتضع من ثدى الشهوات من لبان الغفلة ، وتراكم الأكنّات «١» ، فليبادر إلى تحريمها ، وفطام نفسه عنها ، قبل تحكمها ، كما قال البوصيرى رضي اللّه عنه :

والنّفس كالطّفل إن تهمله شبّ على حبّ الرّضاع وإن تفطمه ينفطم

وكذا يحرم عليه ، صحبة من ارتضع معه فى هذا الثدي قبل الفطام من الأخوة والأخوات ، وكذا أمهات الخطايا ، وهى حب الدنيا والرياسة والجاه ، وكذلك حرمت عليكم ربائب العلائق والعوائق ، لتدخلوا بلاد الحقائق ، فإن لم تكونوا من أهل الحقائق فلا جناح عليكم إذ كنتم من عوام الخلائق ، وكذلك يحرم عليكم ما حل لأبناء جنسكم من تعاطى الأسباب والاشتغال بها عن خدمة رب الأرباب ، وأن تجمعوا بين حب الدنيا ومحبة المولى. قال الشافعي رضي اللّه عنه : (من ادّعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها ، فقد كذب).

إلا ما قد سلف فى أيام البطالة ، وكذا يحرم على المريد المتجرد المستشرف على المعاني تعاطى العلوم الظاهرة ، التي دخل بها أهل الظاهر وافتضوا بكارتها – إلا ما ملكه قبل التجريد ، فلا يضره إن غاب عنها فى أسرار التوحيد ، والله تعالى أعلم بأسرار غيبه.

---

(١) الأكنات : الأغطية.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٨٨

ثم ذكر الحق تعالى ما يحل من النساء ، فقال :

وَأُحِلَّ لَكُمْ ...

قلت : «وأحلّ» عطف على الفعل العامل فى «كتاب الله عليكم» أي : كتب الله عليكم تحريم ما ذكر ، وأحل ما سوى ذلك. ومن قرأ بالبناء للمفعول فعطف على «حرمت». و(أن تبتغوا) مفعول لأجله ، أي : إرادة أن تبتغوا. أو بدل من (وراء ذلكم). و(محصنين) حال من الواو. والسفاح : الزنا ، من السفح وهو الصب ، لأنه يصب المنى فى غير محله.

يقول الحق جل جلاله : وَأُحِلَّ لَكُمْ أن تتزوجوا من النساء ما سوى ذلكم المحرمات ، وما سوى ما حرمته السنة بالرضاع ، كما تقدم ، والجمع بين المرأة وعمتها ، وبين المرأة وخالتها ، فقد حرمته السنة

، وإنما أحل لكم نكاح النساء إرادة أن تطلبوا بأموالكم الحلال ، فتصرفوها فى مهور النساء .. حال كونكم مُحْصِنِينَ. أي : أعفة متحصنين بها من الحرام ، غَيْرَ مُسافِحِينَ أي : غير زناة ، تصبون الماء فى غير موضعه ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ أي : من تمتعتم به من المنكوحات فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ أي : مهورهن ، لأن المهر فى مقابلة الاستمتاع فَرِيضَةً ، أي : مفروضة مقدرة ، لا جهل فيها ولا إبهام ، وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ من زيادة على المهر المشروط ، أو نقص منه ، مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ، التي وقع العقد عليها ، إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً بمصالح خلقه ، حَكِيماً فيما شرع من الأحكام.

وقيل قوله : فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ ... إلى آخره. نزل فى نكاح المتعة ، التي كانت ثلاثة أيام فى فتح مكة ، ثم نسخ بما روى عنه – عليه الصلاة والسلام – أنه أباحه ، ثم أصبح يقول : «أيّها النّاس ، إنّى كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النّساء ، ألا إنّ الله حرّم ذلك إلى يوم القيامة». وهو النكاح المؤقت بوقت معلوم ، سمى به لأن الغرض منه مجرد الاستمتاع. وتمتعها بما يعطى لها. وجوّزه ابن عباس رضي اللّه عنه ثم رجع عنه. والله تعالى أعلم.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله من طريق الإشارة : إذا خرجتم من بطن الشهوات ، ورفضتم ما كنتم عليه من العوائد والمألوفات ، وزهدتم فيما يشغل فكرتكم من العلوم الرسميات ، حل لكم ما وراء ذلكم من العلوم اللدنية

(٤٨٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٨٩

والأسرار الربانية ، التي هى وراء طور العقول ولا تدرك بالطروس «١» ولا بالنقول ، وإليها أشار ابن الفارض رضي اللّه عنه حيث قال :

ولا تك ممّن طيّشته طروسه بحيث استخفت عقله واستفزّت

فثمّ وراء النّقل علم يدقّ عن مدارك غايات العقول السليمة

تلقّيته منّى وعنى أخذته ونفسى كانت من عطاء ممدّة

أردنا منكم أن تبتغوا ببذل أمواكم ومهجكم تلك العلوم المقدسة ، والأسرار المطهرة ، متحصنين من دنس الحس والهوى ، غير مباشرين لنجاسة الدنيا ، ولا مصطحبين مع أهلها ، لتتمتعوا بشهود أسرارنا ، وأنوار قدسنا ، فما استمتعتم به من ذلك ، فصونوه عن غير أهله ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من إعطائه لأهله ، من بعد حفظه عمن لا يستحقه ، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكم من عجز عن صداق الحرة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٢٥ الى ٢٨]

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ الْمُؤْمِناتِ فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَناتٍ غَيْرَ مُسافِحاتٍ وَلا مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ فَإِذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً (٢٨)

قلت : الطول : الغنى والسعة ، ويطلق على العلو ، مصدر طال طولا ، وهو مفعول «يستطع» أو مصدر له – لتقارب معناهما ، و(أن ينكح) بدل منه على الأول ، أو مفعول به على الثاني ، أي : لأن ينكح ، و(محصنات غير مسافحات) ، حالان ، والعامل فيه : (انكحوهن) ، والخدن : الخليل.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أي : لم يجد غنى يقدر به على نكاح الْمُحْصَناتُ ، أي : الحرائر الْمُؤْمِناتِ ، فليتزوج من ما ملكت أيمانكم ، من الإماء المؤمنات دون الكافرات ، فإن أظهرت الإيمان فاكتفوا بذلك ، وعلم الباطن لا يعلمه إلا الله ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ فلا يمنعكم من نكاحهن خوف المعرة ، فإنما أنتم جنس واحد ، ودينكم واحد ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فلا تستنكفوا من نكاحهن ،

---

(١) الطروس : الصحف.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٩٠

فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ، أي أربابهن ، حتى يعقدوا لكم نكاحهن ، وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ : أي : مهورهن ، وهن أحق به دون ساداتهن ، على مذهب مالك ، بِالْمَعْرُوفِ من غير مطل ، ولا نقص ، على ما تقتضيه السنة. حال كونهن مُحْصَناتٍ أي : عفيفات غَيْرَ مُسافِحاتٍ أي : غير زانيات وَلا مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ. أي : أصحاب يزنون بهن. وكان فى الجاهلية من النساء من تتخذ صاحبا واحدا تزنى معه خاصة ، ومنها من لا ترد يد لامس.

قال ابن جزى : مذهب مالك وأكثر أصحابه أنه لا يجوز للحر نكاح الأمة إلا بشرطين : أحدهما : عدم الطول وهو ألّا يجد ما يتزوج به حرة ، والآخر : خوف العنت وهو الزنا. لقوله بعد هذا : ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ، وأجاز ابن القاسم نكاحهن دون الشرطين ، على القول بأن دليل الخطاب لا يعتبر

، واتفقوا على اشتراط الإسلام فى الأمة ، لقوله : مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ إلا أهل العراق فلم يشترطوه. هـ.

الإشارة : فمن لم يستطع أن ينكح أبكار الحقائق ، لكونه لم يقدر أن يدفع عن قلبه الشواغل والعلائق ، فليتنزل لنكاح العلوم الرسمية والأعمال الحسية ، بأخذها من أربابها ، ويحصنها بالإخلاص فى أخذها ، ويقوم بحقها بقدر الإمكان ، وهو بذلها لأهلها ، والصبر على نشرها ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، فإن صح قصده ، وخلص عمله ، قيض الله له وليا من أوليائه يغنيه بالله ، حتى يصير من الأغنياء به ، فيتأهل لنكاح الحرائر ، ويلتحق بأولياء الله الأكابر ، (و ما ذلك على الله بعزيز).

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه لما تكلم على ثمرات المحبة – قال : فترى النفس مائلة لطاعته ، والعقل متحصنا بمعرفته «١» ، والروح مأخوذة فى حضرته ، والسر مغمورا فى مشاهدته ، والعبد يستزيد [من حبه «٢»] فيزاد ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته ، فيكسى حلل التقريب على بساط القربة ، ويمس أبكار الحقائق وثيبات العلوم. هـ. فعلم الحقائق أبكار ، وما يوصل إليه من علوم الطريقة ثيبات حرائر ، وما سواها من علوم الرسوم إماء بالنسبة إلى غيرها ، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حدّ الأمة إذا زنت ، فقال :

قلت : أحصن الرجل – بفتح الهمزة وضمها – : صار محصنا بالفتح والكسر ، وهذا مما اتحد فيه البناء للفاعل والمفعول. وقيل بالفتح ، معناه : أسلم ، وبالضم : تزوج.

---

(١) فى الأصول : بمعروفه ، والمثبت هو ما فى لطائف المنن للسكندرى.

(٢) ما بين المعكوفتين من تدخل الشيخ المفسر فى النقل.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٩١

يقول الحق جل جلاله : إن الإماء إذا تزوجن فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ ، وهو الزنا ، فعليهن نصف ما على الحرة من الحد ، وهو خمسون ، لأن حد البكر مائة. ويفهم منه أنها لا ترجم لأن الرجم لا يتبعض. وكذلك الذكور من العبيد عليهم نصف الحدود كلها ، ولا رجم عليهم ، وسمى الحد عذابا ، كقوله : وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

الإشارة : بقدر ما يعلو المقام يشدد العقاب ، وبقدر ما يحصل من القرب يطلب الآداب ، فليست المعصية فى البعد كالمعصية فى القرب ، وليس يطلب من البعيد ما يطلب من القريب ، وانظر إلى أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلم حيث قال تعالى لهن : يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ

يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ. وما ذلك إلا لحظوتهن وشدة قربهن من الله. ولذلك كان لا يدخل الحضرة إلا أهل الآداب والتهذيب ، بعد التدريج والتدريب ، وتأمل قضية الجنيد ، حيث قيل له فى المنام : مثلك لا يرضى منه هذا ، حيث خطر على قلبه الاعتراض على السائل ، غير أن المقربين يعاتبون ، ويردون إلى الحضرة ، وأهل البعد يزيدون بعدا ، ولكن لا يشعرون ، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر شرط تزوج الأمة لعادم الطول ، فقال :

ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ...

قلت : العنت : المشقة والضرر ، ولا ضرر أعظم من مواقعة الإثم ، ولا سيما بأفحش الفواحش وهو الزنا ، (يريد الله ليبين لكم) ، أي : لأن يبين ، واللام زائدة فى المفعول ، لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة.

يقول الحق جل جلاله : ذلِكَ أي : نكاح الإماء إنما أبحته لمن خشى الوقوع فى الزنا ، الذي هو أقبح الفواحش ، فنكاح الأمة ، وإرقاق الولد يباع فى الأسواق أخف من الزنا. وَأَنْ تَصْبِرُوا عن نكاحهن ، مع التعفف عن الزنا ، خَيْرٌ لَكُمْ لئلا يرق أولادكم. وعن أنس قال : سمعت النبي صلّى اللّه عليه وسلم يقول : «من أراد أن يلقى الله طاهرا مطهّرا فليتزوّج الحرائر» وقال أبو هريرة : سمعته صلّى اللّه عليه وسلم يقول : «الحرائر صلاح البيت ، والإماء هلاك البيت «١»».

---

(١) الحديث ضعفه السيوطي فى الجامع الصغير.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٩٢

وَاللَّهُ غَفُورٌ لكم فيما سلف من المخالفة ، رَحِيمٌ بكم ، حيث رخّص لكم عند خوف الإثم نكاح الأمة ، يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ شرائع دينكم ، ومصالح أموركم ، وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أي : مناهج من تقدمكم من أهل الرشد ، كالأنبياء والصالحين ، لتسلكوا مناهجهم ، كحفظ الأموال والأنساب ، وتحريم الأمهات والبنات والأخوات ، فإنهن محرمات على من قبلكم ، وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ أي : يغفر ذنوبكم الماضية ، أو يرشدكم إلى التوبة ، أو يمنعكم من المعاصي بالعصمة. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بما أسلفتم وما تستقبلونه من أفعالكم ، حَكِيمٌ بما دبر وأبرم.

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ كرره توطئة لقوله : وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا عن الحق مَيْلًا عَظِيماً بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات ، وكأنه تعالى يقول : إنا نريد توبتكم ورشدكم ، والذين يتبعون الشهوات يريدون ميلكم وإضلالكم ، والمراد بهم الزناة لأنهم يودون أن يكون

الناس كلهم زناة ، وأمّا من تعاطى شهوة النكاح فى الحلال ، فإنه متبع للحق لا لهم ، وقد قال – عليه الصلاة والسلام – :

«تناكحوا تناسلوا ، فإنّى مباه بكم الأمم يوم القيامة». وقد كان سيدنا على – كرم الله وجهه – أزهد الصحابة ، وكان له أربع حرائر وسبع جوارى سرّيّات ، وقيل : سبع عشرة ، وقيل : المراد بهم اليهود والنصارى ، لأن اليهود يحلون الأقارب من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت. وقيل : المجوس.

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ فلذلك شرع لكم الشريعة الحنيفية السمحة السهلة ، ورخص لكم عند المضايق فى نكاح الأمة. وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً فى كل شىء ، لأنه خلق من ضعف ، ويؤول إلى ضعف ، أسير جوعة ، صريع شبعة ، وخصوصا عن شهوة النساء ، فإنه لا يصبر عن الجماع ، ولا يكون فى شىء أضعف منه فى أمر النساء ، وعن عبادة ابن الصامت رضي اللّه عنه أنه قال : (ألا ترونى أنى لا أقوم إلا رفدا «١» ، ولا آكل إلا ما ليّن لى ، وقد مات صاحبى – يعنى ذكره – منذ زمان ، وما يسرنى أنى خلوت بامرأة لا تحل لى ، وأن لى ما تطلع عليه الشمس ، مخافة أن يأتينى الشيطان فيحركه ، على أنه لا سمع له ولا بصر.).

قال ابن عباس : ثمانى آيات فى سورة النساء ، هى خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت ، يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ ...

الآية ، إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ .... الآية ، إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ ... ، وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ...

الآية ، ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ ... الآية. هـ.

الإشارة : إنما ينزل المريد إلى العلوم الرسمية ، أو الأعمال الحسية ، إذا خشى الانمحاق أو الاصطلام فى بحر الحقائق ، وإن صبر وتماسك ، حتى يتقوى على حمل أعبائها ، فهو خير له ، لأن الرجوع إلى الحس ، لا يؤمن من

---

(١) أي : إلّا بمعاونة غيرى.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٩٣

الحبس ، والله غفور لمن تنزل لعلة ما تقدم ، رحيم حين جعل له الرخصة ، يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ سلوك الطريق إلى عين التحقيق ، ويهديكم طرق الوصول ، كما هدى من قبلكم ، ويتوب فيما خطر ببالكم ،

من الفترة أو الوقفة ، والله يريد أن يتعطف عليكم ، لترجعوا إليه بكليتكم. وأهل الغفلة المنهمكون فى الشهوات ، يريدون ميلكم عن طريق الوصول إلى حضرة ربكم ، يريد الله أن يخفف عنكم ، فلا يحملكم من الواردات إلا ما تطيقه طاقتكم ، لأنكم ضعفاء إلا إن قوّاكم. اللهم قونا على ما نريد ، وأيدنا فيما تريد ، إنك على كل شىء قدير.

ولمّا ذكر ما يتعلق بحفظ أموال اليتامى وأموال النساء ، وانجر الكلام إلى ما يتعلق بهن من حدودهن ، وما يحل وما يحرم منهن ، ذكر ما بقي من حفظ أموال الرجال ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٢٩ الى ٣٠]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْواناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ناراً وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (٣٠)

قلت : الاستثناء منقطع ، وكان تامة لمن رفع ، وناقصة لمن نصب ، واسمها : ضمير الأموال ، على حذف مضاف ، إلّا أن تكون الأموال أموال تجارة.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ الذي لا تجوزه الشريعة ، كالربا والقمار ، والغصب والسرقة ، والخيانة والكهانة والسحر وغير ذلك. إِلَّا أَنْ تَكُونَ ، أي : لكن إن وجدت تِجارَةً صحيحة عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ أي : اتفاق منكم على البيع ، وبه استدلت المالكية على انعقاد البيع بالعقد ولو لم يحصل تفرق بالأبدان.

وقال الشافعي : إنما يتم بالتفرق بالأبدان ، لقوله – عليه الصلاة والسلام : «البيّعان بالخيار ما لم يتفرّقا». وحمله مالك على التفرق بالكلام ، وقال أكثر المفسرين : التخيير ، هو أن يخير كل واحد منهما صاحبه بعد عقد البيع. وقد ابتاع عمرو ابن جرير فرسا ، ثم خيّر صاحبه بعد البيع ، ثم قال : سمعت أبا هريرة يقول : البيع عن تراض. قال البيضاوي :

وتخصيص التجارة من الوجوه التي يحل بها انتقال مال الغير ، لأنها أغلب وأوفق لذوى المروءات ، ويجوز أن يراد بها الانتقال مطلقا. وقيل : المقصود بالنهى : صرف المال فيما لا يرضاه الله تعالى ، وبالتجارة : صرفه فيما يرضى. هـ.

الإشارة : لا تصرفوا أموالكم ولا أحوالكم فى غير ما يقربكم إلى الحق فإن ما سوى الحق كله باطل ، كما قال الشاعر :

ألا كلّ شىء ما خلا الله باطل وكلّ نعيم لا محالة زائل «١»

---

(١) راجع التعليق على هذا البيت عند إشارة الآية [١٥٠] من سورة البقرة. [.....]

إلا أن يكون صرفه فى تجارة رابحة ، تقربكم من الحبيب ، وتجلبكم إلى حضرة القريب ، فتلك تجارة رابحة وصفقة نافعة. والله تعالى أعلم.

ثم تكلم على بعض ما يتعلق بحفظ الأبدان ، وسيأتى تمامه فى قوله : (و ما كان لمؤمن ...) إلى آخر الآيات ، فقال :

وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ...

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، بالخنق أو بالنخع «١» أو بالجرح ، الذي يؤدى إلى الموت ، أو بالإلقاء إلى التهلكة. وعن عمرو بن العاص رضي اللّه عنه قال : (بعثني رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فى غزوة ذات السّلاسل ، فأجنبت فى ليلة باردة ، فأشفقت على نفسى وصليت بأصحابى صلاة الصبح بالتيمم. فلمّا قدمت ذكرت ذلك لرسول الله صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال : «يا عمرو صلّيت بأصحابك وأنت جنب؟» قلت : نعم يا رسول الله ، أشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فذكرت قوله تعالى : لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً ، فضحك النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، ولم يقل شيئا).

أو : ولا تقتلوا إخوانكم فى الإسلام ، فإن المؤمنين كنفس واحدة. قال البيضاوي : جمع فى التوصية بين حفظ النفس والمال – الذي هو شقيقها من حيث إنه سبب قوامها – استبقاء لهم. هـ.

وإنما نهاكم عن قتل أنفسكم رأفة ، ورحمة بكم ، إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً ، فقد أمر بنى إسرائيل بقتل أنفسهم ، وأنتم نهاكم عنه. وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ القتل. أو جميع ما سبق من المحرمات عُدْواناً وَظُلْماً ، أي :

إفراطا فى التجاوز عن الحد ، وإتيانا بما لا يستحق ، أو تعديا على الغير وظلما على النفس ، بتعريضها للعقاب ، فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ناراً أي : نحرقه ونشويه فيها. وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً.

وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «من قتل نفسه بشيء عذب به فى نار جهنّم خالدا مخلّدا فيها» وهو تغليظ ، أو لمن استحل ذلك. وهذا الوعيد الذي ذكره الحق هنا فى قتل الإنسان بيده ، أهون مما ذكره فى قتل الغير ، الذي يأتى ، لأنه زاد هناك الغضب واللعنة والعذاب العظيم ، أما قول ابن عطية : إنه أجمع المفسرون أن هذه الآية فى قتل بعضهم بعضا ، فليس بصحيح ، والله تعالى أعلم.

---

(١) النخع : هو القتل الشديد ، مشتق من قطع النخاع.

الإشارة : ولا تقتلوا أنفسكم باتباع الشهوات وتراكم الغفلات ، فإنه يفوتها الحياة الحقيقية. وقال الفضيل بن عياض رضي اللّه عنه : (لا تغفلوا عن حظ أنفسكم ، فمن غفل عن حظ نفسه ، فكأنما قتلها). وحظ النفس هو تزكيتها وتحليتها بالكمالات ، أو قوتها من العلم اليقين ، والمعرفة وصحة التمكين ، والمراد بالنفس هنا الروح ، وأما ما اصطلحت عليه الصوفية من أن النفس يجب قتلها ، فإن مرادهم بذلك النفس الأمارة ، فإن الروح ما دامت مظلمة بالمعاصي والهوى سميت نفسا ، فإذا تطهرت وتزكت سميت روحا. وهو المراد هنا. سماها نفسا باعتبار ما كانت عليه. والله تعالى أعلم.

ثم إن قتل النفس من الكبائر ، فمن اجتنبه مع غيره من الكبائر غفرت له الصغائر ، كما أشار إلى ذلك ترغيبا فى اجتناب ما ذكر ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٣١]

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً (٣١)

قلت : المدخل – بالضم : مصدر ، بمعنى الإدخال ، وبالفتح : المكان ، ويحتمل المصدر.

يقول الحق جل جلاله : إن تجتنبوا كبائر الذنوب التي تنهون عنها نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ الصغائر وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً وهو الجنة ، أو إدخالا مصحوبا بالكرامة والتعظيم ، واختلف فى الكبائر ، هل تعرف بالعد أو بالحد؟ فقيل : سبع ، وقيل : سبعون ، وقيل : سبعمائة ، وقيل : كل معصية فهى كبيرة. وعنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «اجتنبوا السّبع الموبقات : الإشراك بالله ، والسّحر ، وقتل النّفس بغير حقها ، وأكل الرّبا ، وأكل مال اليتيم ، والفرار من الزّحف ، ورمى المحصنات الغافلات المؤمنات».

قال ابن جزى : لا شك أن هذه من الكبائر لنص الشارع عليها ، وزاد بعضهم عليها أشياء ورد النص عليها فى الحديث أنها من الكبائر ، منها عقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، واليمين الغموس ، والزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، والنهبة ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله ، ومنع ابن السبيل الماء ، والإلحاد فى البيت الحرام ، والنميمة ، وترك التحرّز من البول ، والغلول ، واستطالة الرجل فى عرض أخيه ، والجور فى الحكم.

وقيل فى حدها : كل جريمة تؤذن بقلة الدين ورقة الديانة ، وقيل : ذنوب الظاهر صغائر ، وذنوب الباطن كبائر.

وقيل : كل ما فيه حق الغير فهو كبائر ، وما كان بينك وبين اللّه تعالى صغائر ، واحتج هذا بقوله – عليه الصلاة والسلام – : «ينادى يوم القيامة مناد من بطنان العرش «١» : يا أمّة أحمد ، إنّ اللّه تعالى يقول : أمّا ما كان لى قبلكم فقد وهبته لكم ، وبقيت التباعات ، فتواهبوها ، وادخلوا الجنة».

---

(١) بطنان العرش : أي من وسطه ، وقيل من أصله ، وقيل : البطنان جمع بطن. يريد من دواخل العرش. انظر النهاية.

(٤٩٥/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٩٦

الإشارة : كل ما يبعد العبد عن حضرة ربه فهو من أكبر الكبائر ، فمن اجتنب ذلك واتقى كل ما يشغله عن الله أدخله الله مدخلا كريما ، وهو حضرة الشهود والتلذذ برؤية المعبود ، والترقي فى أسرار الحبيب الودود. قال الورتجبي : قال أبو تراب : أمر الله باجتناب الكبائر ، وهى الدعاوى الفاسدة ، والإشارات الباطلة ، وإطلاق اللفظ بغير الحقيقة. هـ.

ولما قسّم الله المواريث على ما تقدم ، قال بعض النساء : ليتنا استوينا مع الرجال ، أو يكون لنا سهمان لأننا أحوج منهم ، فأنزل الله :

[سورة النساء (٤) : آية ٣٢]

وَلا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٣٢)

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ من الميراث «١» بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ ، كتضعيف الذكر على الأنثى ، فللرجال نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا أي : مما أصابوا وأحرزوا فى القسمة ، وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ منه ، قلّ أو كثر ، فلتقنع بما قسم الله لها ، ولا تعترض على أحكام الشريعة ، ولكن سْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ يعطكم من غير الميراث ، هكذا فسرها ابن عباس.

وقال مجاهد : قالت أم سلمة : يغزو الرجال ولا نغزو ، فليتنا رجال نغزو ، ونبلغ ما يبلغ الرجال. فنزلت. فيكون المعنى : ولا تتمنوا ما فضل الله به الرجال على النساء كالغزو وغيره ، فللرجال نصيب مما اكتسبوا من ثواب الجهاد وسائر أعمالهم ، (و للنساء نصيب مما اكتسبن) من طاعة أزواجهن وحفظ فروجهن وسائر بقية أعمالهن.

والتحقيق أنها عامة فى جميع المراتب الدينية والدنيوية لأن ذلك ذريعة إلى التحاسد والتعادي ، ومعربة عن عدم الرضا بما قسم الله له. ، وإلى التشهي لحصول الشيء له من غير طلب ، وهو مذموم لأن تمنى ما لم يقدر له ، معارضة لحكمة القدر ، وتمنى ما قدر له بكسب ، بطالة وتضييع حظ ، وتمنى ما قدر له بغير كسب ، ضياع ومحال ، قاله البيضاوي. فللرجال نصيب من أجل ما اكتسبوا من الأعمال ، وتحملوا من المشاق ، فيعطيهم الله على قدر ما اكتسبوا وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ كذلك ، فلا فائدة فى تمنى ما للناس ، ولكن (اسألوا الله من فضله) يعطكم مثله ، أو أكثر من خزائنه التي لا تنفد. إِنَّ اللَّهَ

كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً وهو يعلم ما يستحقه

---

(١) سيذكر الشيخ بعد أن الآية عامة.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٩٧

كل إنسان ، فيفضّل من شاء بما شاء عن علم وبيان ، ومناسبة الآية حينئذ لما قبلها : أن تجنب الكبائر فضل من الله ونعمة ، وهو أفضل ممن يقع فيها ، لكن لا ينبغى تمنى ذلك من غير عمل ، ولكن يسأل الله من فضله حتى يلحقه بأهل العصمة. وبالله التوفيق.

الإشارة : قد وقع التفضيل فى مقامات الأولياء كالأنبياء ، لكن لا ينبغى تعيين الفاضل من المفضول ، لما يؤدى إليه من التنقيص فيؤدى إلى الغيبة ، والتفضيل يقع بزيادة اليقين وصحة التمكين ، والترقي فى أنوار التوحيد وأسرار التفريد. ويكون أيضا بهداية الخلق على يده ، وظهور إحسانه ورفده ، فإذا رأى العبد أنه لم يبلغ إلى مقام غيره فلا يتمنى ذلك المقام بعينه ، فقد يكون مقامه عند الله فى علمه أعظم ، وقد يكون أدون ، فيسيء الأدب ، فالخير كله فى العبودية والرضى بأحكام الربوبية ، فللأقوياء نصيب مما اكتسبوا بالقوة والمجاهدة التي خلق الله فيهم ، حكمة وفضلا ، وللضعفاء نصيب مما اكتسبوا قسمة وعدلا ، ولكن يسأل الله من فضله العظيم ، فإن الله بكل شيء عليم ، فقد يعطى بلا سبب ويبلّغ بلا تعب.

وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «سلوا الله من فضله فإنّ الله يحبّ أن يسأل». وفى حديث آخر : «من لم يسأل الله يغضب عليه». وقال الورتجبي : أمر بالسؤال ونهى عن التمني لأن السؤال افتقار ، والتمني ، اختيار. هـ. والله تعالى أعلم.

ثم تكلم على ميراث الحليف على ما كان فى أول الإسلام ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٣٣]

وَلِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٣٣)

قلت : التنوين فى «كل» : للعوض ، و«مما ترك» بيان للمعوض منه ، أي : ولكل مال مما ترك الوالدان والأقربون جعلنا موالى ، أي : ورثة ، وهم الذرية والعصبة يرثون من ذلك المال ، والوالدان على هذا فاعل ، ويحتمل أن يكون مبتدأ والتنوين عوض عن الميت الموروث ، أي : ولكل ميت جعلنا ورثة يرثون مما ترك ذلك الميت ، وهم الوالدان والأقربون فيوقف على (ترك) ، و(مما) يتعلق بمحذوف

، و(الذين) مبتدأ ، و(فآتوهم) خبر ، دخلت الفاء لما فى المبتدأ من العموم.
يقول الحق جل جلاله : ولكل ميت جعلنا ورثه يرثون مِمَّا تَرَكَ ذلك الميت ، وهم الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، أو لكل تركة جعلنا لها مَوالِيَ أي : ورثة يرثون مما ترك الوالدان والأقربون ، وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ وهم موالى الحلف ، كانوا يتحالفون فى الجاهلية على النصرة والمؤازرة ، يقول الرجل لآخر : دمى دمك ،

(٤٩٧/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٤٩٨
وهدمى هدمك ، وثأرى ثأرك. فيضرب بعضهم على يد الآخر فى عقد ذلك الحلف. فلذلك قال : عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ فكان فى أول الإسلام يرث من حليفه السدس ، وإليه أشار بقوله : فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ، ثم نسخ.
وقيل : نزلت فى المؤاخاة التي آخى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، فكان يرث السدس ، ثم نسخ بقوله : وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ. وعن أبى حنيفة : لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يتعاقلا ويتوارثا صح وورث. وقال ابن عباس : آتوهم نصيبهم من النصرة التي تعاقدوا عليها ، فيوفى لهم بها ، فلا نسخ.
إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ، هو تهديد لمن تعدى الحدود ، ونقض العهود. والله تعالى أعلم.
الإشارة : ولكل زمان جعلنا أولياء كبراء ، يرثون مما ترك أشياخهم من خصوصية الولاية وسر العناية ، إلى يوم القيامة فالأرض لا تخلو ممن يقوم بالحجة ويظهر المحجة ، فيقال لهم : والذين عقدت أيمانكم فى الصحبة معكم ، فظهر صدقهم ، وبانت خدمتهم ، فآتوهم نصيبهم مما خصكم الله به من سر الولاية ولطف العناية ، (إن الله كان على كل شىء شهيدا) ، لا يخفى عليه من يستحق الخلافة ويرث سر الولاية. والله تعالى أعلم.
ثم بيّن حكمة تفضيل الرجال على النساء فى المواريث وغيرها ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ٣٤]
الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ فَالصَّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ بِما حَفِظَ اللَّهُ وَاللاَّتِي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً (٣٤)
قلت : (فالصالحات) مبتدأ ، وما بعده إخبار عنه ، وأتى بالفاء المؤذنة بالسببية والتفريع ، وكأنه تعالى يقول :
الرجال قوامون على النساء ، فمن كانت صالحة قام عليها بما تستحقه من حسن المعاشرة ، ومن كانت

ناشزة عاملها بما تستحقه من الوعظ وغيره. وكل ما هنا من لفظ (ما) فهى مصدرية. إلا ما قرأ به أبو جعفر : [بما حفظ الله] ، بالنصب ، فهى عنده موصولة اسمية ، أي : بالأمر الذي حفظ الله وهو طاعتها للّه فحفظها بذلك ، وقيل إنها مصدرية. انظر الثعلبي.

يقول الحق جل جلاله : الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ أي : قائمون عليهن قيام الولاة على الرعية ، فى التأديب والإنفاق والتعليم ، ذلك لأمرين : أحدهما وهبى ، والآخر كسبى فالوهبى : هو تفضيل الله لهم على

النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة فى الأعمال والطاعات ، ولذلك خصوا بالنبوة ، والإمامة ، والولاية ، وإقامة الشعائر ، والشهادة ، فى مجامع القضايا ، ووجوب الجهاد والجمعة ونحوهما ، والتعصيب ، وزيادة السهم فى الميراث ، والاستبداد بالطلاق. والكسبي هو : (بما أنفقوا من أموالهم) فى مهورهن ، ونفقتهن ، وكسوتهن.

فيجب على الزوج أن يقوم بالعدل فى أمر نسائه ، فالمرأة الصالحة القانتة ، أي : المطيعة لزوجها ولله تعالى ، الحافظة للغيب ، أي : لما غاب عن زوجها من مال بيته وفرجها وسر زوجها ، حفظت ذلك بحفظ الله ، أي : بما جعل الله فيها من الأمانة والحفظ ، وبما ربط على قلبها من الديانة ، أو بحفظها حق الله ، فلما حفظت حقوق الله حفظها الله بعصمته ، لقوله – عليه الصلاة والسلام – : «احفظ الله يحفظك». فمن كانت على هذا الوصف من النساء فيجب على الزوج حسن القيام بها ، ومقابلتها فى القيام بما قابلته من الإحسان ، وعنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرّتك ، وإن أمرتها أطاعتك ، وإن غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها». وتلا هذه الآية.

وأما النساء التي تَخافُونَ أي : تتيقنون نُشُوزَهُنَّ أي : ترفعهن عن طاعة أزواجهن وعصيانهن ، فَعِظُوهُنَّ بالقول ، فإن لم ينفع فاهجروهن فى المضاجع ، أي : لا تدخلوا معهن فى لحاف ، أو لا تجامعوهن ، فإن لم ينفع فاضربوهن ضربا غير مؤلم ولا شائن. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «علّق السّوط حيث يراه أهل البيت». وعن أسماء بنت أبى بكر – رضى اللّه عنهما – قالت : (كنت رابع نسوة عند الزبير بن العوام ، فإذا غضب على إحدانا ، ضربها بعود المشجب ، حتى ينكسر). والمشجب : أعواد مركبة يجعل عليها الثياب.

فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ يا معشر الأزواج ، أو عقدن التوبة مما مضى ، فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا أي : لا تطلبوا عليهن طريقا تجعلونه سبيلا لإيذائهن ، بل اجعلوا ما كان منها من النشوز كأن لم يكن ، (فإنّ التّائب من

الذّنب كمن لا ذنب له). وقال ابن عيينة : أي لا تكلفوهن بحبكم. هـ. وقال الورتجبي : إذا حصل منهن صورة طاعة الرجال فلا يطلب منهن موافقة الطباع ، فإن ذلك منازعة للقدر. قال تعالى : لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، وذكر حديث : «الأرواح جنود مجنّدة».

ثم هدد الأزواج فقال : إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً فاحذروه ، فإنه أقدر عليكم منكم على من تحت ولايتكم ، أو : إنه على علو شأنه ، يتجاوز عن سيئاتكم ، فأنتم أولى بالعفو عن نسائكم ، أو : أنه يتعالى ويكبر أن يظلم أحدا أو ينقص حقه.

(٤٩٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٠٠

وسبب نزول الآية : أن سعد بن الرّبيع ، وكان من النقباء ، لطم امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير ، وكانت نشزت عليه ، فانطلق أبوها معها إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم فقال : أفرشته كريمتى فلطمها ، فقال – عليه الصلاة والسلام – :

لتقتصّ منه ، فانصرفت لتقتصّ منه ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : ارجعوا ، هذا جبريل أتانى وأنزل الله هذه الآية : الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ إلى آخرها ، فقال عليه الصلاة والسلام : «أردنا أمرا ، وأراد الله أمرا ، والّذى أراد الله خير» فرفع القصاص. وقيل : نزلت فى غيره ممن وقع له مثل هذا من النشوز. والله تعالى أعلم.

الإشارة : الرجال الأقوياء قوامون على نفوسهم قهارون لها ، بفضل القوة التي مكنهم الله منها ، وبما أنفقوا عليها من المجاهدات والرياضات ، فهم ينظرون إليها ويتهمونها فى كل حين ، فإن صلحت وأطاعت وانقادت لما يراد منها من أحكام العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية ، عاملوها بالإكرام والإجمال ، ورفعوا عنها الآداب والنكال ، وإن نشزت وترفعت أدبوها وهجروها عن مواطن شهواتها ومضاجع نومها ، وضربوها على قدر لجاجها وغفلتها.

وكان الشيخ أبو يزيد يأخذ قبضة من القضبان ويذهب إلى خلوته ، فكلما غفلت ضربها ، حتى يكسرها كلها ، وكان بعض أصحابنا يأخذ خشبة ويذهب إلى خلوته ، فكلما غفل ضرب رأسه بها ، حتى يأتى رأسه كلّه مفلول.

ويلغنى أن بعض أصحابنا كان يدخل فى لحمة رجله سكينا كلما غفل قلبه ، وهذا إغراق ، وخير الأمور أوسطها.

وبالله التوفيق.

ولمّا تكلم على حكم المرأة الطائعة والناشزة ، تكلم على ما إذا أشكل الأمر ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٣٥]

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً (٣٥)

قلت : الشقاق : المخالفة والمساورة ، وأضيف إلى الظرف توسعا كقوله : بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ ، والأصل : شقاقا بينهما ، والضمير فى (يريدا) للحكمين ، وفى (بينهما) للزوجين ، وقيل : للحكمين معا ، وقيل : للزوجين معا.

يقول الحق جل جلاله : إِنْ خِفْتُمْ يا معشر الحكام ، أي علمتم خلافا بين الزوجين ومشاورة ، ولم تدروا الظالم من المظلوم ، فَابْعَثُوا رجلين أمينين يحكمان بينهما ، يكون أحدهما من أهله والآخر من أهلها ، لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال ، وأطلب للإصلاح ، فإن بعثهما الحاكم أجنبيين صح ، وكذا إن أقامهما الزوجان.

وما اتفق عليه الحكمان لزم الزوجين من خلع أو طلاق أو وفاق. وقال أبو حنيفة : ليس لهما التطليق إلّا أن يجعل لهما ، وإذا اختلفا لم يلزم شيء ، ويستأنفان الحكم ، قال ابن جزى : ومشهور مذهب مالك : أن الحاكم هو الذي يبعث

(٥٠٠/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٠١

الحكمين ، وقيل : الزوجان ، وجرت عادة القضاء أن يبعثوا امرأة أمينة ولا يبعثوا الحكمين ، قال بعض العلماء : هو تغيير للقرآن والسنة الجارية. هـ.

فإن بعث الحكمان ، فإن أرادا إصلاحا بين الزوجين ، واتفقا عليه ، وفق الله بينهما ببركة قصدهما ، وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه أصلح الله مبتغاه. إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً بما فى الظواهر والبواطن ، فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق.

الإشارة : وإن خفتم ، أيها الشيوخ ، على صاحبكم منازعة النفس والروح فكانت النفس تجمح به إلى أسفل سافلين ، بمتابعة هواها وعصيان مولاها ، والروح تجنح به إلى أعلى عليين ، بجهاد هواها ومشاهدة مولاها ، فابعثوا له واردين قويين ، إما شوق مقلق يرحل الروح إلى مولاها ، أو خوف مزعج يزجر النفس عن هواها. فإن أراد الله بذلك العبد إصلاحا لحاله أرسلهما معا متفقين على تخليصه وارتفاعه ، فيتقدم الخوف المزعج ويستدركه الشوق المقلق ، فيلتحق بأهل التحقيق من أهل التوفيق ، وما ذلك على الله بعزيز ، وفى الحكم : «لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج ، أو شوق مقلق». والله تعالى أعلم.

ولما فرغ الحق جل جلاله من الكلام على حفظ الأموال ، وحفظ الأنساب ، وبعض حفظ الأبدان ، شرع يتكلم على حفظ الأديان ، وما يتعلق بذلك ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٣٦]

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَبِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَالْجارِ ذِي الْقُرْبى وَالْجارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً فَخُوراً (٣٦)

قلت : الجنب – بالضم – : البعيد ، يقال فيه : جنب وأجنب وأجنبى ، وسمى الجنب جنبا لأنه يبعد من المسجد وعن الصلاة وعن التلاوة ، و(مختال) اسم فاعل ، وأصله : مختيل ، بالكسر ، من الخيلاء وهو التكبر.

يقول الحق جل جلاله : وَاعْبُدُوا اللَّهَ أي : وحّدوه وأطيعوه وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً جليا أو خفيا فى اعتقادكم أو فى عبادتكم ، فمن قصد الحج والتجارة ، فقد أشرك مع الله فى عبادته ، وأحسنوا بالوالدين إحسانا حسنا ، وهو برهما والقيام بحقهما ، وَبِذِي الْقُرْبى ، أي : القرابة فى النسب ، أو الدين وَالْيَتامى لضعف حالهم ، وَالْمَساكِينِ لقلة ما بيدهم ، وقد شكى بعض الناس قساوة قلبه ، فقال له عليه الصلاة والسلام : «إن أردت أن يلين قلبك ، فأطعم والمسكين وامسح رأس اليتيم ، وأطعمه».

(٥٠١/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٠٢

وَالْجارِ ذِي الْقُرْبى الذي قرب جواره أو نسبه ، وَالْجارِ الْجُنُبِ الذي بعد مكانه أو نسبه ، وحدّد بعضهم الجوار بأربعين دارا من كل ناحية. وقال ابن عباس : الجار ذى القربى : الجار الذي بينك وبينه قرابة ، والجار الجنب : الجار من قوم آخرين. هـ.

قيل يا رسول الله : ما حق الجار على الجار قال : «إن دعاك أجبته ، وإن أصابته فاقة عدت عليه ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن مرض عدته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، وإن توفى شهدت جنازته ، ولا تستعل عليه بالبنيان لتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه بقتار قدرك – أي : بخارها – إلا أن تغرف له منها ، وإن ابتعت فاكهة فأهد له منها ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولا يخرج ولدك منها بشيء فيغيظ ولده» ثم قال : «الجيران ثلاثة : فجار له ثلاثة حقوق : حق الجوار ، وحق القرابة ، وحق الإسلام ، وجار له حقان : حق الجوار ، وحق الإسلام ، وجار له حق واحد : وهو المشرك من أهل الكتاب».

وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ، وهو الرفيق فى أمر حسن ، كتعلم وتصرف وصناعة وسفر ، فإنه صحبك بجنبك ،

وعن على – كرم الله وجهه – (أنها الزوجة) ، فيتأكد فى حقها الإحسان زيادة على المعاشرة بالمعروف ، قال بعضهم : أول قدم فى الولاية كف الأذى وحمل الجفا ، ومعيار ذلك حسن معاشرة الأهل والولد ، وقال – عليه الصلاة السلام – : «خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائى». وَابْنِ السَّبِيلِ ، وهو الضيف أو المسافر لغرابته ، وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ، من الإماء والعبيد ، وكان آخر كلام النبي – عليه الصلاة والسلام – : «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم».

إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالًا أي : متكبرا ، يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم ، فَخُوراً يتفاخر عليهم بماله وجاهه ، وما خوله الله من نعمه ، فهو جدير أن تسلب منه.

الإشارة : واعبدوا الله ، أي : بالقيام بوظائف العبودية ، ومشاهدة عظمة الربوبية ، وقال بعض الحكماء :

العبودية : ترك الاختيار ، وملازمة الذل والافتقار. وقيل : العبودية أربعة أشياء : الوفاء بالعهود ، والحفظ للحدود ، والرضا بالموجود ، والصبر على المفقود ، وعنوان ذلك صفاء التوحيد ، ولذلك قال : وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً أي :

لا تروا معه غيره ، كما قال القائل :

مذ عرفت الإله لم أر غيرا وكذا الغير عندنا ممنوع

وقال آخر : (لو كلفت أن أرى غيره ، لم أستطع ، فإنه لا غير معه حتى أشهده). فإذا حصلت العبودية فى الظاهر ، وتحقق التوحيد فى الباطن ، ظهرت عليه مكارم الأخلاق فيحسن إلى الأقارب والأجانب ، ويجود عليهم

(٥٠٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٠٣

بالحس والمعنى ، لأن الفتوة من شأن أهل التوحيد ، ومن شيم أهل التجريد ، كما هو معلوم من حالهم ، نفعنا الله بذكرهم ، وخرطنا فى سلكهم. آمين.

قال الورتجبي : «الوالدين» : مشايخ المعرفة. ثم نقل عن الجنيد ، أنه قال : أمرنى أبى أمرا ، وأمرنى السرى أمرا.

فقدمت أمر السرى على أمر أبى ، وكل ما وجدت فهو من بركاته. هـ. وذوو القربى هم الأخوة فى الشيخ ، واليتامى : من قصدهم من المتفقرة الجاهلة ، والمساكين : ضعفاء اليقين من العامة ، أمر الله تعالى أهل الخصوصية بالإحسان إليهم والبرور بهم ، وهو أن يقرهم فى طريقهم ، ويحوشهم إلى ربهم. والجار ذى القربى وهو جارك فى السكنى وأخوك فى النسبة ، فيستحق عليك زيادة الإحسان. والجار

الجنب : من جاورك من العوام فتنصحه وترشده ، والصاحب بالجنب : من رافقك فى أمر من العوام ، كسفر وغيره ، وابن السبيل :

من نزل بأهل الخصوصية من الأضياف ، فلهم حق الضيافة عليهم حسا ومعنى ، وما ملكت أيمانكم : مالكم تصرف عليهم من الأهل والبنين والإماء والعبيد ، فتقربونهم إلى حضرة الملك المجيد. ثم أمرهم بالتواضع والإقبال على الخاص والعام. فقال : إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالًا فَخُوراً. والله تعالى أعلم.

ثم بيّن حال أضداد هؤلاء ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٣٧ الى ٣٩]

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً (٣٨) وَما ذا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً (٣٩)

قلت : (الذين) بدل من : «من كان» ، أو منصوب على الذم ، أو مرفوع عليه ، أي : هم. أو مبتدأ حذف خبره ، أي : نعذبهم عذابا مهينا ، أو أحقاء بكل ملامة ، و(الذين ينفقون) : عطف على الأولى ، أو مبتدأ حذف خبره ، أي :

الشيطان قرينهم. والبخل فيه لغتان : البخل والبخل بحركتين.

يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بأموالهم على أقاربهم وجيرانهم ، وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ من الغنى ، فيظهرون القلة والعيلة ، أو يكتمون العلم بصفة النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، هم أحقاء بكل لوم وعتاب. وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ منهم عَذاباً مُهِيناً يهينهم ويخزيهم ، نزلت فى اليهود ، كانوا يقولون

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٠٤

للأنصار : لا تنفقوا أموالكم ، فإنا نخشى عليكم الفقر ، وكتموا صفته – عليه الصلاة والسلام – .

ووضع الظاهر موضع المضمر وكأنه يقول : وأعتدنا لهم ، إشعارا بأن من هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى ، ومن كفر بنعمة الله وأهانها استحق عذابا مهينا.

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ طلبا لمدحهم وخوفا من ذمهم ، وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، يتحرون بإنفاقهم مراضيه ، فالشيطان قرينهم لا يفارقهم ، وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً ، فلمّا كان الشيطان قرينهم زين لهم التهالك على الأموال والرياء فى الأعمال ، وإنما أشرك أهل الرياء مع

البخلاء فى الوعيد من حيث إنهما طرفا تفريط وإفراط ، وهما سواء فى القبح واستجلاب الذم.
وَما ذا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أي : لا ملامة عليهم ولا تبعة تحيق بهم لو أخلصوا الإيمان وأنفقوا مما رزقهم الكريم المنان. قال البيضاوي : وفيه تنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغى أن يجيب إليه احتياطا ، فكيف إذا تضمن المنافع. وإنما قدم الإيمان هاهنا وأخره فى الآية الأخرى : لأن القصد بذكره هنا التخصيص ، وثم التقليل. هـ. وَكانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً لا يخفى عليه شيء من أمورهم وقصدهم.
الإشارة : قال بعض الصوفية : (من أقبح كل قبيح صوفى شحيح) ، فالصوفية العارفون – رضى اللّه عنهم – الذين هم صفوة العباد متخلقون بأضداد ما وسم به الحق – تعالى – أهل العناد ، فهم يجودون بأنفسهم وما خصهم الله بهم من العلوم اللدنية والأسرار القدسية ، على من يستحقه من أهل التخلية والتحلية ، ويأمرون الناس بالسخاء ومكارم الأخلاق ، ويتحدثون بما منحهم الملك الخلاق ، ويظهرون الغنى بالله والاكتفاء به عن كل ما سواه ، وإذا بذلوا أموالهم أعطوها لله وبالله ومن الله وإلى الله وابتغاء مرضاة الله ، هجم عليهم اليقين ، وتمكنوا من شهود رب العالمين ، فلا يقرب ساحتهم الشيطان ، ولا يرون فى الدارين إلا الملك الديان ، تحبهم ملائكة الرحمن ، ويحن إليهم الإنس والجان. نفعنا الله بمحبتهم ، وخرطنا فى مسلكهم ، آمين.
ثم رغّب الحق – تعالى – فى الإنفاق مع الإخلاص ، الذي هو عنوان الدين الخاص ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ٤٠]
إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (٤٠)
قلت : الذرة : النملة الصغيرة الحمراء. وتطلق على جزء من أجزاء الهباء. ومن نصب (حسنة) فخبر كان.
وأنث الضمير باعتبار الخبر. أو لإضافة مثقال إلى ذرة ، فاكتسب التأنيث ، ومن رفع فهى تامة ، وحذف نونها على غير قياس ، تشبيها لها بحروف العلة. وضاعف وضعّف بمعنى واحد.

(٥٠٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٠٥
يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ أحدا بحيث ينقص من ثواب عمله ، أو يزيد فى عقاب ما يستحقه ، ولو مثقال ذرة. بل يجازى كلا على قدر عمله. فإن كان صالحا ، ولو صغر قدره ، عظم أجره. وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها بعشر أمثالها إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، بحسب الإخلاص. قال أبو هريرة رضي اللّه عنه : سمعت النبي صلّى اللّه عليه وسلم يقول : «إنّ اللّه يعطى المؤمن على

الحسنة ألفى ألف حسنة» ، ثم تلا إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ الآية.

وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ، وخيرا جسيما ، فضلا منه وإحسانا. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «إنّ اللّه لا يظلم المؤمن حسنة ، بل يثاب عليها الرزق فى الدّنيا ويجزيه بها فى الآخرة. والكافر يعطيه بها فى الدّنيا ، فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة».

الإشارة : كما أن الحق تعالى لا يظلم طالبى الأجور ، بل يضاعف لهم فى زيادة الحور والقصور ، كذلك لا يبخس طالبى القرب والحضور ، ورفع الحجب والستور. بل كلما فعلوا من أنواع المجاهدات ضاعف لهم أنوار المشاهدات. وكلما نقص لهم من الحس – ولو مثقال ذرة – زادهم فى المعنى قدره وأكثر شهودا ونظرة. وكلما يقهر النفس ولو مقدار الفتيل ، شربوا مقداره وأكثر من خمرة الجليل ، وهذا كله مع صحبة المشايخ أهل التربية ، وإلّا فلا تزيده مجاهدته إلا حجبا وبعدا عن الخصوصية. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى الموطن الذي تظهر فيه مقادير الأعمال ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٤١ الى ٤٢]

فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً (٤٢)

قلت : (كيف) إذا كان الكلام بعدها تامّا أعربت حالا ، كقولك : كيف جاء زيد؟ وإذا كان ناقصا ، كانت خبرا ، كقولك : كيف زيد؟ وهى هنا خبر ، أي : كيف الأمر إذا ... إلخ. وهى مبنية لتضمنها معنى الاستفهام ، والعامل فى (إذا) مضمون المبتدأ ، أو الخبر ، أي : كيف يستقر الأمر أو يكون إذا جئنا؟ ومن قرأ (تسوّى) بالشد ، فأصله تتسوى ، أدغمت الأولى فى الثانية ، ومن قرأ (لو تسوّى) بالبناء للمفعول فحذف الثانية.

يقول الحق جل جلاله : فَكَيْفَ يكون حال هؤلاء الكفرة واليهود إذا قامت القيامة وجِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ يشهد عليها بخيرها وشرها ، وهو نبيهم الذي أرسل إليهم ، وَجِئْنا بِكَ أنت يا محمد عَلى هؤُلاءِ الأمة التي بعثت إليهم شَهِيداً عليهم ، أو على صدق هؤلاء الشهداء شهيدا ، تشهد على صدق رسالتهم وتبليغهم؟ لعلمك بعقائدهم واستجماع شرعك مجامع قواعدهم ، وقيل : عَلى هؤُلاءِ الكفرة المستفهم عن حالهم ،

(٥٠٥/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٠٦

وقيل : على المؤمنين لقوله : لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً. يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ

كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ أي : الذين جمعوا بين الكفر والعصيان يتمنون أن تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ فيكونون ترابا لما يرون من هول المطلع ، فإذا شهدت عليهم الرسل بالكفر قالوا : وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ ، فينطق ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بشركهم فيفتضحون وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً واحدا ، لأنهم كلما هموا بالكتمان شهدت عليهم جوارحهم بالكفر والعصيان.

وقيل : إن القيامة مواطن ، فى موطن لا يتكلمون ولا تسمع إلا همسا ، وفى موطن يتكلمون ويقولون : والله ربنا ما كنا مشركين ، إلى غير ذلك من اختلاف أحوالهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة : لا بد أن يحصل الندم لمن فاته صحبة أهل الخصوصية ، حتى مات محجوبا عن مشاهدة أسرار الربوبية ، لا سيما إذا انضم إليهم كفرهم بخصوصيتهم والإنكار عليهم ، وذلك حين يكشف له عن مقامهم البهي وحالهم السنى ، مصاحبين للمقربين فى جوار الأنبياء والمرسلين ، وهو فى مقام أهل اليمين ، ثم يعاتب على ما أسر عليه من الكبائر ، وهى معاصى القلوب والضمائر ، وهذا إذا مات على الإسلام ، وإلا فالإنكار على الأولياء شؤمه سوء الخاتمة. والعياذ بالله من ذلك. وقد تقدم أن العارفين بالله يشهدون على العلماء ، والعلماء يشهدون على العموم ، ونبينا – عليه الصلاة والسلام – يزكى من يحتاج إلى التزكية. والله تعالى أعلم.

ثم تكلم على عماد الدين وهى الصلاة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٤٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ وَلا جُنُباً إِلاَّ عابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا غَفُوراً (٤٣)

قلت : جملة (و أنتم سكارى) : حال ، وسكارى : جمع سكران ، ويجمع على سكارى بالفتح ، وسكرى بالسكون ، و(لا جنبا) عطف على جملة الحال ، و(جنب) يستوى فيه الواحد والاثنان والجماعة والمذكر والمؤنث ، لأنه يجرى مجرى المصدر ، فلا يثنى ولا يجمع. و(إلا عابرى) مستثنى من عام الأحوال ، وأصل الغائط : الموضع المنخفض من الأرض ، ثم أطلق على الواقع فيه مما يخرج من الإنسان.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٠٧

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى : لا تقوموا إليها وأنتم سكارى من خمر ، أو غلبة نوم ، أو شدة غفلة ، حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ فى صلاتكم ، وتتدبروا ما

تقرءون فيها ، فالصلاة من غير حضور خاوية ، وعند الخصوص باطلة ، روى أن عبد الرحمن بن عوف صنع مأدبة ، ودعا إليها نفرا من الصحابة ، حين كانت الخمر مباحة ، فأكلوا وشربوا حتى ثملوا ، وجاء وقت صلاة المغرب ، فتقدم أحدهم ليصلى بهم ، فقرأ : أعبد ما تعبدون – من غير نفى – فنزلت الآية قبل تحريم الخمر ، ثم حرمت بآية المائدة.

ولا تقربوها حالة جنابتكم فى أي حال كان ، إِلَّا عابِرِي سَبِيلٍ أي : فى وقت سفركم ، حيث لم تجدوا ماء ، بدليل ما يأتى ، فيتيمم ويقرب الصلاة وهو جنب ، وفيه دليل أن التيمم لا يرفع الحدث ، قيل المراد بالصلاة مواضعها ، وهى المساجد فلا يدخلها الجنب إلا مارا ، وبه قال الشافعي – رضى اللّه عنه – وقال أبو حنيفة : لا يجوز المرور ، إلّا إذا كان فيه الماء والطريق. وقال مالك : لا يدخل إلا بالتيمم ولا يمر به أصلا.

فلا تقربوا الصلاة وأنتم جنب حَتَّى تَغْتَسِلُوا.

وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى تخافون ضرر الماء ، أو زيادته ، أو تأخر برء ، أو منع الوصول إلى الماء ، أَوْ عَلى سَفَرٍ لم تجدوه فيه ، أَوْ كنتم فى الحضر محدثين حيث جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ ، أو البول ، أو بغيره من الأحداث ، أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ أي : مست بشرتكم بشرتهن ، بقصد اللذة أو عند وجدانها ، وبه قال مالك.

وقال الشافعي : ينقض مطلقا ، قصد أم لا ، وجد أم لا ، ولو بميتة ، وقال أبو حنيفة : إن كانت ملامسة فاحشة بحيث يحصل الانتشار نقضت ، وإلا فلا.

وقال ابن عباس والحسن البصري ومحمد بن الحسن : لا تنقض الملامسة مطلقا ، ويقاس على اللمس سائر نواقض الأسباب ، فتحصّل أن «أو» تبقى على أصلها من التقسيم ، فتكون الآية نصا فى تيمم الحاضر الصحيح ، وبه قال مالك ، ولا يعيد. وقال الشافعي : يصلى بالتيمم ويعيد ، وقال أبو حنيفة : لا يصلى حتى يجد الماء ، ومن قال : «أو» بمعنى الواو فخروج عن الأصل بلا داع.

ثم قيّد التيمم فى هذه الأحوال بفقد الماء ، فقال : فَلَمْ تَجِدُوا ماءً كافيا ، أو لم تقدروا على استعماله ، فَتَيَمَّمُوا أي : اقصدوا صَعِيداً طَيِّباً أي : طاهرا ، وهو ما صعد على وجه الأرض من جنسها كتراب ، وهو الأفضل ، وثلج وخضخاض «١» وحجر ومدر ، لا شجر وحشيش ومعدن ذهب وفضة ، وما التحق بالعقاقير ، كشب ، وملح ، وكبريت ، وغاسول «٢» وشبهه ، فلا يجوز. وقال أبو حنيفة : بكل شيء من الأرض وما اتصل بها كشجر

---

(١) الخضخاض درب من القطران أسود رقيق تطلى به الإبل الجربى.

(٢) الغاسول : عشب ينبت فى الصحراء.

وكحل ، وزرنيخ ، وشب ونورة ، وجص ، وجوهر ، إلا منخالة الذهب والفضة والرصاص. وقال الشافعي : لا يجوز إلا بالتراب المنبت خاصة ، وبه فسر الطيب ، واشترط علوق التراب بيده ، ولم يشترطه غيره.

ثم علّم الكيفية فقال : فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ. قال مالك : اليد اسم للكف بدليل قطع السارق منه ، فجعل المسح إلى المرفق سنة. وقال الشافعي : فرض ، قياسا على الوضوء ، إِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا غَفُوراً فلذلك يسّر عليكم ورخص لكم فى التيمم.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا صلاة الحضرة القدسية ، وأنتم سكارى بحب الدنيا الدنية ، حتى يذهب عنكم سكر حبها ، وتعلموا ما تقولون فى مناجاة خالقها ، ولا جنبا من جنابة الغفلة ، إلا ما يمر بالخواطر على سبيل الندرة والقلة ، حتى تغتسلوا بماء الغيب ، الذي يحصل به طهارة الجنان ، ويغيب المتطهر به عن رؤية الأكوان.

وإليه أشار ابن العربي الحاتمي : كما فى طبقات الشعراني ، ونسبها غيره للجنيد – رضى الله عنهم أجمعين – وهو الأصح ، بقوله :

توضّأ بماء الغيب إن كنت ذا سرّ وإلّا تيمّم بالصّعيد أو الصّخر

وقدّم إماما كنت أنت إمامه وصلّ صلاة الظّهر فى أول العصر

فهذى صلاة العارفين بربّهم فإن كنت منهم فانضح البرّ بالبحر.

أي : إن لم تقدر على الطهارة الأصلية وهى الغيبة عن الأحداث الكونية ، فاقصد العبادة الحسية ، وقدّم الشريعة أو من قام بها من أهل التربية النبوية أمامك ، بعد أن كان يطلبك قبل أن تعرفه ، واجمع ظهر الشريعة لعصر الحقيقة ، فهذه صلاة العارفين ، فإن كنت منهم فانضح برّ ظاهرك بحقيقة باطنك ، فما كمن فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر. لهذا أشار تعالى بقوله : (و إن كنتم مرضى) بحب الهوى ، (أو على سفر) فى عجلة شغل الدنيا ، أو جاء أحد منكم من غائط الحس ، أو لامستم العلوم الرسمية ، وانطبع صور خيالها فى قلوبكم ، ولم تجدوا من يسقيكم ماء الغيب ، وهى الخمرة الأزلية ، فاقصدوا الأعمال الحسية ، فلعلها توصلكم إلى الأعمال الباطنية ، (إن الله كان عفوا غفورا) ، وفى الحكم : «كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟».

ثم نبه الحق تعالى على عداوة اليهود ، وأنّ من شأنهم إذا سمعوا عليكم مثل ما وقع من تحريف الآية الذي صدر من المصلى فى حال السكر فرحوا بذلك ، فحذّر المؤمنين من العود لمثل ذلك ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٤٤ الى ٤٥]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِكُمْ وَكَفى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفى بِاللَّهِ نَصِيراً (٤٥)

قلت : دخلت الباء على الفاعل فى (كفى بالله) ، لتضمنه معنى اكتف بالله وكيلا.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد ، أو يا من يسمع ، ببصرك أو بقلبك ، إِلَى حال الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً يسيرا مِنَ علم الْكِتابِ أي : التوراة ، وهم أحبار اليهود ، يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ بالهدى ، أي : يستبدلونها بها بعد تمكنهم منها عادة ، وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ أي : الطريق الموصلة إلى الحق ، أي :

يتمنون انحرافكم عنها ، فإذا سمعوا عنكم ما يحرفكم عنها فرحوا واستبشروا ، لأنهم انحرفوا عنها فحرفوا كتابهم وبدلوا ، فتمنوا أن تكونوا مثلهم ، فاحذروا ما يتوقع منكم أعداؤكم ، فإن الله أعلم بهم منكم ، فسيكفيكم الله أمرهم ، فثقوا به وتوكلوا عليه ، فكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ، فسيتولى أمركم وينصركم على من عاداكم. وبالله التوفيق.

الإشارة : من شأن أهل الإنكار ، ولا سيما من سلف له فى أسلافه رياسة أو إظهار ، إذا سمعوا بأهل النسبة وقع لهم شيء من الأكدار ، فرحوا واستبشروا ، وودوا لو حادوا كلهم عن سبيل الحق ، والله مطلع على أسرارهم ، وكاف بأسهم وشرهم ، (و كفى بالله وليا) لأوليائه ونصيرا لأحبابه. والله تعالى أعلم.

ثم بيّنهم ، أو ذكر حال فريق منهم ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٤٦]

مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنا وَعَصَيْنا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَراعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (٤٦)

قلت : (من الذين هادوا) : خبر عن محذوف ، أي : منهم قوم يحرفون ، أو بيان للذين قبله ، أو متعلق بأعدائكم.

يقول الحق جل جلاله : من اليهود قوم تمردوا فى الكفر وهم أحبارهم ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ وهو التوراة عَنْ مَواضِعِهِ أي : يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها ، بإزالة لفظه أو تأويله. وقال ابن عباس : (لا يقدر أحد أن يحرّف كلام الله ولكن يفسرونه على غير وجهه) ، وَيَقُولُونَ لمن دعاهم إليه ، وهو

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥١٠

الرسول صلّى اللّه عليه وسلم : سَمِعْنا قولك ، وَعَصَيْنا أمرك ، وَاسْمَعْ منا غَيْرَ مُسْمَعٍ قولك ، أي : لا نلتفت إليه ، أو دعاء بالصمم : أي : لا سمعت ، أو غير مسمع منا مكروها ، نفاقا ، ويقولون له مكان انظرنا : راعِنا قاصدين بذلك الشتم والسخرية ، من الرعونة ، وقد كان الصحابة يخاطبون به الرسول – عليه الصلاة والسلام – ومعناه :

انظرنا. أو راعنا بقلبك ، فوجد اليهود بها سبيلا إلى الشتم ، فنهاهم الله عن ذلك ، وبقيت اليهود تقولها شتما واستهزاء لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ ، أي : فتلا لها عن معناها ، من الانتظار إلى ما قصدوا من رميه بالرّعونة ، وَطَعْناً فِي الدِّينِ أي : استهزاء به ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا مكان سمعنا وعصينا ، وَاسْمَعْ منا فقط ، مكان : واسمع غير مسمع ، وَانْظُرْنا مكان راعنا ، لَكانَ قولهم ذلك خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وأعدل ، وَلكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ أي : طردهم وأبعدهم بسبب كفرهم ، فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا إيمانا قَلِيلًا لا يعبأ به وهو الإيمان بالبعض والكفر بالبعض من الآيات والرسل. والله تعالى أعلم.

الإشارة : والله ما ربح من ربح ، إلا بالأدب والتعظيم ، وما خسر من خسر إلا من فقدهما. قال بعضهم :

«اجعل عملك ملحا ، وأدبك دقيقا». وآداب الظاهر عنوان آداب الباطن ، ويظهر الأدب فى حسن الخطاب ، ورد الجواب ، وفى حسن الأفعال ، وظهور محاسن الخلال. والله تعالى أعلم.

ثم دعاهم إلى الإيمان بعد أن وسمهم بالعصيان ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٤٧]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٤٧)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ من اليهود آمِنُوا بِما نَزَّلْنا من القرآن مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ من التوراة مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً أي : نغير صورها ونمحو تخطيط أشكالها ، فلا تبقى عين ولا أنف ولا حاجب ، فَنَرُدَّها عَلى هيئة أَدْبارِها من الأقفاء ، أو ننكسها إلى ورائها فى الدنيا ، أَوْ نَلْعَنَهُمْ أي : نخزيهم بالمسخ ، كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ ، فمسخناهم قردة وخنازير ، وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ، لا مرد له ، ولعله كان مشروطا بعدم إيمان بعضهم ، أو يراد بطمس الوجوه ما يكسوها من الذلة والصغار. ويراد باللعن حقيقته ، أي : نلعنهم على لسانك كما لعنوا على لسان داوود وعيسى بن مريم.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥١١

وهذه الآية كانت سبب إسلام كعب الأحبار ، سمعها من بعض الصحابة فأسلم فى زمن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه. والمسخ جائز على هذه الأمة ، كما وقع فى الأمم السابقة ، بدليل ما فى كتاب الأشربة من البخاري أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : «ليكوننّ من أمّتى أقوام يستحلّون الحر والحرير ، والخمر والمعازف ، ولينزلنّ أقوام إلى جنب علم ، يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم لحاجة ، فيقولون : ارجع إلينا غدا ، فيبيّتهم الله ، ويضع عليهم العلم ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة».

الإشارة : حملة الشريعة يخاطبون بالإيمان بأهل الحقيقة ، لأنها لبها وصفاؤها ، فإن امتنعوا من الإيمان بها ومن الإذعان لأهلها ، طمس الله وجوه قلوبهم ، وملأها خوفا وجزعا وحبّا للدنيا ، وردها على أدبارها ، فلا تفهم أسرار الكتاب ولا تفقه إشارة الخطاب ، فإن قصّروا عن حقوق الشريعة ، وغيّروا أحكامها مسخوا قردة وخنازير. وفى نوادر الأصول بسنده إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم قال : «تكون فى أمّتى قزعة «١» ، فيصير النّاس إلى علمائهم ، فإذا هم قردة وخنازير».

قال الترمذي الحكيم : فالمسخ : تغيير الخلقة عن جهتها ، فإنما حل بهم المسخ لأنهم غيّروا الحق عن جهته ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، فمسخوا عن أعين الخلق ، وقلوبهم عن رؤية الحق. فمسخ الله صورهم وبدّل خلقتهم ، كما بدلوا الحق باطلا. هـ. وبالله التوفيق.

ولما دعاهم إلى الإيمان ، أخبرهم أنهم إن داموا على الكفر لا مطمع لهم فى الغفران ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٤٨]

إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً (٤٨)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ لأنه بتّ الحكم على خلود عذابه ، لأن الله تعالى غيور لا أحد أغير منه. كما فى الحديث ، ومن عادة الملوك إذا خرج أحد من رعيته ونصر غيره لا يقبل منه إلا الرجوع أو الموت. ولا شفاعة تنفع فيه غير الرجوع عنه ، وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ الشرك لِمَنْ يَشاءُ من الكبائر والصغائر. تاب أم لا. فالعصاة إذا لم يتوبوا فى مشيئة الله ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً ارتكب ما تستحقر دونه الآثام. وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب ، والله تعالى أعلم.

---

(١) فى الأصول «فزعة» بالفاء ، والمثبت هو الذي الجامع الكبير للسيوطى وكنز العمال. والقزعة :

قطعة من الغيم وجمعها : قزع.
انظر النهاية فى غريب الحديث (قزع).

(٥١١/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥١٢
الإشارة : ولما رأت الصوفية أن الشرك لا يغفر ، ولا يسمح فى شيء منه ، جليّا أو خفيا ، حققوا إخلاصهم ، ودققوا معاملتهم مع ربهم ، وفتشوا على قلوبهم ، هل بقي فيها شيء من محبة غير مولاهم ، أو خوف من شيء دونه ، وطهروا توحيدهم من نسبة التأثير لشيء من الكائنات ، فتوجهوا إلى الله فى إزالة ذلك عنهم.
قال بعضهم : شربت لبنا فأصابنى انتفاخ ، فقلت ضرنى ذلك اللبن ، فلما كنت ذات يوم أتلو ، وبلغت هذه الآية قلت : يا رب أنا لا أشرك بك شيئا ، فقال لى هاتف : ولا يوم اللبن ، فبادرت إلى التوبة. أ. هـ. بالمعنى. والله تعالى أعلم.
ثم عاتبهم على تزكية أنفسهم بالدعوى ، فقال :
[سورة النساء (٤) : الآيات ٤٩ الى ٥٠]
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٤٩) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفى بِهِ إِثْماً مُبِيناً (٥٠)
يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ، وهم اليهود ، قالوا : نحن أبناء الله وأحبّاؤه ، وقيل : طائفة منهم ، أتوا بأطفالهم إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم فقالوا : هل على هؤلاء ذنب؟ قال : «لا».
قالوا : والله ما نحن إلا كهيئتهم ، ما عملنا بالنّهار يكفّر عنّا بالليل ، وما عملنا بالليل يكفّر عنّا بالنّهار ، فنزلت فيهم الآية. وفى معناهم : من زكى نفسه وأثنى عليها قبل معرفتها.
بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ لأنه العالم بخفيات النفوس وكمائنها ، وما انطوت عليه من قبيح أو حسن ، فيزكى من يستحق التزكية ، ويفضح المدّعين ، وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ، وهو الخيط الذي فى شق النواة ، يضرب مثلا لحقارة الشيء ، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة ، انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ فى زعمهم أنهم أبناء الله ، أو أنهم معفور لهم ، وَكَفى بِهِ أي : بالافتراء ، إِثْماً مُبِيناً أي : ظاهرا لا يخفى على أحد.
الإشارة : قال بعض الصوفية : للنفس من النقائص ما لله من الكمالات ، فلا ينبغى للعبد أن يزكى نفسه ، ولو بلغ فيها من التطهير ما بلغ ، ولا يرضى عنها ولو عملت من الأعمال ما عملت. قال أبو سليمان

الداراني : لى أربعون سنة وأنا متّهم لنفسى. وفى الحكم : «أصل كل معصية وغفلة وشهوة : الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة : عدم الرضا منك عنها ، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه فأىّ علم لعالم يرضى عن نفسه؟! وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟!».

(٥١٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥١٣

ثم وبخهم على سجودهم للأصنام. وشهادتهم لأهل الكفر بأنهم أهدى من أهل الإسلام ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٥١ الى ٥٢]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً (٥٢)

قلت : الجبت فى الأصل : اسم صنم ، فاستعمل فى كل ما عبد من دون الله ، والطاغوت : كل باطل من معبود أو غيره ، أو الجبت : السحر ، والطاغوت : الساحر ، وبالجملة : هو كل ما عبد أو أطيع من دون الله ، وقال الجوهري :

الجبت : اسم لكل صنم ولكل عاص ولكل ساحر وكل مضلّ ، والطاغوت : الشيطان ، وأصله : طغيوت ، فعلوت ، من الطغيان ، ثم قلب فصار طيغوت ، ثم قلبت الياء ألفا.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ علم الْكِتابِ ، وهم أحبار اليهود يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ يقرون بصحة عبادتهما ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ الكفرة أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا طريقا ، نزلت فى اليهود – لعنهم الله – : كانوا يقولون : إن عبادة الأصنام أرضى عند الله مما يدعو إليه محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وقيل : فى حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف ، خرجا فى سبعين راكبا إلى مكة يحالفون قريشا على محاربة رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم بعد وقعة أحد ، وينقضون العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم ، فنزل كعب على أبى سفيان ، فأحسن مثواه ، ونزلت اليهود فى دور قريش. فقال أهل مكة : أنتم أهل كتاب ، ومحمد صاحب كتاب ، ولا نأمن أن يكون هذا مكيدة منكم ، فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين ، وآمنوا بهما ، ففعلوا ، فذلك قوله تعالى : يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ.

ثم قال أبو سفيان لكعب : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ، ونحن أميون لا نعلم ، فأيّنا أهدى سبيلا وأقرب إلى الحق ، نحن أو محمد؟ قال كعب : اعرضوا علىّ دينكم ، فقال أبو سفيان : نحن ننحر للحجيج الكوماء – أي : العظيمة – من النوق – ونسقى الماء ، ونقرى الضيف ، ونفك العاني ،

ونصل الرحم ، ونعمر بيت ربنا ، ونطوف به ، ونحن أهل الحرم ، ومحمد فارق دين آبائه ، وقطع الرحم وفارق الحرم ، فقال كعب : أنتم والله أهدى سبيلا. هـ.

أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وأبعدهم وأسحقهم ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ينصره من عذاب الله.

فقد قتل هؤلاء كلهم شر قتلة ، وذهبوا إلى الهاوية. عائذا بالله.

الإشارة : قال الورتجبي : وبّخ الله تعالى أهل ظاهر العلم الذين اختاروا الرياسة ، وأنكروا على أهل الولاية ، وآثروا صحبة المخالفين ، يقبلون هواجس نفوسهم التي هى الجبت ، ويخطون على آثار الطاغوت ، التي هى إبليس. هـ.

(٥١٣/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥١٤

قلت : وينسحب التوبيخ على من فضّل أهل الظاهر على أهل الباطن ، وفضّل العلماء على الأولياء ، ويقولون :

هم أهدى منهم سبيلا. هيهات! بينهم من البون ما بين السماء والأرض.

والكلام إنما هو فى التفضيل بين العارفين بالله ، الذين جمعوا بين الفناء والبقاء ، وبين العلماء والأتقياء. وأما العبّاد والزهاد والصالحون فلا شك أن العلماء الأتقياء أفضل منهم ، وإليهم أشار صلّى اللّه عليه وسلم بقوله : «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم». وكذلك الأحاديث التي وردت فى تفضيل العلماء. وأما العارفون بالله فهم أعظم العلماء ، لأن علمهم متعلق بذات الله كشفا وذوقا ، وعلماء الظاهر علمهم متعلق بأحكام الله. مفرقون عن الله ، بل هم أشد حجابا من غيرهم عن الله. قال بعض الأولياء : أشد الناس حجابا عن الله : العلماء ثم العباد ثم الزهاد. هـ. لأن حلاوة ما هم فيه تمنعهم عن الانتقال عنه ، وقد تقدم الكلام عند قوله : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ «١» بأبلغ من هذا. والله تعالى أعلم.

ثم ردّ الحق تعالى على اليهود ، حيث ادعوا أن الملك سيصير إليهم ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٥٣]

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً (٥٣)

قلت : «أم» : منقطعة ، بمعنى بل ، والهمزة للإنكار ، وهو إنكار وجحد لما زعمت اليهود من أنّ الملك سيصير لهم ، و(إذا) إن فصل بينها وبين المضارع ب – «لا» ففيها الإهمال والإعمال ، وقد قرئ : (و إذا لا يلبثوا) ، والنقير :

النقرة التي فى ظهر النواة ، وهو هنا كناية عن نهاية بخلهم.

يقول الحق جل جلاله منكرا على اليهود : أيحصل لهم نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ والرياسة؟ هيهات ، لا يكون هذا أبدا ، فكيف يكون لهم الملك وهم أبخل الناس؟. فإذا أوتوا شيئا من الملك لا يعطون الناس نقيرا ، فما بالك بأكثر ، والملك والنصر لا يكونان إلا لأجل الكرم والجود والشجاعة ، وإصابة الرأى وحسن التدبير ، وهم بعداء من هذه المكارم.

الإشارة : لا يمكن الله من العز والنصر والتصرف الظاهر أو الباطن إلا أهل السخاء والجود ، فمن جاد بماله حتى لا يبالى كم أعطى ولا لمن أعطى ، مكّنه الله من العز والتصرف الحسى ، ومن جاد بنفسه وجاهه ، وبذلهما فى مرضاة ربه ، مكّنه الله من العز والنصر والتصرف المعنوي يتصرف بهمته فى الوجود بأسره ، من عرشه إلى فرشه ، ويدوم عزه ونصره إلى أبد الأبد. والله تعالى أعلم.

---

(١) راجع إشارة الآية ١١٠ من سورة آل عمران.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥١٥

ولمّا كان الحسد والبخل رذيلتين متناهيتين فى الذم وصفهم الحق – تعالى – أيضا به «١» ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٥٤ الى ٥٧]

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَزِيزاً حَكِيماً (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧)

قلت : (أم) بمعنى بل ، و(سعيرا) تمييز.

يقول الحق جل جلاله توبيخا لليهود على الحسد : أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ، أي : العرب حيث انتقلت النبوة إليهم ، وقد كانت فى أسلافهم ، عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وهو ظهور النبوة فيهم ، أو رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم لأنه اجتمع فيه ما افترق فى سائر الناس ، حسدوه على ما آتاه الله من فضله ، من النبوة وغيرها ، وقالوا – لعنهم الله – : ماله همّ إلا النساء ، ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن النساء.

فكذّبهم الله – تعالى – وردّ عليهم بقوله : فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ وهم : يوسف وداود وسليمان ، الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ أي : النبوة ، وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً ، فقد اجتمع لداود عليه السّلام مائة امرأة.

ولسليمان – عليه السّلام – ألف امرأة : ثلاثمائة مهيرة ، – أي بالمهر – وسبعمائة سرية ، فقال لهم – عليه الصلاة والسلام – حين نزلت الآية : ألف امرأة عند رجل ، ومائة امرأة عند آخر ، أكثر من تسع نسوة ، فسكتوا «٢».

فَمِنْهُمْ أي : اليهود ، مَنْ آمَنَ بِهِ أي : بمحمد – عليه الصلاة والسلام – كعبد الله بن سلام وأصحابه ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ أي : أعرض عنه ، أو : من آل إبراهيم من آمن بإبراهيم ، ومنهم من صد عنه ، ولم يكن فى ذلك توهين لقدر إبراهيم ، فكذلك لا يوهن كفر هؤلاء أمرك ، أو : من أسلافهم من آمن بما أوتى آل إبراهيم من الكتاب والحكمة والملك ، ومنهم من صد عنه ، كما فعلوا مع سليمان وغيره.

وَكَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً لمن كفر بما جاء به أحد من الرسل ، أي : فإن لم يعاجلوا بالعقوبة فقد كفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم.

---

(١) أي بالحسد ، فقد ذكر البخل فى الآية السابقة.

(٢) راجع تفسير البغوي.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥١٦

ثم بيّن مآل من كفر ، فقال : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا المنزلة على رسلنا ، أو الدالة على وحدانيتنا ، سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً أي : نحرقهم بها ونشويهم ، كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ أي : لانت واحترقت بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : «تبدّل فى ساعة مائة مرّة». وقال الحسن : (تأكلهم النار فى كل يوم سبعين ألف مرة ، كلما أكلتهم وأنضجتهم قيل لهم : عودوا فيعودوان كما كانوا). وقال مجاهد : (ما بين جلده ولحمه دود ، لها جلبة – أي حركة – وهرير كجلبة حمر الوحش). روى أبو هريرة رضي اللّه عنه عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : «غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعا ، وضرسه مثل أحد».

وإنما بدلت جلودهم لِيَذُوقُوا ألم الْعَذابَ ، أي : يدوم لهم ذلك بخلق جلد آخر مكانه ، والعذاب فى الحقيقة للنفس العاصية لا لآلة إدراكها ، فلا محذور ، إِنَّ اللَّهَ كانَ عَزِيزاً لا يمتنع عليه ما يريد ، حَكِيماً يعاقب على قدر حكمته.

ثم ذكر مقابل هؤلاء فقال : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ مما يستفذر وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا أي : دائما لا تنسخه شمس ، ولا يصحبه برد. قدّم وعيد الكفار على وعد المؤمنين ، لأن الكلام فيهم ، وذكر المؤمنين بالعرض. واللّه

تعالى أعلم.

الإشارة : الحسد خلق مذموم ، لا يتطهر منه إلا الصديقون ، وكل من بقي فيه بقية من الحسد لا يشم رائحة المعرفة ، إذ لو عرف الله لم يجد من يحسد ، وقد قيل : الحسود لا يسود. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب». وقال سفيان : (بلغني أن الله تبارك وتعالى يقول : الحاسد عدو نعمتى ، غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادى). وأنشدوا :

ألا قل لمن كان لى حاسدا أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله فى فعله إذا أنت لم ترض لى ما وهب

جزاؤك منه الزيادة لى وألّا تنال الذي تطلب

وقال آخر :

إن تحسدونى فإنى غير لائمكم قبلى من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لى ولهم ما كان بي وبهم ومات أكثرنا غيظا بما يجد

(٥١٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥١٧

ثم إن الحسود لا تزول عداواته ، ولا تنفع مداواته ، وهو ظالم يشتكى كأنه مظلوم. ولقد صدق القائل :

كل العداوة قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال حكيم الشعراء :

وأظلم خلق الله من بات حاسدا لمن بات فى نعمائه يتقلّب

وقال آخر :

إنى لأرحم حاسدىّ لفرط ما ضمّت صدورهم من الأوغار

نظروا صنيع الله فى فعيونهم فى جنّة وقلوبهم فى نار

قال بعض الحكماء : (الحاسد يضرّ نفسه ثلاث مضرات : إحداها : اكتساب الذنوب لأن الحسد حرام. الثانية :

سوء الأدب مع الله – تعالى – فإنّ حقيقة الحسد : كراهية إنعام الله على غيره ، واعتراض على الله فى فعله. الثالثة :

تألم قلبه وكثرة همه وغمه). عافانا الله من ذلك كله ، فالحاسد لا ينفك عن نار الحجاب وغم الحساب ، والمتطهر منه يدخل جنة الرضى والتسليم فى جوار الحبيب ، وهو محل الراحة والأمن فى الدارين ،

وهو الظل الظليل. والله تعالى أعلم.

ولمّا كان حفظ نظام الدين لا يقوم إلا بالجهاد ، ولا ينتظم الجهاد إلا بنصب الإمام ، تكلم الحق – جل جلاله – على ما يتعلق بالأمراء ، ثم بعد ذلك يتكلم على الجهاد ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٥٨]

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً (٥٨)

قلت : «ما» فى (نعمّا) تمييز أو فاعل ، والمخصوص محذوف ، أي نعم شيئا شيء يعظكم به ، أو نعم الذي يعظكم به ذلك الأمر ، وهو رد الأمانات والعدل فى الحكومات.

قال زيد بن أسلم وشهر بن حوشب : نزلت الآية فى شأن الأمراء. هـ قلت : وإن نزلت فى شأن عثمان بن طلحة – سادن الكعبة فهى عامة. والمخاطب بذلك أولا الرسول صلّى اللّه عليه وسلم وهو سيد الأمراء ، أمره الحق – تعالى – أن يرد المفاتح إلى عثمان ، وذلك أن عثمان أغلق باب الكعبة يوم فتح مكة ، وأبى أن يدفعها إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم ليدخل

(٥١٧/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥١٨

الكعبة ، وقال : لو علمت أنه رسول الله «١» ما منعته ، فلوى عليّ يده ، وأخذها منه ، فدخل رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم وصلّى ركعتين ، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ، ويجمع له السّدانة والسّقاية ، فأمره الله – تعالى – أن يرده إليه ، فأمر عليّا بأن يردّه ويعتذر إليه ، وكان ذلك سببا لإسلام عثمان ، ونزل الأمر بأن السّدانة فى أولاده أبدا.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ، يا معشر الأمراء ، أن تردوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها من أنفسكم ، أو من رعيتكم فتنصفوا المظلوم من الظالم ، حتى يؤدى ما ائتمن عليه من دين ، أو وديعة ، أو غصب ، أو سرقة ، أو غير ذلك من حقوق العباد ، بعضهم من بعض ، وأن تؤدوا الزكاة إلى من يستحقها ، وتصرفوا بيت المال فيمن يستحقه ، لا تظلموا أهلها ، ولا تضيعوا منها شيئا فى غير مستحقها.

وَيأمركم إِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ فى من ينفذ عليه حكمكم ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ أي : إن الله يعظكم بأمر نعم ما هو ، إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً لا يخفى عليه أحكامكم ، ولا ما أخفيتم من أمانات غيركم.

الإشارة : أمر الحق – جل جلاله – شيوخ التربية أن يؤدوا السر إلى من يستحقه من الفقراء ، إذا تحققوا أهليتهم له ، بحيث تخلوا عن الرذائل ، كالحسد والكبر وغيرهما ، وتحلوا بالفضائل ، كسلامة

الصدر وسخاوة النفوس وحسن الخلق ، وغير ذلك من أوصاف الكمال ، فإن تحققوا بالتخلية والتحلية ، استحقوا الاطلاع على أسرار الربوبية ، التي هى أمانات عند أهل الخصوصية ، وأمرهم أن يحكموا بين الفقراء بالعدل ، فيمدوا كلا على قدر صدقه وخدمته ، والله تعالى أعلم.

ثم أمر الحق تعالى بطاعة الأمراء الذين أمرهم بالعدل وأداء الأمانة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٥٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩)

أعاد العامل فى قوله : (و أطيعوا الرسول) ، إشارة إلى استقلال الرسول بالطاعة ، ولم يعده فى أُولِي الْأَمْرِ إشارة إلى أنه يوجد منهم من لا تجب طاعته ، ثم بيّنه بقوله : فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ كأنه قيل : فإن لم يعملوا بالحق فلا تطيعوهم ، وردوا ما تخالفتم فيه إلى حكم الله ورسوله. قاله الطيبي ، وسيأتى تحرير ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) أي : أنه مرسل من عند اللّه.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥١٩

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ فيما أمركم به ونهاكم عنه ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ كذلك. وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ أي : من ولى أمركم. من ولاة العدل كالخلفاء والأمراء بعدهم ، تجب طاعتهم فيما أمروا به من الطاعة دون المعصية إلا لخوف هرج. قال عليه الصلاة والسلام : «إنّما الطّاعة فى المعروف» ، فإن لم يعدل : وجبت طاعته خوفا من الفتنة. وهذا هو الأصح. لقوله – عليه الصلاة والسلام – :

«سيليكم ولاة ، فيليكم البرّ ببره ، والفاجر بفجوره ، فاستمعوا لهم ، وأطيعوا فى كل ما وافق الحق ، فصلوا وراءهم ، فإن أحسنوا فلهم ، وإن أساءوا فلكم وعليهم». رواه أبو هريرة.

وفى حديث آخر : «لا أن تروا كفرا بواحا ، لكم عليه من اللّه برهان». أي : فيجب عزلهم. وقال أيضا صلّى اللّه عليه وسلم لما سأله أبو وائل فقال : يا رسول الله أرأيت إن كان علينا أمراء يمنعوننا حقنا ويسألون حقهم؟. فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «اسمعوا وأطيعوا ، فإنّ عليهم ما حمّلوا وعليكم ما حملتم».

وقال جابر بن عبد الله والحسن والضحاك ومجاهد : أولو الأمر هم الفقهاء والعلماء ، أهل الدين

والفضل ، يعلّمون الناس معالم دينهم ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، دليله. قوله تعالى : وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ... الآية. قال أبو الأسود : ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكّام على الناس ، والعلماء حكّام على الملوك. هـ.

فَإِنْ تَنازَعْتُمْ أنتم وأولو الأمر ، أو بعضكم مع بعض – أي : اختلفتم فى حكم شيء من أمر الدين فلم تعلموا حكمه ، فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ أي : إلى كتاب الله ، وَإِلى الرَّسُولَ فى زمانه ، أو سنته بعد موته ، فإن لم يوجد بالنص فبالقياس. فالأحكام ثلاثة : مثبت بالكتاب ، ومثبت بالسنة ، ومثبت بالرد إليهما على وجه القياس. وعن إبراهيم بن يسار قال : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «اعملوا بالقرآن : أحلّوا حلاله ، وحرّموا حرامه ، وآمنوا به ولا تكفروا بشيء منه ، وما اشتبه عليكم فردّوه إلى اللّه تعالى وإلى أولى العلم من بعدي ، كيما يخبرونكم به» ، ثم قال : «وليسعكم القرآن وما فيه من البيان فإنّه شافع مشفّع ، وما حلّ مصدّق «١» وإن له بكل حرف نورا يوم القيامة».

فردوا الأحكام إليه وإلى الرسول ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فإن الإيمان يوجب ذلك. ذلِكَ الرد خَيْرٌ لكم وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا من تأويلكم بالرأى من غير رد ، وأحسن عاقبة ومآلا ، والله تعالى أعلم.

---

(١) ما حل مصدق : أي خصم مصدّق. والمعنى : أنه شافع لمن عمل بما فيه ، ومصدّق عليه فيما يرفع من مساويه إذا ترك العمل به. انظر النهاية.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٢٠

الإشارة : أولو الأمر عند الصوفية ، هم شيوخ التربية العارفون بالله ، فيجب على المريدين طاعتهم فى المنشط والمكره ، وفى كل ما أمروا به ، فمن خالف أو قال : «لم» لم يفلح أبدا ، ويكفى الإشارة عن التصريح عند الحذاق أهل الاعتناء ، فإن تعارض أمر الأمراء وأمر الشيوخ ، قدّم أمر الشيخ إلا لفتنة فادحة ، فإن الشيخ يأمر بطاعتهم أيضا لما يؤدى من الهرج بالفقراء ، فإن تنازعتم يا معشر الفقراء ، فى شيء من علم الشريعة أو الطريقة ، فردوه إلى الكتاب والسّنة. قال الجنيد رضي اللّه عنه : طريقتنا هذه مؤيدة بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويتعلم الحديث لا يقتدى به فى هذا الشأن. هـ.

ويكفى المهم من ذلك ، وهو ما يتوقف عليه أمر عبادته. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحق تعالى من أعرض عن حكم الله ورسوله ، ورضى بحكم غيرهما ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٦٠ الى ٦٣]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى

الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً (٦٠) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً (٦١) فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ إِحْساناً وَتَوْفِيقاً (٦٢) أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً (٦٣)

قلت : (رأيت المنافقين) ، وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالنفاق وذمّا لهم به. وكان القياس : رأيتهم ، و(صدودا) : مصدر ، أو اسم مصدر الذي هو الصد ، والفرق بينه وبين المصدر : أن المصدر اسم للمعنى الذي هو الحدث ، واسم المصدر اسم للفظ المحسوس ، و(يحلفون) حال. و(فى أنفسهم) يتعلق بقل ، وقيل ببليغا. وهو ضعيف لأن الصفات لا يتقدم عليها معمولها ، اللهم إلا أن يتوسع فى الظروف.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وهم المنافقون ، يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ، كعب بن الأشرف لفرط طغيانه.

وفى معناه كل من يحكم بالباطل ، وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ، ويؤمنوا بالله ويرضوا بحكمه. وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً ، بأن يصرفهم عن حكم الله ورسوله.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٢١

قال ابن عباس : إنّ منافقا خاصم يهوديا فدعاه اليهوديّ إلى النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ، ثم اختصما إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فحكم لليهودى بالحق فلم يرض المنافق ، وقال : نتحاكم إلى عمر ، فقال اليهودي :

نعم فذهبا إلى عمر رضي اللّه عنه فقال اليهودي : قضى لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فلم يرض بقضائه وخاصم إليك. فقال عمر للمنافق : أكذلك؟. قال : نعم ، فقال : على رسلكما حتى أخرج إليكما ، فدخل وأخذ سيفه فخرج ، فضرب به عنق المنافق حتى برد «١» ، وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء اللّه وسوله ، فنزلت الآية .. وقال جبريل عليه السّلام : إن عمر فرّق بين الحق والباطل. فسمى الفاروق.

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ أي : بعضهم ، يَصُدُّونَ عَنْكَ غير راضين بحكمك صُدُوداً عظيما. فَكَيْفَ يكون حالهم إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ كقتل عمر المنافق ، بسبب ما قدمت أَيْدِيهِمْ من عدم الرضى بحكم اللّه ، ثُمَّ جاؤُكَ يطلبون ديّة صاحبهم ، يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا بالانصراف إلى عمر إِلَّا إِحْساناً منه بالخصمين ، وَتَوْفِيقاً بينهما ، قطعا للنزاع بينهما ، قال تعالى :

أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ من النفاق ، فلا يغنى عنهم الكتمان والحلف الكاذب من الله شيئا ، أو يعلم الله ما فى قلوبهم من الطمع فى الدية ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ، أي : عن قبول معذرتهم ولا تمكنهم من طمعهم ، وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ، أي : خاليا بهم قَوْلًا بَلِيغاً يبلغ إلى قلوبهم ، ويؤثر فيهم ، لينزجروا عن طلب دم صاحبهم ، وإنما أمر أن يعظهم خاليا بهم لأن النصح فى ذلك أنجح ، وأقرب للقبول ، ولذلك قيل : من نصحك وحدك فقد نصحك ، ومن نصحك مع الناس فقد فضحك. والله تعالى أعلم.

الإشارة : كل من دخل تحت ولاية شيخ التربية ، وجب أن يرد حكوماته كلها إليه ، ويرضى بما قضى عليه ، وترى بعض الفقراء يزعمون أنهم فى تربية الشيخ وتحت أحكامه ، ثم يتحاكمون إلى حكام الجور وقضاة الزمان فى أمر الدنيا وما يرجع إليها ، فهؤلاء قد ضلوا ضلالا بعيدا. إلا أن يتوبوا ويصلحوا ما أفسدوا ، بإصلاح قلب الشيخ حتى يجبر كسرهم ، فالمريد الصادق لا يصل إلى الحاكم ، ولو ذهب ماله كله. فإن كان ولا بد. فليوكل عنه فى ذلك.

فكيف إذا أصابت هؤلاء مصيبة وهى ظلمة القلب ، وفتنة الدنيا بسبب ما قدمت أيديهم من تخطى حكم شيخهم إلى حكم غيره ، ثم جاؤوك يحلفون بالله ما أردنا إلا إحسانا وهو حفظ مالنا ، وتوفيقا بيننا وبين خصمنا ، فيجب على الشيخ أن يعرض عن عتابهم ويذكرهم حتى يتوبوا ، . فإن تابوا فإن الله غفور رحيم.

---

(١) أي : مات.

ثم أعاد الأمر بطاعة الرسول وتحكيمه فى جميع الأمور ترهيبا وترغيبا ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٦٤ الى ٦٨]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٦٥) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً (٦٦) وَإِذاً لَآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً (٦٧) وَلَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٦٨)

قلت : (توابا رحيما) مفعولا (وجد) إن كانت علمية ، أو (توابا) حال ، و(رحيما) بدل منه ، أو حال من ضميره إن فسرت بصادف.

يقول الحق جل جلاله : وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ من لدن آدم إلى زمانك ، إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وأمره بطاعته ، فمن لم يطعه ولم يرض بأحكامه فهو كافر به. وَلَوْ أَنَّهُمْ أي : المنافقون حين ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بالترافع إلى غيرك ، والتحاكم إلى الطاغوت جاؤُكَ تائبين فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ بالتوبة ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ حين اعتذروا إليه حتى انتصب لهم شفيعا ، لَوَجَدُوا اللَّهَ أي : تحققوا كونه تَوَّاباً رَحِيماً ، قابلا لتوبتهم متفضلا عليهم بالرحمة والغفران. وإنما عدل عن الخطاب فى قوله : وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ولم يقل : واستغفرت لهم ، تفخيما لشأنه ، وتنبيها على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائبين ، وإن عظم جرمهم ، ويشفع لهم ، ومن جلالة منصبه أن يشفع فى عظائم الذنوب وكبائرها.

ثم أقسم بربوبيته على نفى إيمان من لم يرض بحكم رسوله ، فقال : فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ إيمانا حقيقيا حَتَّى يُحَكِّمُوكَ أي : يترافعوا إليك ، راضين بحكمك ، فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ أي : اختلط بينهم واختلفوا فيه ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً أي : ضيقا وشكا مِمَّا قَضَيْتَ ، بل تنشرح صدورهم لحكمك لأنه حق من عند الله. وَيُسَلِّمُوا لأمرك تَسْلِيماً. أي : ينقادوا لأمرك ظاهرا وباطنا.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، توبة من ذنوبكم ، كما كتبناه على بنى إسرائيل ، أو فى الجهاد فى سبيل الله ، أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ كما خرج بنو إسرائيل حين أمرناهم بالهجرة من مصر ، ما فَعَلُوهُ

(٥٢٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٢٣

إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ

وهم المخلصون. قال أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه : (لو كتب ذلك علينا لكنت أنا أول خارج). قال ثابت بن قيس بن شماس : (لو أمرنى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم أن أقتل نفسى لفعلت). وكذلك قال عمر وعمار بن ياسر وابن مسعود وناس من أصحاب رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم : لو أمرنا لفعلنا. فبلغ ذلك النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقال : «إنّ من أمّتى رجالا : الإيمان فى قلوبهم أثبت من الجبال الرّواسى». فهؤلاء من القليل.

وسبب نزول قوله : فَلا وَرَبِّكَ .. إلخ : قضية الزّبير مع حاطب فى شراج الحرّة «١» ، كانا يسقيان به النّخل ، فتخاصما إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم فقال عليه السّلام : «اسق يا زبير وأرسل إلى جارك» ، فقال حاطب : لأن كان ابن عمتك.

فقال – عليه الصلاة والسلام – : «اسق يا زبير ، واحبس الماء حتّى يبلغ الجدر «٢» واستوف حقك». وقيل : نزلت فى اليهودي مع المنافق المتقدم ، وهو أليق بالسياق.

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ من طاعة الرسول ، والرضى بحكمه ، لَكانَ خَيْراً لَهُمْ فى آجلهم وعاجلهم

، وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً فى دينهم وقوة فى إيمانهم ، أو تثبيتا لثواب أعمالهم ، وَإِذاً لو فعلوا ذلك لَآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً وَلَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً يصلون بسلوكه إلى حضرة القدس ، ودوام الأنس ، ويفتح لهم أسرار العلوم ، ومخازن الفهوم ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم». والله تعالى أعلم.

الإشارة : كما أمر الله بطاعة رسوله صلّى اللّه عليه وسلم فى حياته ، أمر بطاعة ورثته بعد مماته ، وهم العلماء الأتقياء الذين يعدلون فى الأحكام ، والأولياء العارفون الذين يحكمون بوحي الإلهام ، فالعلماء حكّام على العموم ، والأولياء حكام على الخصوص ، أعنى من تعلق بهم من أهل الإرادة ، فمن لم يرض بحكم العلماء ، ووجد فى نفسه حرجا مما قضوا به عليه ، ففيه شعبة من النفاق ، وخصلة من المنافقين. ومن لم يرض بحكم الأولياء فقد خرج من دائرتهم ، ومن عش تربيتهم ، لأن حكم الرسول – عليه الصلاة والسلام – وحكم ورثته هو حكم الله ، ومن لم يرض بحكم الله خرج عن دائرة الإيمان. فلا يكمل إيمان العبد حتى لا يجد فى نفسه حرجا من أحكام الله ، القهرية والتكليفية ، ويسلم لما يبرز من عنصر القدرة الأزلية ، كيفما كان ، فقرا أو غنى ، ذلّا أو عزا ، منعا أو عطاء ، قبضا أو بسطا ، مرضا أو صحة ، إلى غير ذلك من اختلاف المقادير. ويرضى بذلك ظاهرا وباطنا ، وينسلخ من تدبيره واختياره إلى اختيار مولاه فهو أعلم بمصالحه ، وأرحم به من أمه وأبيه : وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) الشراج : جمع شرجة ، وهى مسيل الماء من الحرّة إلى السهل ، والحرة : هى الأرض ذات الحجارة السوداء.

(٢) الجدر : أي : الجدار الذي يحيط بالمزرعة ، وهو أصغر من الجدار. [.....]

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٢٤

ثم وعد المطيعين وعدا جميلا ، وخيرا جزيلا ، ترغيبا فى امتثال ما أمر به من طاعة الرسول ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٦٩ الى ٧٠]

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً (٦٩) ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ عَلِيماً (٧٠)

قلت : «رفيقا» : تمييز لما فى (حسن) من معنى التعجب أو المدح ، ولم يجمع لأن فعيلا يحمل على الواحد والجمع ، أو لأنه أريد حسن كل واحد منهم.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ويرضى بأحكامهما ويمتثل أمرهما ويجتنب نهيهما ، فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وهم أكرم الخلق عند الله وأعظمهم قدرا مِنَ النَّبِيِّينَ والمرسلين وَالصِّدِّيقِينَ وهم من كثر صدقهم وتصديقهم وعظم يقينهم وهم الأولياء العارفون بالله ، وَالشُّهَداءِ الذين ماتوا جهادا فى سبيل الله ، وَالصَّالِحِينَ وهم العلماء الأتقياء ، ومن صلح حاله من عامة المسلمين.

قال البيضاوي : قسمهم أربعة أقسام ، بحسب منازلهم فى العلم والعمل ، وحث كافة الناس على ألّا يتأخروا عنهم.

وهم : الأنبياء الفائزون بكمال العلم والعمل ، المتجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل. ثم الصديقون الذين صعدت نفوسهم تارة بمراقى النظر فى الحجج والآيات ، وأخرى بمعارج التصفية والرياضات إلى أوج العرفان ، حتى اطلعوا على الأشياء وأخبروا عنها على ما هى عليها. ثم الشهداء الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد فى إظهار الحق ، حتى بذلوا مهجهم فى إعلاء كلمة الله ، ثم الصالحون الذين صرفوا أعمارهم فى طاعته ، وأحوالهم فى مرضاته. ولك أن تقول : المنعم عليهم هم العارفون بالله ، وهؤلاء إما أن يكونوا بالغين درجة العيان ، أو واقفين فى مقام الاستدلال والبرهان ، والأولون إما أن ينالوا مع العيان القرب ، بحيث يكونون كمن يرى الشيء قريبا ، وهم الأنبياء ، أو لا ، فيكونون كمن يرى الشيء بعيدا ، وهم الصديقون ، والآخرون إما أن يكون عرفانهم بالبراهين القاطعة ، وهم العلماء الراسخون الذين هم شهداء الله فى أرضه. وإما أن يكون بأمارات وإقناعات تطمئن إليها نفوسهم ، وهم الصالحون. انتهى كلامه.

وفيه نظر من وجهين : أحدهما : أنه أطلق على أهل الاستدلال أنهم عارفون ، ولا يقال عند الصوفية فيه عارف ، حتى يترقى عن مقام الاستدلال ، وإلا فهو عالم فقط ، والثاني : أنه جعل الصديقين بمنزلة من يرى الشيء بعيدا ،

(٥٢٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٢٥

وأهل الفناء لم يبق لهم بعد ، بل غابوا فى القرب حتى امتحى اسمهم ورسمهم. فأىّ بينونة وأىّ بعد يبقى للعارف؟

لو لا فقدان الذوق ، ولكن لكلّ فن أربابه ، وسيأتى فى الإشارة تحقيق ذلك إن شاء الله.

ثم قال جل جلاله : وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً أي : ما أحسنهم رفقا فى الفراديس العلى ، فهم يتمتعون فيها برؤيتهم وزيارتهم والحضور معهم ، وإن كانوا أعلى منهم ، فلا يلزم من كونه معهم أن تستوى درجته معهم ، قال فى الحاشية : وتعقل مرافقة من دون النبي فى المدانات من حاله وكشفه ، بحيث لا

يحجب عنه ، وإن كان لا مطمع له فى منزلته ، واعتبر برؤية البصائر له وعدم غيبته عنهم وأنسهم به والاستفادة منه ، وروى عنه – عليه الصلاة والسلام – أنه قال : «يزور الأعلون من أهل الجنة الأسفلين ، ولا يزور الأسفلون الأعلين ، إلا من كان يزور فى الله فى الدنيا ، فذلك يزور فى الجنة حيث شاء».

روى أن ثوبان مولى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم أتاه يوما وقد تغيّر وجهه ونحل جسمه ، فسأله عليه الصلاة والسلام عن حاله ، فقال : ما بي وجع ، غير أنّى إذا لم أرك اشتقت إليك ، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ، ثمّ ذكرت الآخرة فخفت ألا أراك هناك لأنى عرفت أنك ترفع مع النّبيّين. وإن دخلت الجنّة ، كنت فى منزل أدون من منزلك ، وإن لم أدخل الجنّة فذلك حرىّ ألا أراك أبدا. فنزلت الآية وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ... إلخ.

ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ إشارة إلى ما للمطيعين من الأجور ، ومزيد القرب والحضور ، وأنه فضل تفضل على عباده ، وَكَفى بِاللَّهِ عَلِيماً بمقادير الأعمال والمقامات ، فيجازى كلّا على حسب مقامه. والله تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أن الطاعة التي توجب المعية الحسية فى النعيم الحسى الجسماني هى الطاعة الظاهرة الحسية.

والطاعة التي توجب المعية المعنوية فى النعيم الروحاني هى الطاعة الباطنية القلبية. فالمعية الحسية صاحبها مفروق ، والمعية المعنوية صاحبها مجموع ، لا يغيب عن حبيبه لحظة. هؤلاء هم الصديقون المقربون. وفوقهم الأنبياء ، وتحتهم الشهداء والصالحون.

وبيان ذلك أن العلم بالله تعالى : إما أن يكون عن كشف الحجاب وانقشاع السحاب ، أعنى سحاب الأثر ، وهم أهل الشهود والعيان. وإما أن يكون من وراء الحجاب ، يأخذون أجرهم من وراء الباب ، يستدلون بالآثار على المؤثر. وهم أهل الدليل والبرهان. والأولون إما أن يرتقوا إلى مكافحة الوحى ورؤية الملائكة الكرام. وهم الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام – ، وإما أن يقصروا عن درجة الوحى ويكون لهم وحي إلهام ، وهم الصديقون أهل الحال والمقام ، فقد اشتركوا فى مقام العيان. لكن مقام الحضرة فضاؤه واسع ، والترقي فى معارج أسرار التوحيد غير

(٥٢٥/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٢٦

متناه ، فحيث انتهى قدم الولي ابتدأ ترقى النبي ، وأما أهل الحجاب فإما أن يكون علمهم بالله بالبراهين القطعية والدلائل السمعية ، وهم العلماء الراسخون ، وهو مقام الشهداء ، وإما أن يكون علمهم بالرياضات والمجاهدات وتواتر الكرامات ، وهم العباد والزهاد. وهو مقام الصالحين ، ويلتحق بهم

عوام المسلمين ، لأن كل مقام من هذه المقامات فيه درجات ومقامات لا يحصرها إلا العالم بها. والله تعالى أعلم.

ثم رغّب فى الجهاد الذي هو المقصود ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٧١ الى ٧٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُباتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً (٧٢) وَلَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (٧٣) فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (٧٤)

قلت : الحذر والحذر واحد ، كالشّبه والشّبه ، وبطأ يستعمل لازما بمعنى ثقل ، ومتعديا – بالتضعيف – أي : بطّأ غيره ، و(لمن ليبطئن) اللام الأولى للابتداء ، والثانية للقسم ، أي : وإنّ منكم – أقسم بالله – لمن ليبطئن. وجملة :

(كأن لم يكن) : اعتراضية بين القول والمقول ، تنبيها على ضعف عقيدتهم ، وأن قولهم هذا قول من لا مواصلة بينكم وبينه.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تأهبوا واستعدوا لجهاد الأعداء ، وخُذُوا حِذْرَكُمْ منهم بالعدّة والعدد ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، ولا حجة فيه للقدرية لأن هذا من الأسباب التي ستر الله بها أسرار القدرة. وقد قال لنبيّه – عليه الصلاة والسلام – : قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا وقال – عليه الصلاة السلام – :

«اعقلها وتوكل». وفى ذلك طمأنينة للقلوب التي لم تطمئن وتشريعا للضعفاء ، فإذا تأهبتم واستعددتم فَانْفِرُوا أي : اخرجوا إلى الجهاد ثُباتٍ أي : جماعات متفرقة ، سرية بعد سرية ، أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً أي : مجتمعين مع نبيكم ، أو مع أميركم.

وَإِنَّ مِنْكُمْ يا معشر المسلمين لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ الناس عن الجهاد ، أو ليتثاقلن ويتخلفن عنه ، وهو عبد الله بن أبىّ المنافق ، وأشباهه من المنافقين ، فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ كقتل أو هزيمة قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ

حين تخلفت إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً فيصيبنى ما أصابهم. وَلَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ ، كنصر وغنيمة ، لَيَقُولَنَّ لفرط عداوته : يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ، بالمال والعز. كأن ذلك المنافق ، لم

يكن بينكم وبينه مودة ولا مواصلة أصلا ، حيث يتربص الدوائر ، يفرح بمصيبتكم ويتحسر بعزكم ونصركم.

فإن تثاقل هذا عن القتال أو بطّأ غيره ، فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أهل الإخلاص والإيمان الَّذِينَ يَشْرُونَ ، أي : يبيعون الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ ، فيؤثرون الآخرة الباقية على الدنيا الفانية ، وَمَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإعلاء كلمة الله فَيُقْتَلْ شهيدا أَوْ يَغْلِبْ عدوه وينصره الله فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ، وإنما قال تعالى : فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ تنبيها على أن المجاهد ينبغى أن يثبت فى المعركة ، حتى يعز نفسه بالشهادة ، أو الدين بالظفر والنصر. وألا يكون قصده بالذات القتل ، بل إعلاء الحق وإعزاز الدين. قاله البيضاوي.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص خذوا حذركم من خدع النفوس ، لئلا تعوقكم عن حضرة القدوس ، فانفروا إلى جهادها ثبات أو جماعة «فإن يد الله مع الجماعة» ، فالصحبة عند الصوفية شرط مؤكد وأمر محتم. والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح ، فالنفس الحية لا تموت مع الأحياء ، وإنما تموت مع الأموات ، فهى كالحوت ما دامت فى البحر مع الحيتان لا تموت أبدا ، فإذا أخرجتها وعزلتها عن أبناء جنسها ماتت سريعا.

كما قال شيخنا رضي اللّه عنه.

وإن من نفوسكم لمن ليبطئنكم عن السير إلى حضرة قدسكم ، تفر من مواطن الشدة والمحن ، وفى ذلك حياتها لو تعقل وتفطن ، فإن أصابتكم – أهل النسبة – نكبة ، أو تعرف من التعرفات ، ولم يصادفها فى ذلك الوقت شيء من تلك النكبات ، قال : قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا ، ولئن أصابكم بعد ذلك فضل من الله كنفحات ربانية وخمرات أزلية ، قالت : يا ليتنى كنت معهم فأفوز كما فازوا ، فليجاهد نفسه فى سبيل الله من أراد الظفر بحضرة الله ، يقدمها إلى المكاره ، وهو كلّ ما يثقل عليها ، ويجنبها الشهوات ، وهو كل ما يخف عليها ، هكذا يسير معها ويقاتلها ، حتى يموت أو يغلبها ويظفر بها.

قال بعض المشايخ : انتهى سير السائرين إلى الظفر بنفوسهم. فإن ظفروا بها وصلوا. هـ. وحينئذ تذهب عنه المتاعب والأنكاد ، وتصير الأزمنة كلها عنده مواسم وأعياد ، ويقال له حينئذ :

لك الدهر طوع والأنام عبيد فعش كلّ يوم من أيّامك عيد

(٥٢٧/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٢٨

ويقال له أيضا :

بدا لك سرّ طال عنك اكتتامه ولاح صباح كنت أنت ظلامه

فأنت حجاب القلب عن سرّ غيبه ولولاك لم يطبع عليه ختامه
إذا غبت عنه حلّ فيه وطنّبت «١» على موكب الكشف المصون خيامه
وجاء حديث لا يملّ سماعه شهيّ إلينا نثره ونظامه
إذا سمعته النفس طاب نعيمها وزال عن القلب المعنّى غرامه «٢»
ثم عاتب العباد على عدم النهوض إلى الجهاد ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ٧٥]
وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً (٧٥)
قلت : (ما) مبتدأ. و(لكم) خبر. و(لا تقاتلون) حال ، و(المستضعفين) عطف على اسم الجلالة ، أي : أىّ شىء حصل لكم حال كونكم غير مجاهدين فى سبيل الله وفى تخليص المستضعفين؟ و(الظالم) نعت للقرية ، وإنما ذكّر ولم يؤنث ، لأنه أسند إلى المذكر ، واسم الفاعل إذا جرى على غير من هو له أجرى مجرى الفعل ، فيذكر ويؤنث باعتبار الفاعل.
يقول الحق جل جلاله : وَما لَكُمْ يا معشر المسلمين لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وفى تخليص إخوانكم الْمُسْتَضْعَفِينَ بمكة ، الذين حبسهم العدو أو أسرهم ومنعهم من الهجرة مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ ، فهم فى أيديهم مغللون ممتحنون. قال البيضاوي : وإنما ذكر الولدان مبالغة فى الحث وتنبيها على تناهى ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان ، وأن دعوتهم أجيبت بسبب مشاركتهم فى الدعاء ، حتى تشاركوا فى استنزال الرحمة واستدفاع البلية. هـ.
ثم ذكر دعاءهم فقال : الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ أي : مكة الظَّالِمِ أَهْلُها بالشرك والطغيان حتى تعدى إلى النساء والصبيان. وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يصوننا عن أذاهم ، وَنَصِيراً يمنعنا

---

(١) الطنب – بضمتين – : الحبل الذي تشد به الخيمة ونحوها.
(٢) الأبيات لأبى العباس العريف ، أنظر : إيقاظ الهمم.

من التخلف عن الهجرة إلى رسولك صلّى اللّه عليه وسلم ، فاستجاب الله دعاءهم بأن يسّر لبعضهم الخروج إلى المدينة ، وجعل لمن بقي منهم أعظم ولى وناصر ، بفتح مكة على نبيه صلّى اللّه عليه وسلم ، فتولاهم ونصرهم ، واستعمل عليهم عتّاب بن أسيد ، فحماهم وأعزهم حتى صاروا أعزاء أهلها

، كما هى عادته سبحانه فى إجابة دعاء المضطرين.

الإشارة : ما لكم يا معشر العباد ، وخصوصا المريدين من أهل الجد والاجتهاد ، لا تجاهدون نفوسكم فى طريق الوصول إلى الله ، كى تنالوا بذلك مشاهدة جماله وسناه ، وتخلصوا ما كمن فى نفوسكم من الأسرار ، وما احتوت عليه من العلوم والأنوار. فإن قرية البشرية قد احتوت عليها وأسرتها بظلمات شهواتها ، واستضعفتها بتراكم غفلتها وتكثيف حجاب حسها. فمن جاهدها استخلص جواهر تلك العلوم والأسرار من صدفها. وفى ذلك يقول ابن البنا فى مباحثه :

ولم تزل كلّ النّفوس الأحيا علّامة درّاكة للأشيا

وإنما تعوقها الأبدان والأنفس النزع والشّيطان

فكلّ من أذاقهم جهاده أظهر للقاعد خرق العاده

وقال أيضا :

وهى من النفوس فى كمون كما يكون الحبّ فى الغصون.

فالرجال : الأسرار والأنوار ، والنساء : العلوم والأذكار ، والولدان : الحكم بنات الأفكار. فكل هؤلاء مستضعفون تحت قهر البشرية الظالم أهلها. من الأنفس النزع والشياطين المغوية ، فكل من جاهد هؤلاء القواطع أظهر تلك العلوم والأنوار السواطع ، واستخلص روحه من أسر حجاب الأكوان ، وأفضى إلى فضاء الشهود والعيان. وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم حثّ أولياءه من أهل الإيمان أن يقاتلوا أولياء الشيطان ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٧٦]

الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً (٧٦)

يقول الحق جل جلاله فى مدح المخلصين : الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وابتغاء مرضات الله ، وإعلاء لكلمة الله ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا ، من أهل مكة وغيرهم ، يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ وهو

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٣٠

الشيطان ، فَقاتِلُوا يا أولياء الله أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ ولا يهولكم كيده إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً ، وكيد الله للكافرين كان قويا متينا ، فلا تخافوا أولياءه ، فإنهم اعتمدوا على أضعف شىء وأوهنه ، وأنتم اعتمدتم على أقوى شىء وأمتنه.

الإشارة : كل ما سوى الله طاغوت ، فمن قصد بجهاده أو عمله رضى الله والوصول إلى حضرته دون

شيء سواه ، كان من أولياء الله ، ومن قصد بجهاده أو أعماله حظا دنيويا أو أخرويا خرج من دائرة الولاية ، فإما أن يكون مع عامة أهل الإيمان ، أو من أولياء الشيطان. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «إنّما الأعمال بالنيات ، وإنما لكلّ امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه». وقال فى الحكم : «لا ترحل من كون إلى كون ، فتكون كحمار الرحى ، يسير والذي ارتحل منه هو الذي ارتحل إليه ، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكوّن ، وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى ».

ثم عاتب الحقّ جل جلاله قوما طلبوا فرض الجهاد ، فلما فرض عليهم خطر ببالهم شيء من طبع البشر ، الذي هو الخوف من الموت ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٧٧]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧)

قلت : (أو أشد) عطف على الكاف النائبة عن المصدر ، أي : خشية مثل خشية الله أو أشد ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول ، أي : مثل خشيتهم الله.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد إِلَى الَّذِينَ طلبوا منك فرض الجهاد حرصا على أن يجاهدوا ، فقيل لهم على لسان الرسول : كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عنه إلى أوان فرضه ، واشتغلوا بما أمرتم به من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ دخلهم الخوف إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ أي :

الكفار ، أن يقتلوهم مثل خشية عقاب اللَّهِ أو أشد خشية منه. وَقالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ فى هذا الوقت لَوْ لا : هلا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نتمتع فيه بحياتنا أو إلى أن نموت بآجالنا. قلت : والظاهر أنهم قالوا ذلك فى نفوسهم ، خواطر خطرت لهم ، ولم يفوهوا به ، إن نزلت فى الصحابة – رضي اللّه عنهم – ، وإن كانت فى المنافقين فيمكن أن ينطقوا بها.

قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وعيشها ذليل ، وأجلها قريب ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى ، وحياتها خير وأبقى ، وستقدمون على مولاكم ، فيكرم مثواكم ، ويوفيكم جزاء أعمالكم ، وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا من ثواب أعمالكم ، ولا تنقصون من أيام أعماركم ، جاهدتم أو قعدتم.

[سورة النساء (٤) : آية ٧٨]

أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً (٧٨)

أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ عند انقضاء آجالكم ، وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ عالية محصنة.

فإن كان الموت لا بد منه ففى الجهاد أفضل ، لأنه حياة لا موت بعده. قال الكلبي : نزلت فى قوم من الصحابة ، منهم : عبد الرحمن بن عوف ، والمقداد وقدامة بن مظعون وغيرهم ، كانوا يؤذون بمكة ، ويستأذنون النبي صلّى اللّه عليه وسلم فى القتال ، فيقول لهم : كفوا أيديكم حتى يؤذن فيه لكم ، فلما هاجروا إلى المدينة وأمروا به ، كرهه بعضهم كراهية الطبع البشرى ، فخطر ببالهم شيء مما حكى اللّه عنهم. فلما كانوا فى عين العناية ومحل القرب والهداية عوقبوا على تلك الخواطر ، ولو كان غيرهم من أهل البعد لسومح له فى ذلك ، وقيل : نزلت فى قوم من المؤمنين أمروا بالجهاد فنافقوا من الجبن ، وتخلفوا عن الجهاد ، وهذا أليق بما بعده من قوله : إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ. والله تعالى أعلم.

الإشارة : نرى بعض الفقراء يبطشون إلى مقام التجريد ومجاهدة نفوسهم قبل كمال يقينهم ، فإذا أمروا بذلك ، ورأوا ميادين الحروب واشتعال نيران قتل النفوس ، وأمروا بالصبر على المكاره ، من مواجهة الإنكار ولحوق الذل والافتقار ، جبنوا وكلّوا ورجعوا القهقرى ، فيقال لهم : متاع الدنيا قليل وعزيزها ذليل ، وغنيها فقير ، وكبيرها حقير ، وما تنالون من الله فى جزاء مجاهدتكم خير وأبقى ، ولا تظلمون فتيلا من مجاهدتكم لنفوسكم ، فلو صبرتم لفزتم بالوصول إلى حضرة ربكم ، فلما جبنتم ورجعتم ، كان جزاؤكم الحرمان ، عما ظفر به أهل العرفان.

وفى مثل هؤلاء يقول ابن الفارض رضي اللّه عنه :

تعرّض قوم للغرام وأعرضوا بجانبهم عن صحّتى فيه واعتلوّا

رضوا بالأمانى ، وابتلوا بحظوظهم وخاضوا بحار الحبّ ، دعوى ، فما ابتلّوا

فهم فى السّرى لم يبرحوا من مكانهم وما ظعنوا فى السير عنه ، وقد كلّوا

(٥٣١/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٣٢

ثم حكى مقالتهم الدالة على نفاقهم ، فقال :

وَإِنْ تُصِبْهُمْ ...

يقول الحق جل جلاله فى وصف أهل النفاق : وإنهم إن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ كخصب ورخاء ونعمة ظاهرة ، قالوا : هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، ونسبوها إلى الله بلا واسطة ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ كقحط وجوع وموت وقتل ،

قالوا للرسول – عليه الصلاة والسلام – : هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ بشؤم قدومك أنت وأصحابك ، كما قالت اليهود – لعنهم الله – : منذ دخل محمد المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها.

قلت : بل زكت ثمارها ، ورخصت أسعارها ، وأشرقت أنوارها ، ولاحت أسرارها ، وقد دعا صلّى اللّه عليه وسلم للمدنية بمثل ما دعا إبراهيم لمكة ، وأضعاف ذلك ، فما زالت الخيرات تترادف إليها حسّا ومعنى إلى يوم القيامة ، وهذه المقالة قد صدرت ممن كان قبلهم فقد قالوا لسيدنا صالح عليه السّلام : قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ، وقال تعالى : وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ ، ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ. قال تعالى مكذبا لهم : قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الحسنة بفضله ، والسيئة بعدله. ثم عيرهم بالجهل فقال : فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً فهم كالبهائم أو أضل سبيلا ، أو لا يفقهون القرآن ويتدبرون حديثه ، ولو تدبروا لعلموا أن الكل من عند الله ، وأنه خالق كل شيء ، المقدّر لكل شيء.

ثم علّمنا الأدب بنسبة الكمالات إليه سبحانه بلا واسطة ، ونسبة النقائص إلى شؤم ذنوبنا ، فقال : ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ أي : نعمة فَمِنَ اللَّهِ فضلا وإحسانا ، وأما طاعة العبد فلا تفى بشكر نعمة واحدة ، ولذلك قال – عليه الصلاة والسلام – : «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» ، قيل : ولا أنت يا رسول اللّه؟ قال : «ولا أنا ، إلّا أن يتغمدنى اللّه برحمته».

[سورة النساء (٤) : الآيات ٧٩ الى ٨٠]

ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْناكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (٧٩) مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (٨٠)

وَما أَصابَكَ أيها الإنسان مِنْ سَيِّئَةٍ أي : بلية فَمِنْ نَفْسِكَ أي : شؤم ذنبك ، وعنه – عليه الصلاة والسلام – أنه قال : «ما من خدش بعود ولا اختلاج عرق ولا غيره إلا بذنب ، وما يعفو اللّه عنه أكثر». فلا ينافى قوله : قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فإن الكل منه إيجادا واختراعا ، غير أن الحسنة إحسان ، والسيئة مجازاة وانتقام. كما قالت عائشة – رضى الله عنها – : «ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب ، حتى الشوكة يشاكها ، وحتى انقطاع شسع نعله ، إلا بذنب ، وما يعفو اللّه عنه أكثر».

(٥٣٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٣٣

وفى مصحف ابن مسعود : (قالوا ما أصابك من حسنة فمن الله) الآية ، فتكون حينئذ من مقالة المنافقين ، والآيتان كما ترى لا حجة فيها للمعتزلة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ثلاث خصال لا ينجو منها إلا القليل كما فى الحديث : الطيرة ، والحسد ، والظن. فقال –

عليه الصلاة السلام : «إذا تطيّرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تحقّق». فيتأكد على المريد أن يتطهر من هذه الخصال ، ويصفى مشربه من التوحيد ، فلا يرى فى الوجود إلا مولاه ، ولا ينسب التأثير إلى شيء سواه ، إذا رأى نعمة به أو بغيره ، قال : من الله ، وإذا رأى مصيبة كذلك تأدب مع الله ، فيعتقد فى قلبه أنها من قدر الله ، يقول :

قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وينسب النقص إلى نفسه وهواه ، فالنفس والشيطان مناديل الحضرة ، تمسح فيهما أوساخ الأقدار ، وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ. والله تعالى أعلم.

ثم شهد جل جلاله لرسوله بالرسالة ، تحريضا على تعظيمه وحثا على طاعته ، وترهيبا من سوء الأدب معه ، كما صدر من المنافقين ، فقال :

وَأَرْسَلْناكَ لِلنَّاسِ ...

قلت : إن تعلق الجار بالفعل كان (رسولا) حال مؤكدة ، وإن تعلق بالاسم كان حالا مؤسسة تفيد العموم أي أرسلناك رسولا للناس جميعا ، و(حفيظا) حال من الكاف.

يقول الحق جل جلاله : وَأَرْسَلْناكَ يا محمد لِلنَّاسِ رَسُولًا تعلمهم التوحيد وتدلهم على الأدب ، فالتوحيد محله البواطن ، فلا يرى الفعل إلا من الله ، والأدب محله الظواهر فينسب بلسانه النقص إلى نفسه وهواه. وإذا شهد الحق – جل جلاله – لرسوله بالرسالة أغنى عن غيره ، وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً. وشهادة الحق له بالمعجزات الواضحات ، والبراهين القطعيات ، والدلائل السمعيات ، فإذا ثبتت رسالته وجب على الناس طاعته ، ولذلك قال : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ لأنه مبلغ عن الله لا ينطق عن الهوى. روى أنه صلّى اللّه عليه وسلم قال :

«من أطاعنى فقد أطاع اللّه ، ومن أحبنى فقد أحب اللّه» فقال بعض المنافقين : ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه ربّا ، كما اتخذت النصارى عيسى. فنزل : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى وأعرض فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً تحفظ عليهم أعمالهم ، وتحاسبهم عليها ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

(٥٣٣/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٣٤

الإشارة : كما شهد الحق – جل جلاله – لرسله بالرسالة ، بما أظهر لهم من المعجزات ، شهد لأوليائه بالولاية بما منحهم من الكرامات. والمراد بالكرامة : هى تحقيق العرفان ، ومعرفة الذوق والوجدان ، واستقامة الظواهر والبواطن ، وتهذيب الأخلاق وهداية الناس على يديه إلى العليم الخلاق ، فهذه الكرامة المعتبرة عند المحققين ، فمن أطاعهم فقد أطاع الله ، ومن أعرض عنهم فقد أعرض عن معرفة

الله ، ومن أحبهم فقد أحب الله ، ومن أبغضهم فقد أبغض الله لأنهم نور من أنوار الله ، وعين من عيون الله ، إذ لم يبق فيهم بقية مما سوى الله ، أقدامهم على قدم رسول الله ، «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله». فافهم ، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أحوال أهل النفاق ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٨١]

وَيَقُولُونَ طاعَةٌ فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٨١)

قلت : (طاعة) : خبر ، أي : أمرنا طاعة ، وأصله النصب على المصدر ، ورفع للدلالة على الثبوت ، وبيّت الشيء : دبّره ليلا وأضمره فى نفسه.

يقول الحق جل جلاله فى شأن المنافقين : وَيَقُولُونَ لك إذا حضروا معك : أمرنا وشأننا طاعَةٌ لك فيما تأمرنا به ، فَإِذا بَرَزُوا أي : خرجوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أي : دبّرت ليلا وأخفت من النفاق غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ لك من قبول الإيمان وإظهار الطاعة ، أو زوّرت خلاف ما قلت لها من الأمر بالطاعة ، وَاللَّهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ أي : يثبته فى صحائفهم فيجازيهم عليه ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ولا تبال بهم ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ يكفك شرهم ، وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا عليهم ، فسينتقم لك منهم.

الإشارة : هذه الخصلة موجودة فى بعض العوام إذا حضروا مع أهل الخصوصية أظهروا الطاعة والإقرار ، وإذا خرجوا عنهم بيّتوا الانتقاد والإنكار ، فلا يليق إلا الإعراض عنهم ، والغيبة فى الله عنهم ، فإن الله يكفى شرهم بكفالته وحفظه. والله تعالى أعلم.

ثم دلّهم على ما فيه دواء مرض قلوبهم ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٨٢]

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (٨٢)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٣٥

يقول الحق جل جلاله : أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون الْقُرْآنَ ، وينظرون ما فيه من البلاغة والبيان ، ويتبصّرون فى معانى علومه وأسراره ، ويطلعون على عجائب قصصه وأخباره ، وتوافق آياته وأحكامه ، حتى يتحققوا أنه ليس من طوق البشر ، وإنما هو من عند الله الواحد القهار ، وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً بين أحكامه وآياته ، من تفاوت اللفظ وتناقض المعنى ، وكون بعضه فصيحا ، وبعضه ركيكا ، وبعضه تصعب معارضته وبعضه تسهل ، وبعضه توافق أخباره المستقبلة للواقع ، وبعضه

لا يوافق ، وبعضه يوافق العقل ، وبعضه لا يوافقه ، على ما دل عليه الاستقراء من أن كلام البشر ، إذا طال ، قطعا يوجد فيه شيء من الخلل والتناقض.

قال البيضاوي : ولعل ذكره للتنبيه على أن اختلاف ما سبق من الأحكام ليس للتناقض فى الحكم ، بل لاختلاف الأحوال من الحكم والمصالح. هـ. قال ابن جزى : وإن عرضت لأحد شبهة وظن اختلافا فى شيء من القرآن ، فالواجب أن يتّهم نظره ، ويسأل أهل العلم ويطالع تآليفهم ، حتى يعلم أن ذلك ليس باختلاف. هـ.

الإشارة : تدبر القرآن على حسب صفاء الجنان ، فبقدر ما يتطهر القلب من حب الدنيا والهوى تتجلى فيه أسرار كلام المولى ، وبقدر ما يتراكم فى مرآة قلبه من صور الأكوان ، ينحجب عن أسرار معانى القرآن ولو كان من أكابر علماء اللسان. فلما كان القرآن هو دواء لمرض القلوب ، أمر الله المنافقين بالتدبر فى معانيه لعل ذلك المرض ينقلع عن قلوبهم ، لكن الأقفال التي على القلوب منعت القلوب من فهم كلام علام الغيوب ، فحلاوة كلام الله لا يذوقها إلا أهل التجريد ، الخائضون فى تيار بحار التوحيد ، الذين صفت قلوبهم من الأغيار ، وتطهرت من الأكدار ، يتمتعون أولا بحلاوة الكلام ، ثم يتمتعون ثانيا بحلاوة شهود المتكلم. والله تعالى أعلم.

ومن مساوئ المنافقين إفشاء أسرار المؤمنين ، كما قال تعالى :

[سورة النساء (٤) : آية ٨٣]

وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٣)

قلت : استنبط الشيء : استخرجه من غيره ، وأصل الاستنباط : إخراج النبط ، وهو الماء ، يخرج من البئر أول ما يحفر ، والجار فى (منهم) : إما بيان للموصول ، أي : لعلم المستنبطون الذين هم أولوا الأمر ، أو يتعلق ب (علم) ، أي :

لعلمه الذين يستخرجونه إلى الناس من أولى الأمر.

(٥٣٥/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٣٦

يقول الحق جل جلاله : فى ذم المنافقين أو ضعفة المسلمين : وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ أي : خبر عن السرايا الذين توجهوا للغزو ، من نصر وغنيمة وأمن أو خوف ، وقتل وهزيمة ، أَذاعُوا بِهِ أي : تحدثوا به ، وأشهروه ، وأرجفوا به قبل أن يصل إلى الرسول – عليه الصلاة والسلام – وأكابر الصحابة ، الذين هم أولو الأمر وأهل البصائر ، فيعرفون كيف يتحدثون به.

ولو ردوا ذلك إِلَى الرَّسُولِ وأخبروه به سرا ، أو سكتوا حتى يصل إليه ، أو يردوه إِلى أُولِي الْأَمْرِ من أكابر الصحابة ، لعلمه الذين يسخرجونه إلى الناس مِنْهُمْ ، فينقلونه على وجهه ، ويعرفون كيف يتحدثون به من غير إرجاف ولا تخويف ، أو لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ وهم أولو الأمر أولا ، ثم يعلم الناس ، فلا يكون فيه إرجاف ولا سوء أدب. أو : وإذا جاءهم أمر من وحي السماء : من تخويف أو تأمين ، أذاعوا به قبل أن يظهره الرسول – عليه الصلاة والسلام – ، ولو سكتوا وردوا ذلك إلى الرسول حتى يتحدث به للناس ، ويظهره أولو الأمر من أكابر أصحابه ، لعلمه الذين يستخرجون ذلك الوحى من أصله ، وهو الرسول – عليه الصلاة السلام – وأكابر أصحابه ، كما فعل عمر رضي اللّه عنه : إذ سمع أن رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم طلق نساءه ، فدخل عليه فقال : أطلقت نساءك؟ قال : «لا» ، فقام على باب المسجد ، فقال : إن رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم لم يطلق نساءه ، فأنزل الله هذه القصة ، قال : وأنا الذي استنبطته. والله تعالى أعلم.

الإشارة : قالت الحكماء : قلوب الأحرار قبور الأسرار ، وهذه الخصلة التي ذمّها الله تعالى توجد فى كثير من العوام مهما سمعوا خبرا : خيرا أو شرا ، بادروا إلى إفشائه ، ولا سيما إذا سمعوه على أهل النسبة أو أهل الخصوصية ، وقد توجد فى بعض الفقراء ، وهى غفلة ونوع من الفضول ، فالفقير الصادق غائب عن أخبار الزمان وأهله ، وقد ترك الناس وما هم فيه ، وقد تغلب عليه الغيبة فى الله حتى تغيب عنه الأيام ، وأما الفقير الذي يتسمع الأخبار ويبحث عنها فلا نسبة له فى الفقر ، إلا اسم بلا مسمى ، وقد ترى بعض الفقراء ، يبلّغ مساوئ إخوانه إلى المشايخ ، وهو سبب الطرد ، والعياذ بالله. وقد كان صلّى اللّه عليه وسلم يقول : «لا تبلغونى مساوئ أصحابى» «١» لأن ذلك يسؤوهم ، والخير كله فى إدخال السرور على قلوب المشايخ.

وتنسحب الآية على من يفشى أسرار الربوبية ، ويطلع الفقراء على الحقيقة ، ولو ردوا ذلك إلى شيخهم حتى يكون هو الذي يطلعهم لكان أحسن ، لأن الحقيقة إذا أخذت من الشيخ كان فيها سر كبير ، بخلاف ما إذا أخذت من غيره ، إلّا إذا كان مأذونا له فى ذلك فكأنه هو. والله تعالى أعلم.

---

(١) الحديث لم أقف عليه بهذا اللفظ ، وورد عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم سليم الصدر».

أخرجه أبو داود فى (الأدب ، باب رفع الحديث من المجلس) والترمذي فى (المناقب ، باب فضل أزواج النبي) من حديث ابن مسعود.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٣٧

وقال الورتجبي : قال أبو سعيد الخراز : إن له عبادا يدخل عليهم الخلل ، ولو لا ذلك لفسدوا وتعطلوا ، وذلك أنهم بلغوا من العلم غاية ، صاروا إلى علم المجهول ، الذي لم ينصّه كتاب ، ولا جاء به خبر ، لكن العقلاء العارفون ، يحتجون له من الكتاب والسنة ، بحسن استنباطهم ومعرفتهم ، قال الله تعالى : لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ. هـ.

قلت : ومعنى كلامه : أن الله – تعالى – أشغل علماء الظاهر بتقرير علم الفرق ، ولو لا اشتغالهم بذلك لتعطلوا وتبطلوا ، إذ لا قدرة لهم على عمل القلوب من الفكرة والنظرة ، لكن العارفون يقرون لهم ذلك ، ويحتجون لهم بما فى نشر العلم من الأجور ، من الكتاب والسنة ، لأنهم قاموا بنظام علم الحكمة ورفعوا علم الشريعة ، ولولا قيامهم بذلك لتعين على أهل الباطن ، فتتشوش عليهم قلوبهم ، وكان شيخ شيوخنا سيدى على الجمل العمراني رضي اللّه عنه يقول :

جزاهم الله عنا خيرا رفعوا لنا علم الشريعة ، نحن نغرق فى البحر ، ثم نرفع رأسنا فنرى العلم قائما ، ثم نرجع إلى البحر. هـ. بالمعنى ، والله تعالى أعلم.

ثم إن الهداية بيد الله ، قوم أقامهم فى الفرق ، وقوم هداهم إلى الجمع ، كما قال تعالى :

وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ ...

يقول الحق جل جلاله : لو لا أن الله تفضل عليكم ورحمكم بنبي الرحمة ، وأنقذكم من متابعة الشيطان وعبادة الأوثان ، لبقيتم على كفركم وضلالكم ، ولا تبعتم الشيطان فيما يأمركم به من الكفر والعصيان ، إلا قليلا ممن اهتدى قبل بعثته ، كقس بن ساعدة ، وزيد بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، رزقهم الله كمال العقل فنظروا وتكفروا بعقولهم فوجدوا الله واعتزلوا ما كان يعبد آباؤهم وإخوانهم. أما قس فاعتزل قومه ، وعبد الله وحده ، وكان يخطب على الناس ويأمرهم بالتوحيد ، ويعيب عليهم عبادة الأصنام. وعاش سبعمائة عام. وأما زيد فتعلق بالحنيفية ، دين إبراهيم ، حتى مات قبل البعثة. وأما ورقة – فأخذ بدين النصرانية التي لم تغيّر ، وأدرك أول البعثة ، وآمن بالرسول قبل أن يؤمر بالإنذار. قال – عليه الصلاة والسلام – : «رأيته فى الجنة عليه ثياب خضر».

والله تعالى أعلم.

الإشارة : لو لا فضل الله عليكم بأن بعث لكم من يدلكم على الله ويعرفكم بالله ، ورحمته بأن أخرجكم من ضيق الفرق ، إلى فضاء الجمع ، لا تبعتم الفرق علما وعملا ، لكن الله تعالى بفضله ورحمته غيبكم عن شهود الفرق بشهود الملك الحق. إلا فرقا قليلا تقيمون به رسم العبودية ، وتظهرون به الآداب مع الربوبية.

قال الورتجبي : الفضل والرحمة منه للعموم ، ومحبته للخصوص ، الذين هم مستثنون بقوله : «إلا قليلا». هـ. قال القشيري : وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ مع أوليائه لهاموا فى كل واد من التفرقة كأشكالهم فى الوقت. هـ. فخصّ الإشارة بالأولياء ، وعليه فقوله : إِلَّا قَلِيلًا أي : إلا تفرقة قليلة تعرض لهم ، تربية لهم ، وإبقاء لرسمهم ومناط تكليفهم.

والله تعالى أعلم. قاله فى الحاشية.

ولا يظهر هذا كله إلا بالجهاد الأكبر والأصغر ، كما قال تعالى :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٨٤ الى ٨٦]

فَقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً (٨٤) مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَمَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (٨٥) وَإِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً (٨٦)

قلت : (نفسك) : مفعول ثان ، والأول نائب ، أي : لا يكلفك الله إلا نفسك.

يقول الحق جل جلاله : فَقاتِلْ يا محمد فِي سَبِيلِ اللَّهِ ولو وحدك إن تثبطوا عن الجهاد ، لا نكلفك إلا أمر نفسك ، وَلكن حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ على الجهاد ، إذ ما عليك إلا التحريض. فجاهدوا حتى تكون كلمة الله هى العليا. عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بجهادكم بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ويبطل دينهم الفاسد. وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً منهم وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا أي : تعذيبا لهم. وقد حقّق الله ذلك ففتح الله على نبيه قبائل العرب ، فلم يبق فيهم مشرك ، ثم فتح على الصحابة سائر البلاد ، وهدى الله بهم جميع العباد ، إلا من فرّ من الكفار إلى شواهق الجبال.

وإنما أمرتك بالتحريض على الجهاد لأن الدال على الخير كفاعله ، وذلك كالشفاعة بين الناس ودلالتهم على إصلاح ذات البين ، فمن يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً بأن ينفع المشفوع له ، بدفع ضرر أو جلب نفع ، ابتغاء وجه الله ، يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها ، أي : حظ كبير من الثواب لأنه دل المشفوع عنده على الخير ، وأوصل النفع إلى المشفوع له ، فله من الأجر مثل ما لهما ، ومنها : الدعاء بظهر الغيب ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : «من دعا لمسلم بظهر الغيب استجيب له ، وقال له الملك : لك مثل ذلك». وَمَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً ، يريد بها فسادا بين الناس كنميمة وزور وإحداث بدعة ، يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ أي : نصيب مِنْها أي : من وزرها ، وفى الحديث : «من سنّ سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم

القيامة ، ومن سنّ سنّة سيّئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً أي : مقتدرا من أقات على الشيء : إذا قدر عليه ، أو شهيدا حافظا فيجازى على قدر الأعمال.

ومن هذا أيضا : السلام ، فإنه سبب فى ثواب الرد ، لذلك ذكره الحق فى سلك الدلالة على الخير فقال : وَإِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها بأن تقولوا : وعليكم السلام والرحمة والبركة ، أَوْ رُدُّوها بأن تقولوا :

وعليكم السلام.

وفى الخبر : «من قال لأخيه المسلم : السّلام عليكم ، كتب الله له عشر حسنات ، فإن قال : السّلام عليكم ورحمة الله ، كتب الله له عشرين حسنة ، فإن قال : وبركاته ، كتب الله ثلاثين» ، وكذلك لمن ردّ ، فإن اقتصر على السلام ، فعشر ، وهكذا .. فإن ذكر المسلم الرحمة والبركة ، قال الرادّ : وعليكم ، فقط ، إذ لم يبق ما يزاد ، ورد السلام واجب على الكفاية ، حيث يكون مشروعا ، فلا يرد فى الخطبة ، وقراءة القرآن ، والذكر والتفكر ، والاعتبار ، ونظرة الشهود والاستبصار ، لأنه يفتر ويشوش ، وفى الحمام إذا كانوا عراة ، وفى حال الجماع والأكل والشرب وغيرها من المسائل المستثناة. وقد نظمه بعضهم ، فقال :

ردّ السّلام واجب إلا على من فى الصّلاة أو بأكل شغلا

أو شرب أو قراءة أو أدعيه أو ذكر أو خطبة أو تلبيه

والسلام من تحية أهل الإسلام ، خاصّ بهم. لذلك استغرب الخضر – عليه السلام – سلام سيدنا موسى عليه السّلام فقال له : «وأنّى بأرضك السّلام» ، وكذلك خليل الله إبراهيم عليه السّلام ، إنما أنكر الملائكة حيث سلموا عليه بتحية أهل الإسلام لأنه كان بين أظهر قوم كفار ، أما سلام أبى ذر على النبي صلّى اللّه عليه وسلم بتحية أهل الإسلام ، قبل أن يسلم ، فلعله سمعه من بعض الصحابة قبل أن يسلم ، أو إلهام من الله. والله تعالى أعلم.

إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً يحاسبكم على التحية وغيرها. وبالله التوفيق.

الإشارة : فجاهد أيها الإنسان نفسك فى سبيل الله ، لا تكلف إلا إصلاحها وتزكيتها ، وحرض من يسمع قولك من المؤمنين على جهاد أنفسهم ، عسى الله أن يكف عنهم القواطع والعلائق ، فيتأهلون لإشراق قلوبهم بأنوار الحقائق ، فإن الله لا يغلبه شيء ، فمن ذكّر عباد الله ، ودسهم إلى حضرة الله كان حظه كبيرا عند الله. ومن دلهم على غير الله فقد غشهم وكان مهانا عند الله ، وإذا وقع السلام على الفقراء فإن كانوا سالكين غير مشتغلين بالذكر

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٤٠

وجب عليهم الرد بأحسن ، وإذا كانوا ذاكرين أو متفكرين أو سكارى فى شهود الحبيب سقط عنهم السلام ، وكذلك إذا سلم عليهم اختبارا وتعنيتا لم يجب الرد. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر أمر الحساب ذكر وقته ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٨٧]

اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً (٨٧)

قلت : (الله) : مبتدأ ، و(لا إله) : خبر ، أو اعتراض ، و(ليجمعنكم) : خبر ، وهو أوفق بالسياق ، و(لا ريب فيه) حال ، أو صفة لمصدر ، أي : جمعا لا ريب فيه.

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أي : لا مستحق للعبادة إلا هو ، والله لَيَجْمَعَنَّكُمْ أي : ليحشرنكم من قبوركم إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ للحساب الذي وعدكم به ، لا شك فيه ، فهو وعد صادق ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ، أي : لا أحد أصدق من الله حديثا ، لأن الكذب نقص ، وهو على الله محال.

الإشارة : الحق تعالى واحد فى ملكه ، فلا يذوق وحدانيته إلا من كان واحدا فى قصده وهمه ، فكل من وحّد قلبه وقصده وهمته فى طلبه ، وانجمع بكليته إليه ، جمعه الله لحضرته ، ونعّمه بشهود ذاته ، وعدا حقا وقولا صدقا ، لا ريب فيه ولا اشتباه ، إذ لا أحد أصدق من الله.

ثم رجع إلى الكلام مع المنافقين ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٨٨]

فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (٨٨)

قلت : (فئتين) : حال ، والعامل فيه : الاستقرار فى الجر ، وأركس الشيء : نكّسه.

يقول الحق جل جلاله معاتبا الصحابة حين اختلفوا فى إسلام بعض المنافقين ، فقال : فَما لَكُمْ افترقتم فِي شأن الْمُنافِقِينَ فرقتين ، ولم تتفقوا على كفرهم ، والحالة أن الله – تعالى – أَرْكَسَهُمْ ، أي : نكّسهم وردهم إلى الكفر بعد أن أظهروا الإسلام بسبب ما كسبوا من الآثام. أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ، وسبق لهم الشقاء فى علم الله؟ ومن يضلل الله فلن تجد له طريقا إلى الهدى. قال ابن عباس – رضى الله عنهما – : (نزلت فى قوم كانوا بمكة من المشركين ، فزعموا أنهم آمنوا ولم يهاجروا ، ثم سافر قوم منهم بتجارات إلى الشام ، فاختلف

المسلمون ، هل يقتلونهم ليغنموا تجارتهم ، لأنهم لم يهاجروا ، أو يتركونهم لأنهم مؤمنون؟). وقيل : فى قوم أسلموا ثم اجتووا المدينة «١» ، وأستأذنوا رسول صلّى اللّه عليه وسلم فى الخروج إلى البدو ، فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة حتى لحقوا بالمشركين ، فاختلف المسلمون فى إسلامهم.

[سورة النساء (٤) : الآيات ٨٩ الى ٩٠]

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ حَتَّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٨٩) إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (٩٠)

ثم حكم بكفرهم فقال وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ أي : يتمنون كفركم كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ معهم سَواءً فى الضلال والكفر.

الإشارة : من دخل فى طريق المخصوصين الأبرار ، ثم لم تساعده رياح الأقدار ، فلا ينبغى الكلام فيه ، ولا الخوض فى شأنه ، لأن أمره بيد ربه ، (من يهده الله فلا مضل له) ، ومن يضلل فلا ناصر له. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم نهى عن موالاتهم ، فقال :

فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ ...

قلت : (حصرت) : أي : ضاقت ، والجملة حال من الواو ، بدليل قراءة يعقوب (حصرة).

يقول الحق جل جلاله : فَلا تَتَّخِذُوا من هؤلاء الكفرة أَوْلِياءَ وأصدقاء حتى يتحقق إيمانهم ، بأن يهاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام فِي سَبِيلِ اللَّهِ وابتغاء مرضات الله ، لا لحرف دنيوى ، فَإِنْ تَوَلَّوْا عن إظهار الإيمان بالهجرة فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَخُذُوهُمْ أسارى وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ كسائر الكفرة ، وجانبوهم وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً أي : لا تستعينوا بهم فى جهادكم ، إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عهد ، وميثاقٌ أي : مهاندة ، فلهم حكم المعاهدين الذين وصلوا إليهم ، ودخلوا معهم فى الصلح ، فلا تقتلوهم ولا تأسروهم.

---

(١) أي أصابهم الجوى : وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول. وذلك إذ لم يوافقهم هواؤها ، واستوخموها ، ويقال : اجتويت البلد : إذا كرهت المقام فيه ، وإن كنت فى نعمة. انظر النهاية فى غريب الحديث (جوا).

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٤٢

وكانت خزاعة وادعت النبي صلّى اللّه عليه وسلم وعقدت معه الصلح ، فجاء بنو مدلج فدخلوا معهم فى الصلح ، فنهى الله عن قتالهم ماداموا معهم ، فالقوم الذين بين المسلمين وبينهم ميثاق هم خزاعة ، والذين وصلوا إليهم هم بنو مدلج.

فالاستثناء على هذا منقطع ، لأن بنى مدلج حينئذ كانت مظهرة للكفر لا منافقة ، ويحتمل أن يكون متصلا ، أي : إلا الذين يصلون منهم ... إلخ ، فتأمل. وكان هذا فى أول الإسلام ، ثم نسخ بقوله : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ الآية.

ثم ذكر قوما آخرين نهى عن قتالهم ، فقال : أَوْ جاؤُكُمْ أي : إلّا قوما جاءوكم ، قد حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أي : ضاقت عن أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ يعنى أنهم كرهوا قتالهم ، وكرهوا قتال قومهم الكفار ، فلا تقتلوهم أيضا ، لأن الله كفّ شرهم عنكم ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ بأن قوّى قلوبهم وأزال رعبهم فَلَقاتَلُوكُمْ ولم يكفوا عنكم ، فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ ولم يتعرضوا لكم وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ أي : الاستسلام والانقياد فَما جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا أي : طريقا إلى قتالهم.

الإشارة : نهى الله تعالى عن مساكنة النفوس وموالاتها ، حتى تهاجر عن مواطن شهواتها إلى حضرة ربها ، فإن تولت عن الهجرة وألفت البطالة والغفلة فليأخذها ليقتلها حيثما ظهرت صورتها ، ولا يسكن إليها أبدا أو يواليها ، إلّا إن وصلت إلى حضرة الشيخ ، وأمره بالرفق بها ، أو كفت عن طغيانها ، أو كفى الله أمرها بجذب أخرجها عن عوائدها ، أو وارد قوّى دفع شهواتها ، فإنه يأتى من حضرة قهار ، لا يصادم شيئا إلا دمغه ، وهذه عناية من الرحمن ، ولو شاء الله تعالى لسلطها على الإنسان يرخى لها العنان ، فتجمح به فى ضحضاح النيران ، فإن كفت النفس عن شهواتها ، وانقادت إلى حضرة ربها ، فما لأحد عليها من سبيل ، وقد دخلت فى حمى الملك الجليل.

والله تعالى أعلم.

ثم ذكر صنفا آخر من المنافقين ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٩١]

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبِيناً (٩١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٤٣

يقول الحق جل جلاله : سَتَجِدُونَ قوما آخَرِينَ منافقين ، وهم أسد وغطفان ، قدموا المدينة ، وأظهروا الإسلام نفاقا ورياء إذا لقوا النبي صلّى اللّه عليه وسلم قالوا : إنا على دينك ، يريدون الأمن ، إذا لقوا قومهم ، وقالوا لأحدهم : لما ذا أسلمت ، ومن تعبد؟ فيقول : لهذا القرد ولهذا العقرب والخنفساء ، يُرِيدُونَ بإظهار الإسلام أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ، كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها ، أي : كلما دعوا إلى الكفر رجعوا إليه أقبح رد ، فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ أي : ولم يلقوا إليكم المسالمة والصلح ، ولم يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ بأن تعرضوا لكم وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ أي : وجدتموهم ، وَأُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً ، أي : تسلطا مُبِيناً ظاهرا ، لظهور كفرهم وثبوت عداوتهم.

الإشارة : النفوس على ثلاثة أقسام : قسم مطلقة العنان فى الجرائم والعصيان ، وهى النفوس الأمارة ، وإليها الإشارة بالآية قبلها ، والله أعلم. وقسم مذبذبة تارة تظهر الطاعة والإذعان ، تريد أن يأمنها صاحبها ، وتارة ترجع إلى الغى والعصيان ، مهما دعيت إلى فتنة وقعت فيها ، فإن لم تنته عن ذلك ، وتكف عن غيها ، فالواجب جهادها وقتلها حتى تنقاد بالكلية إلى ربها ، وأما النفس المطمئنة فلا كلام معها لتحقق إسلامها ، فالواجب الكف عنها وحبها. والله تعالى أعلم.

ولمّا فرغ من حفظ الأديان تكلم على بقية حفظ الأبدان ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ٩٢]

وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (٩٢)

قلت : (و ما كان لمؤمن) النفي هنا بمعنى النهى ، كقوله : وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ، و(إلا خطأ) : استثناء منقطع ، و(خطأ) : حال ، أو مفعول من أجله ، أو صفة لمصدر محذوف ، أي : لا يحل له أن يقتل مؤمنا فى حال من الأحوال ، لكن إن وقع خطأ فحكمه ما يأتى. وقيل : متصل. انظر ابن جزى. أو : إلا قتلا خطأ ، و(إلا أن يصدقوا) : حال ، أي : إلا حال تصدقهم ، و(توبة) : مفعول من أجله ، أي : شرع ذلك لأجل التوبة. أو ، مصدر ، أي : تاب عليكم توبة.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٤٤

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ ينبغى لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً مثله ، أي : هو حرام عليه ، إِلَّا أن يقتله

خَطَأً بأن ظنه كافرا ، أو رمى غيره فصادفه. والآية نزلت بسبب قتل عياش بن ربيعة للحارث بن زيد ، وكان الحارث يعذبه على الإسلام ، ثم أسلم الحارث ، وهاجر ، ولم يعلم عياش بإسلامه ، فقتله.

ثم ذكر حكمه فقال : وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ أي : فعليه تحرير رقبة مُؤْمِنَةٍ سالمة من العيوب ، ليس فيها شوب حرية ، تكون من مال القاتل ، وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ أي : مدفوعة إِلى أَهْلِهِ وهى على العاقلة كما بيّن الرسول – عليه الصلاة والسلام – ، وهى عند مالك : مائة من الإبل على أهل الإبل ، وألف دينار شرعية على أهل الذهب ، واثنا عشر ألف درهم ، على أهل الورق ، مقسطة على ثلاث سنين ، فإن لم تكن العاقلة فعلى بيت المال ، وتقسم على أهله ، على حسب المواريث ، إلا أن يتصدقوا بالدية على القاتل فتسقط ، أي : تسمح فيها الورثة أو القتيل قبل موته.

فَإِنْ كانَ المقتول مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ أي : محاربين لكم ، وَهُوَ أي : المقتول مُؤْمِنٌ فعلى القاتل تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ولا دية لأنهم محاربون فيتقووا بها على المسلمين ، ورأى مالك أن الدية فى هذا واجبة لبيت المال ، وَإِنْ كانَ المقتول مؤمنا وهو مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أي : عقد الصلح أو الذمة ، فعلى القاتل دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ ، وعليه أيضا تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ كفارة لخطئه. فإن كان غير مؤمن فلا كفارة فيه. وفيه نصف دية المسلم ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ الرقبة ، أو لم يقدر عليها فعليه فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ عوضا من العتق ، جعل الله ذلك تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ على القاتل لتفريطه. وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً بما فرض ، حَكِيماً فيما قدّر ودبّر. والله تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أن الحق – جل جلاله – قد رغّب فى إحياء النفوس ، حسا ومعنى ، ونهى عن قتلها حسا ومعنى ، وما ذلك إلا لخصوص محبة له فيها ، ومزيد اعتناء له بشأنها فليس فى الوجود أعز عند الله من مظهر هذا الآدمي إن استقام فى العبودية لربه ، فهو قلب الوجود ، ومن أجله ظهر كل موجود ، وهو المنظور إليه من هذا العالم السفلى ، والمقصود بالخطاب التكليفي : جزئى وكلى ، فهو المقصود من بيت القصيد ، وهو المحبوب إليه ، دون سائر العبيد ، قال تعالى : وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي.

(٥٤٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٤٥

ومعنى إحيائها حسا : انقاذها من الهلاك الحسى ، ومعنى إحيائها معنى : إنقاذها من الهلاك المعنوي كالجهل والغفلة ، حتى تحيا بالعلم والإيمان واليقظة ، ومعنى قتلها حسا : إهلاكها ، ومعنى قتلها معنى : إيقاعها فى المعاصي والكفر وحملها على ذلك ، وكذلك إهانتها وذلها ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام – : «لعن المؤمن كقتله». فأمر من قتله خطأ أن يحيى نفسا أخرى فى مقابلتها بإخراجها من موت إهانة الرق ، فإن لم يقدر ، فليحى نفسه بقتل صولتها بالجوع حتى تنكسر ، فتحيا بالتوبة واليقظة

، ويجبر كسر أهل المقتول بالدية المسلّمة.

هذا كله فى تفريطه وقلة حزمه حتى قتل خطأ ، وأما إن قتله عمدا ، فأشار إليه الحق جل جلاله بقوله : [سورة النساء (٤) : آية ٩٣]

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً (٩٣)

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً مستحلا لقتله فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ أي : طرده وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً ، وقولنا : مستحلا لقتله ، هو أحد الأجوبة عن شبهة المعتزلة القائلين بتخليد عصاة المؤمنين فى النار. ومن جملتهم : قاتل النفس.

ومذهب أهل السنة : أنه لا يخلد إلا الكافر ، ويؤيد هذا الجواب سبب نزول الآية ، لأنها نزلت فى كافر ، وهو (مقيس بن ضبابة الكناني) وجد أخاه هشاما قتيلا فى بنى النجار – وكان مسلما – فذكر ذلك للنبى صلّى اللّه عليه وسلم فأرسل معه رجلا من بنى فهر ، وقال له : «ائت بنى النّجار ، وقل لهم : إن علمتم قاتل هشام فادفعوه لمقيس يقتصّ منه ، وإن لم تعلموا فادفعوا إليه الدّية». فقالوا : سمعا وطاعة ، لم نعلم قاتله ، فجمعوا مائة من الإبل ، فأخذها ، ثم انصرفا راجعين إلى المدينة ، فوسوس إليه الشيطان ، وقال : أىّ شىء صنعت؟ تقبل دية أخيك فتكون عليك سبّة ، اقتل الرجل الذي معك فتكون نفس مكان نفس وفضل الدّية ، فقتله وأخذ الدّية ، فنزلت فيه الآية.

أو يكون الخلود عبارة عن طول المكث ، والجمهور على قبول توبته ، خلافا لابن عباس ، ونقل عنه أيضا قبولها ، ولعله تعالى استغنى عن ذكر التوبة هنا اكتفاء بذكرها فى الفرقان ، حيث قال : وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً ثم قال : إِلَّا مَنْ تابَ. وأما من قال : إن تلك منسوخة بهذه فليس بصحيح لأن النسخ لا يكون فى الأخبار. أو فجزاؤه إن جوزى ، ولا بدع فى خلف الوعيد لقوله : وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ لأن الوعيد

(٥٤٥/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٤٦

مشروط بعدم العفو ، لدلائل منفصلة اقتضت ذلك كما هو مشروط بعدم التوبة أيضا ، والحاصل : أن الوعد لا يخلف لأنه من باب الامتنان ، والوعيد يصح إخلافه بالعفو والغفران ، كما فى بعض الأخبار عن رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم قال :

«من وعده الله – عز وجل – على عمل ثوابا فهو منجزه له لا محالة ، ومن أوعده على عمل عقابا فهو بالخيار ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه». هـ. ذكره فى القوت.

فتحصّل أن القاتل لا يخلّد على المشهور إلّا إذا كان مستحلا ، وهذا أيضا ما لم يقتص منه ، وأما إذا

اقتص منه فالصحيح أنه يسقط عنه العقاب لقول النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «من أصاب ذنبا فعوقب به فى الدنيا فهو له كفّارة». وبه قال الجمهور ، وكذلك إذا سامحه ورثة الدم لأنه حق ورثوه. والله تعالى أعلم.

الإشارة : الإيمان محله القلوب ، فالقلب هو المتصف بالإيمان حقيقة. فالمؤمن الحقيقي هو القلب ، فمن قتله بتتبع الشهوات ، وتراكم الغفلات ، فجزاؤه نار القطيعة فى سجن الأكوان ، والبعد عن عرفان الشهود والعيان ، وفى الحكم : «سبب العذاب وجود الحجاب ، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم». والله تعالى أعلم.

ثم إن اللسان ترجمان القلب ، فمن أظهر الإيمان حرم التعرض له ، كما أشار إلى ذلك الحق جل جلاله بقوله :

[سورة النساء (٤) : آية ٩٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٩٤)

قلت : (السّلم) بالقصر : الانقياد والاستسلام ، وبالمد : التحية. وجملة (تبتغون) : حال من الواو ، مشعرة بما هو الحامل على العجلة.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ أي : سافرتم وسرتم تجاهدون فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَتَبَيَّنُوا الأمور وتثبتوا فيها ولا تعجلوا ، فإن العجلة من الشيطان ، وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ أي : الانقياد والاستسلام ، أو سلّم عليكم تحية الإسلام ، لَسْتَ مُؤْمِناً إنما فعلت ذلك متعوذّا خائفا ، فتقتلونه طمعا فى ماله ، تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا وحطامها الفاني ، فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ وعدكم بها ، لم تقدروا الآن عليها ، فاصبروا وازهدوا فيما تشكّون فيه حتى يأتيكم ما لا شبهة فيه ، كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٤٧

هذه الحال ، كنتم تخفون إسلامكم خوفا من قومكم ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بالعز والنصر والاشتهار ، فَتَبَيَّنُوا وتثبتوا ولا تعجلوا ، وافعلوا بالداخلين فى الإسلام كما فعل الله بكم ، حيث حفظكم وعصمكم ، ولا تبادروا إلى قتلهم ظنا بأنهم إنما دخلوا فيه اتقاء وخوفا ، فإن إبقاء ألف كافر أهون عند الله من قتل مؤمن ، وتكريره تأكيد لتعظيم الأمر. ثم هدّدهم بقوله إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً مطلعا على

قصدكم ، فلا تتهافتوا فى القتل ، واحتاطوا فيه.

روى أن سرية لرسول الله صلّى اللّه عليه وسلم غزت أهل فدك فهربوا ، وبقي مرداس ثقة بإسلامه ، لأنه كان مسلما وحده ، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل «١» ، وصعد عليه ، فلما تلاحقوا وكبّروا ، كبّر ونزل يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، السلام عليكم ، فقتله أسامة ، واستاق غنمه ، فنزلت الآية. فلما أخبر - عليه الصلاة والسلام - وجد وجدا شديدا ، وقال لأسامة : «كيف بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!» قالها ثلاثا ، حتى قال أسامة : ليتنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ ، ثم استغفر له بعد ، وقال له : «أعتق رقبة» ، وقيل : نزلت فى المقداد ، مرّ برجل فى غنمه فأراد قتله ، فقال : لا إله إلا الله ، فقتله وظفر بأهله وماله ، وقيل : القاتل : محلّم بن جثامة ، والمقتول : عامر بن الأضبط. والله تعالى أعلم.

الإشارة : يستفاد من الآية : الترغيب فى خصلتين ممدوحتين وخصوصا عند الصوفية :

الأولى : التأنى فى الأمور والرزانة والطمأنينة ، وعدم العجلة والخفة والطيش. وفى الحديث : «من تأنّى أصاب أو كاد ، ومن استعجل أخطأ أو كاد». ولا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ، ويفهم عن الله أنه مراد الله فى ذلك الوقت.

والثانية : حسن الظن بعباد اللّه كافة ، واعتقاد الخير فيهم ، وعدم البحث عما اشتمل عليه بواطنهم ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : «أمرت أن أحكم بالظواهر واللّه يتولى السرائر» «٢» وقال لأسامة : «هلا شققت عن قلبه» ، حين قتل من قال : لا إله إلا الله ، أو لغيره. وفى الحديث : «خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير : حسن الظن بالله ، وحسن الظنّ بعباد الله ، وخصلتان ليس فوقهما من الشر شيء : سوء الظن بالله ، وسوء الظن بعباد الله». والله تعالى أعلم.

---

(١) أي : منعطف من الجبل.

(٢) لم يرد بهذا اللفظ. راجع كشف الخفا ١/ ٢٢١ والمقاصد الحسنة/ ٩١.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٤٨

ولما نهى عن العجلة نهّضهم إلى الجهاد لئلا يتوهم أنها مذمومة حتى فى الجهاد ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٩٥ الى ٩٦]

لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ

عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (٩٥) دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٩٦)

قلت : (من المؤمنين) : حال من (القاعدين) ، و(غير) بالرفع : صفة للقاعدين ، وبالنصب : حال ، وبالجر : بدل من المؤمنين ، و(درجة) : نصب على إسقاط الخافض ، أو على المصدر ، لأنه متضمن معنى التفضيل ، أو على الحال ، أي : ذوى درجة. و(أجرا عظيما) : مصدر لفضّل ، لأنه بمعنى أجرا ، أو مفعول ثان لفضّل ، لأنه بمعنى أعطى ، أي : أعطاهم زيادة على القاعدين أجرا عظيما ، و(درجات) وما بعده ، كل واحد بدل من (أجرا) ، و(درجات) : نصب على المصدر ، كقولك : ضربته أسواطا ، و(أجرا) : حال ، تقدمت عليها لأنها نكرة ، و(مغفرة ورحمة) : على المصدر بإضمار فعلهما.

يقول الحق جل جلاله ترغيبا فى الجهاد : لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ عن الجهاد مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مع المجاهدين فى سبيل الله فى الدرجة والأجر العظيم. ولما نزلت أتى ابن أم مكتوم وعبد الله بن جحش ، وهما أعميان فقالا : يا رسول الله ذكر اللّه فضيلة المجاهدين على القاعدين ، وحالنا على ما ترى ، ونحن نشتهى الجهاد ، فهل من رخصة؟ فأنزل الله : غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ، فجعل لهم من الأجر ما جعل للمجاهدين لزمانتهم وحسن نياتهم.

ثم ذكر فضل من خرج على من قعد لعذر فقال : فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ ، مواساة للمجاهدين ، وَأَنْفُسِهِمْ ببذلها فى سبيل رب العالمين ، عَلَى الْقاعِدِينَ لعذر ، دَرَجَةً واحدة ، لمزيد مشقة السفر والغزو والخطر بالنفس للموت ، وَكُلًّا من القاعدين لعلة والمجاهدين فى سبيل الله ، وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى أي :

المثوبة الحسنى ، وهى الجنة. وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ من غير عذر أَجْراً عَظِيماً وخيرا جسيما. وفى البخاري : «إنّ للّه مائة درجة أعدّها اللّه للمجاهدين فى سبيل اللّه ، ما بين الدرجتين كما بين السّماء والأرض». الحديث. ثم بيّنها بقوله دَرَجاتٍ مِنْهُ أي : من فضله وإحسانه ، وَمَغْفِرَةً لذنوبه ، وَرَحْمَةً تقرّبه إلى ربه ، وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً لما عسى أن يفرط منه ، رَحِيماً بما وعد له.

(٥٤٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٤٩

الإشارة : لا يستوى القاعد مع حظوظه وهواه ، مشتغلا بتربية جاهه وماله وتحصيل مناه ، غافلا عن السير إلى حضرة مولاه ، مع الذي سلّ سيف العزم فى جهاد نفسه وهواه ، وبذل مهجته وجاهد نفسه فى طلب رضاه ، حتى وصل إلى شهود أنوار جماله وسناه ، هيهات هيهات ، لا يستوى الأحياء مع الأموات ، فإن قعد مع نفسه لعذر يظهره ، مع محبته لطريق القوم وإقراره لأهل الخصوصية ، فقد فضّل الله عليه المجاهدين لنفوسهم بدرجة الشهود ومعرفة العيان للملك الودود ، وإن قعد لغير عذر مع

الإنكار لأهل الخصوصية ، فقد فضّل الله عليه المجاهدين أجرا عظيما ، درجات منه بالترقي أبدا ، ومغفرة ورحمة ، وفى البيضاوي : التفضيل بدرجة فى جهاد الكفار ، وبدرجات فى جهاد النفس لأنه الأكبر للحديث. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكم من تخلف عن الهجرة والجهاد حتى مات ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ٩٧ الى ٩٩]

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَساءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً (٩٩)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ تتوفاهم الْمَلائِكَةُ أي : ملك الموت وأعوانه ، يعنى : تقبض أرواحهم ، ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ بترك الهجرة ومرافقة الكفرة ، قالُوا أي : الملائكة فى توبيخهم : فِيمَ كُنْتُمْ أي : فى أي شيء كنتم من أمر دينكم : أعلى الشك أو اليقين؟ أو : فى أي بلد كنتم : فى دار الكفر أو الإسلام؟ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ فعجزنا عن الهجرة وإظهار الدين خوفا من المشركين ، قالُوا أي : الملائكة تكذيبا لهم وتبكيتا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها إلى قطر آخر ، كما فعل المهاجرون إلى الحبشة والمدينة ، لكن حبستكم أموالكم ، وعزّت عليكم أنفسكم ، فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ لتركهم الهجرة الواجبة فى ذلك الوقت ، ومساعدتهم الكفار على غزو المسلمين ، وَساءَتْ مَصِيراً أي : قبحت مصيرا جهنم التي يصيرون إليها.

نزلت فى ناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا ، فخرجوا يوم بدر مع المشركين فرأوا قلة المسلمين ، فقالوا : غرّ هؤلاء دينهم ، فقتلوا ، فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم ، كما يأتى ، فلا تجوز الإقامة تحت حكم الكفر مع الاستطاعة ، بل تجب الهجرة ، ولا عذر فى المقام ، وإن منعه مانع فلا يكون راضيا بحاله مطمئن النفس بذلك ، وإلا عمّه البلاء ، كما وقع لأهل الأندلس ، حتى صار أولادهم كفارا والعياذ بالله ، وكذلك لا تجوز الإقامة فى موضع تغلب فيه المعاصي وترك الدين.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٥٠

قال البيضاوي : فى الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن فيه الرجل من إقامة دينه ، وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «من فرّ بدينه من أرض ، ولو كان شبرا من الأرض ، استوجب الجنة ، وكان رفيق إبراهيم ومحمد – عليهما الصلاة والسلام». «١» قلت : ويدخل فيه – على طريق

الخصوص – من فرّ من موضع تكثر فيه الشهوات والعوائد ، أو تكثر فيه العلائق والشواغل ، إلى موضع يقلّ فيه ذلك ، طلبا لصفاء قلبه ومعرفة ربه ، بل هو أولى ، ويكون رفيقا لهما فى حضرة القدس عند مليك مقتدر. والله تعالى أعلم.

ثم استثنى من تحقّق إسلامه وحبسه العذر ، فقال : إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ أي : المماليك والصبيان ، وفيه إشعار بأنهم على صدد وجوب الهجرة ، فإنهم إذا بلغوا وقدروا على الهجرة ، فلا محيص عنها ، وأن قومهم يجب أن يهاجروا بهم متى أمكنت الهجرة. قال ابن عباس – رضى الله عنهما – : «كنت أنا وأبى وأمي ممن استثنى الله بهذه الآية».

ثم وصفهم بقوله : لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً أي : قوة على ما يتوقف عليه السفر ، من ركوب أو غيره ، وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا أي : لا يعرفون طريقا ، ولا يجدون دليلا ، فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ. وعبّر بحرف الرجاء إيذانا بأنّ ترك الهجرة أمر خطير ، حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن ، ويترصد الفرصة ، ويعلّق بها قلبه ، وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً فيعفو ويغفر لمن غلبه العذر. وبالله التوفيق.

الإشارة : كل من لم يتغلغل فى علم الباطن ، مات ظالما لنفسه ، أي : باخسا لها لما فوّتها من لذيذ الشهود ، ومعرفة الملك المعبود ، ولا يخلو باطنه من الإصرار على أمراض القلوب ، التي هى من أكبر الذنوب ، فإذا توفته الملائكة على هذه الحالة ، قالت له : فيم كنت حتّى لم تهاجر إلى من يطهرك من العيوب ، ويوصلك إلى حضرة علام الغيوب؟ فيقول : كنت من المستضعفين فى علم اليقين ، ولم أقدر على صحبة أهل عين اليقين وحق اليقين حبسنى عنهم حبّ الأوطان ، ومرافقة النساء والولدان. فيقال له : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجر فيها إلى من يخلصك من الحجاب ، وينفى عنك الشك والارتياب؟ فلا جرم أن مأواه سجن الأكوان ، وحرمان الشهود والعيان ، إلّا من أقر بوجود ضعفه ، واضطر إلى مولاه فى تخليصه من نفسه ، فعسى ربه أن يعطف عليه ، فيوصله إلى عارف من أوليائه ، حتى يلتحق بأحبابه وأصفيائه. وما ذلك على الله بعزيز.

ثم رغّب فى الهجرة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٠٠]

وَمَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٠٠)

---

(١) أخرجه الثعلبي فى التفسير من حديث الحسن مرسلا. انظر الفتح السماوي ٢/ ٥١٥.

قلت : المراغم : المهرب والمذهب. قاله فى القاموس. وقال البيضاوي : يجد متحولا ، من الرغام وهو التراب.

وقيل : طريقا يراغم قومه بسلوكه فيها ، أي : يفارقهم على رغم أنوفهم ، وهو أيضا من الرغام.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإعلاء كلمة الله وإقامة دينه ، يَجِدْ فِي الْأَرْضِ فضاء كثيرا ، ومتحولا كبيرا يتحول إليه ، وسعة بدلا من ضيق ما كان فيه ، من قهر العدو ومنعه من إظهار دينه ، أو سعة فى الرزق ، وبسطا فى المعيشة ، فلا عذر له فى المقام فى مكان مضيّق عليه فيه فى أمر دينه ، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وجهاد فى سبيله ، ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ قبل وصوله فقد ثبت أجره ، ووجب على الله – وجوب امتنان – أن يبلغه قصده بعد موته ، وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً لما سلف له من عدم المبادرة ، رَحِيماً به ، حيث بلّغه مأموله.

نزلت فى جندع بن ضمرة ، وكان شيخا كبيرا مريضا ، فلما سمع ما نزل فى شأن الهجرة قال : والله ما أنا ممن استثنى الله ، ولى مال يبلغنى المدينة ، والله لا أبيت الليلة بمكة ، اخرجوا بي ، فخرجوا به على سريره حتى أتوا به التنعيم ، فأدركه الموت بها ، فصفّق بيمينه على شماله ، وقال : اللهم هذه لك وهذه لرسولك ، أبايعك على ما بايعك عليه رسولك ، فمات حميدا. فقال الصحابة : لو وافى المدينة ، كان أتم أجرا ، وضحك المشركون ، وقالوا : ما أدرك ما طلب. فنزلت : وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ .. إلخ.

وقيل : نزلت فى خالد بن حزام ، فإنه هاجر إلى أرض الحبشة ، فنهشته حيّة فى الطريق ، فمات قبل أن يصل. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ومن يهاجر من وطن حظوظه وهواه ، طلبا للوصول إلى حضرة مولاه ، يجد فى أرض نفسه متسعا للعلوم ، ومفتاحا لمخازن الفهوم ، وسعة الفضاء والشهود ، حتى ينطوى فى عين بصيرته كلّ موجود ، ويتحقق بشهود واجب الوجود. ومن يخرج من بيت نفسه وسجن هيكله إلى طلب الوصول إلى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت قبل التمكين ، فقد وقع أجره على الله ، وبلّغه الله ما كان قصده وتمنّاه ، فيحشر مع الصديقين أهل الرسوخ والتمكين ، التي تلى درجتهم درجة النبيين ، وكذلك من مات فى طلب العلم الظاهر ولم يدركه فى حياته ، حشر مع العلماء ، قال عليه الصلاة والسلام : «من جاءه أجله وهو يطلب العلم لم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة واحدة». قلت :

وهذه الدرجة التي بينه وبين النبوة هى درجة الصديقين المتقدمة قبله.

وكل من مات فى طلب شيء من الخير ، أدركه بعد موته بحسن نيته ، كما فى الأحاديث النبوية ، قال القشيري : المهاجر فى الحقيقة ، من هاجر نفسه وهواه ، ولا يصح ذلك إلا بانسلاخه عن جميع مراداته وقصوده ،

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٥٢

فمن قصده – أي قصد الحق تعالى – ثم أدركه الأجل قبل وصوله ، فلا ينزل إلا بساحات وصله ، ولا يكون محط رفقته إلا مكان قربه. هـ. وفى بعض الآثار : الهجرة هجرتان : هجرة صغرى ، وهجرة كبرى ، فالصغرى : انتقال الأجسام من وطن غير مرضى إلى وطن مرضى ، والكبرى : انتقال النفوس من مألوفاتها وحظوظها إلى معرفة ربها وحقوقها. هـ.

ثم ذكر ما يتعلق بالسفر من قصر وغيره ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٠١]

وَإِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكافِرِينَ كانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً (١٠١)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ، أي : سافرتم للجهاد أو غيره من السفر المباح ، أو المطلوب ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ الرباعية إلى ركعتين ، ونفى الجناح يقتضى أنها رخصة ، وبه قال الشافعي ، ويؤيده أنه – عليه الصلاة والسلام – أتم فى السفر ، وأن عائشة – رضى اللّه عنها – قالت :

يا رسول الله قصرت وأتممت ، وصمت وأفطرت؟ فقال : «أحسنت «١» يا عائشة». وأوجبه أبو حنيفة لقول عمر رضي اللّه عنه : (السفر ركعتان تمام غير قصر ، على لسان نبيكم). ولقول عائشة : (أول ما فرضت الصلاة ركعتان ، فأقرت صلاة السفر ، وزيدت فى الحضر).

وقال مالك رضي اللّه عنه : القصر سنة لكونه – عليه الصلاة والسلام – دام عليه فى كل سفر ، ولم يتم إلا مرّة لبيان الجواز.

وقوله تعالى : إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ظاهره أن الخوف شرط فى القصر ، وبه قالت عائشة وعثمان – رضى اللّه عنهما – ، والجمهور على عدم شرطه ، وإنما ذكره الحق – تعالى – لكونه غالبا فى ذلك الوقت ، فلا يعتبر مفهومه ، أو يؤخذ القصر فى الأمن من السّنة. ويؤيد هذا حديث يعلى بن أمية ، قلت لعمر بن الخطاب : إن الله يقول : إِنْ خِفْتُمْ ، وقد أمن الناس؟. فقال : عجبت مما تعجبت منه. فسألت رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم فقال : «صدقة تصدّق بها الله عليكم ، فاقبلوا صدقته». وقد ثبت أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قصر الصلاة وهو آمن.

وليس فى الآية ما يدل على تحديد المسافة التي تقصر فيها الصلاة ، بل ذكر مطلق السفر ، ولذلك أجاز الظاهرية القصر فى كل سفر ، طال أو قصر. ومذهب مالك والشافعي : أن المسافة أربعة برد ، واحتجوا بآثار عن ابن عمر وابن عباس. وقال أبو حنيفة : ستة برد ، وكذلك لم يقيد الحقّ السفر بمباح ولا غيره ، ولذلك أجاز أبو حنيفة القصر

(١) فى الأصول : سننت.

(٥٥٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٥٣

فى كل سفر. ومنعه مالك فى سفر المعصية. ومنعه ابن حنبل فى المعصية والمباح. والمراد بالفتنة فى قوله : إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ : الجهاد والتعرض لما يكره ، وعداوة الكفار معلومة.

الإشارة : وإذا ضربتم فى ميادين النفوس ، وتحقق سيركم إلى حضرة القدوس ، فلا جناح عليكم أن تقتصروا على المهم من الصلاة الحسية ، وتدوموا على الصلاة القلبية ، التي هى العكوف فى الحضرة القدسية ، إن خفتم أن تشغلكم عن الشهود حلاوة المعاملة الحسية. قال بعض العارفين : اتقوا حلاوة المعاملة ، فإنها سموم قاتلة. وكذلك قال القطب ابن مشيش فى المقامات كالرضا ، والتسليم : أخاف أن تشغلنى حلاوتها عن الله. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر صلاة الخوف ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٠٢]

وَإِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرائِكُمْ وَلْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (١٠٢)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا كُنْتَ فِيهِمْ أيها الرسول فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ ، أي : صلاة الخوف ، وكذلك الأمراء النائبون عنه ، فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ، وطائفة تقف وجاه العدو للحراسة ، وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ أي : المصلون معك ، فَإِذا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا أي : الطائفة الحارسة مِنْ وَرائِكُمْ ، فإذا صلّت نصف الصلاة مع الإمام ، قضت فى صلبه ما بقي لها وذهبت تحرس.

وَلْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ النصف الباقي ، فإذا سلمت ، قضوا ما بقي لهم ، فإذا كانت ثنائية : صلّى بالأولى ركعة ، وثبت قائما ساكتا أو قارئا ، ثم تصلى من صلت معه ركعة وتسلم ، وتأتى الثانية فتكبر ، فيصلى بها ركعة ويسلم وتقضى ركعة. وإذا كانت رباعية ، أو ثلاثية صلى بالأولى ركعتين ، ثم تقوم الأولى فتصلى ما بقي لها وتسلم وتأتى الثانية فتكبر وتصلى معه ما بقي له ، ثم تقضى ما بقي لها. هكذا قاله مالك والشافعي.

وقال أبو حنيفة : يصلى بالأولى ركعة ، ثم تتأخر وهى فى الصلاة ، وتأتى الثانية فيصلى بها ركعة ، فإذا

سلّم ذهبت مكان الأولى قبل سلامها ، فتأتى الأولى فتصلى ركعة ثم تسلّم ، وتأتى الثانية فتصلى ركعة ثم تسلّم. وفى

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٥٤

صلاة الخوف عشرة أقوال على حسب الأحاديث النبوية ، لأنها تعدّدت منه صلّى اللّه عليه وسلم ، فكل واحد أخذ بحديث ، وما قاله مالك والشافعي هو الذي فعله – عليه الصلاة والسلام – فى غزوة ذات الرقاع.

ثم أمر الطائفة الحارسة بأخذ السلاح ، والحذر من العدو فقال : وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، ثم ذكر علّة الحذر فقال : وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً أي : تمنوا أن ينالوا منكم غرة ، فيشدون عليكم شدة واحدة فيستأصلونكم.

روى أن المشركين لما رأوا المسلمين صلوا صلاة الظهر ندموا أن لو كانوا أغاروا عليهم فى الصلاة ، ثم قالوا :

دعوهم فإن لهم صلاة هى إليهم أحب من آبائهم وأبنائهم – يعنون صلاة العصر – ، فلما قام النبي – عليه الصلاة والسلام – لصلاة العصر نزل جبريل بصلاة الخوف.

ثم رخّص لهم فى وضع السلاح ، لعذر فقال : وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أي : لا إثم إِنْ كانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ منهم بالحراسة. روى أنها نزلت فى عبد الرحمن بن عوف ، مرض فوضع سلاحه ، فعنّفه أصحابه ، فنزلت الآية.

ثم هوّن شأن الكفار بعد أن أمر بالحذر منهم فقال : إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً فى الدنيا والآخرة.

قال البيضاوي : وعد المؤمنين بالنصرة على الكفار ، بعد الأمر بالحذر ، ليقوى قلوبهم ، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لضعفهم وغلبة عدوهم ، بل إن الواجب أن يحافظوا فى الأمور على مراسم التيقظ والتدبير. هـ.

الإشارة : إذا كنت فى جند الأنوار ، وأحدقت بك حضرة الأسرار ، ثم نزلت إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فلتقم طائفة من تلك الأنوار معك ، لتحرسك من جيش الأغيار وجند الأكدار ، حتى يكون رجوعك إلى الآثار مصحوبا بكسوة الأنوار وحلية الاستبصار ، فيكون رجوعك إليها بالله لا بنفسك ، فإذا سجد القلب فى الحضرة كانت تلك الأنوار من ورائه والأسرار من أمامه ، وَاللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ ، ولتأت طائفة أخرى لم تصل هذه الصلاة لأنها لم تبلغ هذا المقام ، فلتصل معك

اقتباسا لأنوارك ، لكن تأخذ حذرها وتستعد من خواطر الأشغال ، كى لا تميل عليهم فتفتنهم عن الحضور مع الكبير المتعال ، فإن كان مريض القلب بالهوى وسائر العلل ، فلا يكلف من الحضور إلا ما يطيقه ، لأن القط لا يكلف بحمل الجمل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ما يعين على الحضور ، ويتحصن به من العدو الكفور وهو ذكر الله ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٠٣]

فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً (١٠٣)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٥٥

يقول الحق جل جلاله : فإذا فرغتم من الصلاة فَاذْكُرُوا اللَّهَ فى جميع أحوالكم قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِكُمْ إن أردتم حراسة قلوبكم ، والنصر على عدوكم ، أو إذا أردتم قضاء الصلوات وأداء فرضها ، وأنتم فى المعركة ، فصلوا كما أمكنكم ، قِياماً راجلين أو على خيولكم إيماء ، وحلّ للضرورة حينئذ مشى وركض وطعن وعدم توجه ، وإمساك ملطخ ، وتنبيه وتحذير ، هذا للصحيح ، وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِكُمْ ، للمريض أو الجريح ، هكذا قال جمهور الفقهاء فى صلاة المسايفة «١». وقال أبو حنيفة : لا يصلى المحارب حتى يطمئن.

فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ وذهب الخوف عنكم فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ على هيأتها المعلومة ، واحفظوا أركانها وشروطها ، وأتوا بها تامة ، إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً أي : فرضا محدود الأوقات ، لا يجوز إخراجها عن وقتها فى شىء من الأحوال. قال البيضاوي : وهذا دليل على أن المراد بالذكر الصلاة ، وأنها واجبة الأداء ، حال المسايفة ، والاضطراب فى المعركة ، وتعليل للأمر بالإتيان بها ، كيف أمكن. الإشارة : إذا فرغتم من الصلاة الحسية ، فاستغرقوا أحواكم فى الصلاة القلبية ، حتى تطمئن قلوبكم فى الحضرة القدسية ، فإذا اطمأننتم فى الحضرة ، فأقيموا صلاة الشهود والنظرة ، وهى الصلاة الدائمة ، قال تعالى : الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ. وقال الورتجبي : إذا كنتم فى حالة التمكين وامتلأتم من أنوار ذكره ، فينبغى أن تخرجوا من أبواب الرخص ، والاستراحة فى سعة الروح ، وترجعوا إلى مقام الصلاة ، فإن آخر سيركم فى ربوبيتى : أول بدايتكم فى عبوديتى. هـ.

ثم حذرهم من الوهن فى أمر الجهاد ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٠٤]

وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ وَكانَ

اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٠٤)

قلت : الوهن : الفشل والضعف.

يقول الحق جل جلاله : ولا تضعفوا فى طلب الْقَوْمِ ، أي : الكفار ، فتجاهدوهم فى سبيل الله ، فإن الحرب دائرة بينهم وبينكم ، قد أصابهم مثل ما أصابكم ، فإن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ ، أي : تتوجعون من الجراح ، فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ ، وأنتم ترجون من الله النصر والعز فى الدنيا ، والدرجات العلا فى الآخرة ، وهم لا يرجون

---

(١) المسايفة : المبارزة بالسيوف.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٥٦

ذلك ، فحقكم أن تكونوا أصبر وأرغب فى الجهاد منهم ، وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً بأعمالكم وضمائركم ، حَكِيماً فيما يأمركم به وينهاكم.

الإشارة : لا تهنوا عن طلب الظفر بنفوسكم ، ولا تفشلوا عن السير إلى حضرة ربكم ، فإن كنتم تألمون حال محاربتها ومخالفة شهواتها ، فإنها تألم مثلكم ، ما دامت لم ترتض فى حضرة ربكم ، فإذا ارتاضت وتحلت صار المر عندها حلوا ، وذلك إنما يكون بعد موتها وحياتها ، فدوموا على سياستها ورياضتها ، فإنكم ترجون من الله الوصول ، وبلوغ المأمول ، وهى ترجو الرجوع إلى المألوفات وركوب العادات ، فاعكسوا مراداتها ، حتى تطمئن فى حضرة ربها ، فتأمن غوائلها ، فليس بعد الوصول رجوع ، ولا إلى العوائد نزوع ، والله غالب على أمره.

ثم ذكر ما يتعلق بحفظ اللسان ، وهو الأمر الخامس من مضمون السورة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٠٥ الى ١٠٩]

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٠٦) وَلا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أَثِيماً (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ وَكانَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (١٠٨) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩)

قلت : أرى ، هنا عرفانية ، لا علمية ، فلذلك لم تتعد إلى ثلاثة.

يقول الحق جل جلاله لنبيه – عليه الصلاة والسلام – حين همّ أن يخاصم عن طعمة بن أبيرق ، وذلك

أنه سرق درعا من جاره قتادة بن النعمان ، فى جراب دقيق ، فجعل الدقيق يسقط من خرق فيه ، وخبّأها عند يهودى ، فالتمس الدرع عند طعمة ، فلم توجد ، وحلف ما أخذها ، وما له بها علم ، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها ، فقال اليهودي : دفعها إلىّ طعمة ، وشهد له ناس من اليهود ، فقال رهط طعمة من بنى ظفر : انطلقوا بنا إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم فنسأله أن يجادل عن صاحبنا ، وقالوا : إن لم يفعل هلك وافتضح ، وبرئ اليهودي ، فهمّ رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم اعتمادا على ظاهر الأمر ، ولم يكن له علم بالواقعة ، فنزلت الآية :

(١/٥٥٦)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٥٧

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ أي : ملتبسا بالحق لِتَحْكُمَ بما فيه من الحق بَيْنَ النَّاسِ بسبب ما أَراكَ أي : عرّفك اللَّهُ بالوحى ، أو بالاجتهاد ، ففيه دليل على إثبات القياس ، وبه قال الجمهور. وفى اجتهاد الأنبياء خلاف. وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً أي : عنهم للبرآء ، أو لأجلهم والذّبّ عنهم.

وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ مما هممت به ، إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً ، وفيه دليل على منع الوكالة عن الذمي ، وبه قال ابن شعبان. وقال ابن عات : لعله أراد الندب. وقال مالك بن دينار : كفى بالمرء خيانة أن يكون أمينا للخونة.

والوكالة من الأمانة ، والمصطفى – عليه الصلاة والسلام – لم يقصد شيئا من ذلك ، ولا علم له بالواقعة ، لو لا أطلعه تعالى ، فلا نقص فى اهتمامه ، ولا درك «١» يلحقه. وبالجملة ، فالآية خرجت مخرج التعريف بحقيقة الأمر فى النازلة.

ثم نهاه عن الذب عنهم ، فقال : وَلا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ

وهم رهط ابن أبيرق السارق ، قال السهيلي : هم بشر وبشير ومبشر وأسير ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً

أي : كثير الخيانة ، أَثِيماً

أي :

مصرا عليها ، روى أن طعمة هرب إلى مكة ، وارتدّ ، ونقب حائطا بها ليسرق أهله ، فسقط الحائط عليه فقتله.

ويستفاد من الآية امتناع الجدال عمن علمت خيانته بالأحرى ، أو كان مظنة الخيانة ، كالكافر ونحوه. وكذا قال ابن العربي فى أحكام القرآن فى هذه الآية : إن النيابة عن المبطل المتهم فى الخصومة لا تجوز ، بدليل الآية. هـ.

ثم فضح سرهم ، فقال : يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ

أي : يستترون منهم ، وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ

وهو أحق أن يستحيا منه ويخاف وَهُوَ مَعَهُمْ

لا يخفى عليه شيء ، فلا طريق للنجاة إلا ترك ما يستقبح ، ويؤاخذ عليه سرا وجهرا. إِذْ يُبَيِّتُونَ

أي : يدبرون ويزوّرون ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ

من رمى البريء ، والحلف الكاذب ، وشهادة الزور ، وَكانَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً

لا يفوته شيء ، ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا

ودفعتم عنهم المعرة ، فَمَنْ يُجادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ

أي : من يدافع عنهم عذابه يَوْمَ الْقِيامَةِ ، أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا

يحميهم من عقاب الله ، حين تفضح السرائر ، ولا تنفع الأصحاب ولا العشائر.

الإشارة : فى الآية عتاب للقضاة والولاة إذا ظهرت صورة الحق بأمارات وقرائن ، ثم تجمدوا على ظاهر الشريعة ، حمية أو رشوة ، فإن القضاء جلّه فراسة ، وفيها عتاب لشيوخ التربية ، إذا ظهر لهم عيب فى المريد ستروه عليه حياء أو شفقة ، ولذلك قالوا : شيخ التربية لا تليق به الشفقة ، غير أنه لا يعيّن ، بل يذكر فى الجملة ، وصاحب العيب يفهم نفسه ، وفيها عتاب للفقراء إذا راقبوا الناس ، وأظهروا لهم ما يحبون ، وأخفوا عنهم ما لا يرضون ، لقوله –

---

(١) الدرك : التبعة.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٥٨

سبحانه – : يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ...

الآية ، بل ينبغى أن يكونوا بالعكس من هذا ، قال بعضهم : إن الذين تكرهون منى ، هو الذي يشتهيه قلبى. والله تعالى أعلم.

ثم حضّهم على التوبة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١١٠]

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً (١١٠)

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً

أي : ذنبا قبيحا يسوء به غيره ، أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ

بذنب يختص به ، أو من يعمل سوءا بذنب غير الشرك ، أو يظلم نفسه بالشرك ، أو من يعمل سوءا بالكبيرة ، أو يظلم نفسه بالصغيرة ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ

بالتوبة يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً

لذنوبه رَحِيماً

بقبول توبته ، وفيه حث لطعمة وقومه على التوبة والاستغفار.

الإشارة : ومن يعمل سوءا بالميل إلى الهوى ، أو يظلم نفسه بالالتفات إلى السوي ، أو من يعمل سوءا بالهفوات والخطرات ، أو يظلم نفسه بالغفلات والفترات ، أو من يعمل سوءا بالوقوف مع الكرامات وحلاوة الطاعات ، أو يظلم نفسه بالقناعة من الترقي فى الدرجات والمقامات ، ثم يستغفر الله من حينه يجد الله غفورا رحيما ، حيث لم يخرجه من حضرته ، ولم يتركه مع غفلته.

ثم عاتب رهط السارق على رميهم الغير بالسرقة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١١١ الى ١١٢]

وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (١١٢)

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً

كسرقة أو يمين فاجرة ، أو رمى غيره بجريمة ، فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ

لا يتعدى ضررها إلى غيره ، وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً

بسرائر عباده حَكِيماً

فى إمهالهم وسترهم ، وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً

أي : جريمة تتعدى إلى ضرر غيره ، أَوْ إِثْماً

يختص بنفسه ، ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً

منه ، كما رمى طعمة زيدا اليهودىّ ، فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً

وهو أن يبهت الرجل بما لم يفعل ، وَإِثْماً مُبِيناً

أي : ذنبا ظاهرا ، لا يخفى قبحه وبشاعته.

الإشارة : الإثم : ما حاك فى الصدر وتلجلج فيه ، ولم ينشرح إليه الصدر ، وضده البر وهو ما ينشرح إليه الصدر ويطمئن إليه القلب ، فكل من فعل شيئا قد تلجلج قلبه منه ولم يقبله نقص من نوره ، وأظلم قلبه منه ، وإليه

الإشارة بقوله : (و من يكسب إثما ..) الآية ، أي : فإنما يسوّد به نور نفسه وروحه ، ومن تلبّس بذنب أو عيب ، ثم يرم به غيره من باب سوء الظن (فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا) لأن الواجب على المريد السائر أن يشهد الصفاء من غيره ، ويقصر النقص على نفسه ، والواصل يرى الكمال فى كل شىء لمعرفته فى كل شىء. والله تعالى أعلم.

ثم شهد لرسوله بالهداية والعناية ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١١٣]

وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (١١٣)

قلت : الجارّ فى قوله : (من شى ء) ، فى موضع نصب على المصدر ، أي : لا يضرونك شيئا من الضرر.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ

بالعصمة ورحمته بالعناية ، لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ

وهم رهط السارق أَنْ يُضِلُّوكَ

عن القضاء بالحق ، مع علمهم بالقصة ، لكن سبقت العناية ، وحفت الرعاية ، فلم تخرج من عين الهداية. وليس المراد نفى همهم لأنه وقع ، إنما المراد نفى تأثيره فيه ، وَما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ لعوده عليهم ، وَما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْ ءٍ

لأن الله عصمك ، وما خطر ببالك من المجادلة عنهم ، كان اعتمادا منك على ظاهر الأمر ، وإنما أمرت أن تحكم بالظواهر ، والله يتولى السرائر.

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ

أي : القرآن ، وَالْحِكْمَةَ

ما نطقت به من الحكم ، وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ

من خفيات الأمور ، التي لم تطلع عليها ، أو من أمور الدين والأحكام ، وَكانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ولا فضل أعظم من النبوة ، لا سيما وقد فضّله على كافة الخلق وأرسله إلى كافة الناس ، وهدى اللّه على يديه ما لم يهد على يد أحد من الأنبياء قبله ، إلى غير ذلك من الفضائل التي تفوت الحصر.

الإشارة : لو لا أن الله تفضّل على أوليائه بسابق العناية ، وحفّت بهم منه الكلاءة والرعاية ، لأضلتهم العموم عن عين التحقيق ، ولأتلفتهم القواطع عن سلوك الطريق ، لكن من سبقت له العناية لا يصيبه سهم الجناية ، فثبّت أقدامهم على سير الطريق ، حتى أظهر لهم معالم التحقيق ، فكشف عن قلوبهم

رين الحجاب ، حتى فهموا أسرار الكتاب ، ونبع من قلوبهم ينابيع الحكم والأسرار ، واطلعوا على علوم لم يحط بها كتاب ولا دفتر ، فحازوا فى الدارين خيرا جسيما ، وكان فضل الله عليهم عظيما.

(٥٥٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٦٠

ولما ظهرت السرقة على طعمة ، كثر فى شأنه التناجي والخوض فيما لا يعنى ، فنهاهم الحقّ عن ذلك فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١١٤]

لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١١٤)

قلت : إن كان المراد بالنجوى الكلام الخفي فالاستثناء منقطع ، وقد يكون متصلا على حذف مضاف أي : إلا نجوى من أمر ... إلخ. وإن كان المراد بالنجوى الجماعة المتناجين ، فالاستثناء متصل. قاله ابن جزى.

يقول الحق جل جلاله محرضا على الصمت : لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مما يتناجون به فى شأن السارق أو غيره ، بل لا خير فى الكلام بأسره إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ واجبة أو تطوعية ، فله مثل أجره ، أَوْ مَعْرُوفٍ وهو : ما يستحسنه الشرع ، ويوافقه العقل ، كالقرض ، وإغاثة الملهوف ، وتعليم الجاهل ، وإرشاد الضال ، وغير ذلك من أنواع المعروف. أو أمر بإصلاح بَيْنَ النَّاسِ ، أي : إصلاح ذات البين ، كإصلاح بين طعمة واليهودي وغيرهما.

قال مجاهد : (هى عامة للناس) ، يريد أنه لا خير فيما يتناجى فيه الناس ، ويخوضون فيه من الحديث ، إلا ما كان من أعمال الخير.

وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ أي : الصدقة ، والمعروف والإصلاح ، ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ أي : مخلصا لله فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً وخيرا جسيما. قال البيضاوي : بنى الكلام على الأمر ، ورتّب الجزاء على الفعل ، ليدل على أنه لما دخل الآمر فى زمرة الخيرين كان الفاعل أدخل فيهم ، وأن العمدة والغرض هو الفعل ، واعتبار الأمر من حيث إنه وصلة إليه. وقيد الفعل بأن يكون لطلب مرضاة الله لأن الأعمال بالنيات ، وأن من فعل خيرا رياء وسمعة ، لم يستحق بها من الله أجرا ، ووصف الأجر بالعظم تنبيها على حقارة مافات فى جنبه من أغراض الدنيا. هـ.

الإشارة : فى الآية حث على الصمت ، وهو ركن قوى فى طريق التصوف ، وهو أحد الأركان الأربعة التي هى : العزلة والجوع والسهر ، فهذه طريق أهل البداية ، ومن لا بداية له لا نهاية له ، وقالوا : بقدر

ما يصمت اللسان يعمر الجنان ، وبقدر ما كان يتكلم اللسان يخرب الجنان. وقالوا أيضا : إذا كثر العلم قلّ الكلام ، وإذا قل العلم كثر الكلام. وقالوا أيضا : من عرف اللّه كلّ لسانه. وقيل لبعض العلماء : هل العلم فيما سلف أكثر ، أو اليوم أكثر؟ قال :

العلم فيما سلف أكثر ، والكلام اليوم أكثر.

وفى قوله : وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ .. إشارة إلى أن العمل أشرف من العلم بلا عمل. والله تعالى أعلم.

(١/٥٦٠)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٦١

ثم نزل فى شأن طعمة ، لما هرب وارتد مشركا :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١١٥ الى ١١٦]

وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (١١٦)

قلت : المشاقة : المخالفة والمباعدة ، كأن كل واحد من المتخالفين فى شقّ غير شقّ الآخر.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يخالف الرَّسُولَ ويتباعد عنه مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى أي : بعد ما تحقق أنه على الهدى بالوقوف على المعجزات ، فيترك طريق الحق وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ أي : يسلك غير ما هم عليه ، من اعتقاد أو عمل. نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى أي : نتركه مع ما تولى ، ونجعله وليا له ، ونخلّى بينه وبين ما اختاره من الضلالة ، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ أي : ندخله فيها ، ونشويه بها ، وَساءَتْ مَصِيراً أي : قبحت مصيرا جهنم التي يصير إليها. والآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع ، لأن الله رتّب الوعيد الشديد على مشاقة الرسول ، واتباع غير سبيل المؤمنين ، وكل منهما محرم ، وإذا كان اتباع غير سبيلهم محرما كان اتباع سبيلهم واجبا ، انظر البيضاوي.

ثم نزل فى طعمة لما ارتد مشركا : إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وقيل : كرر للتأكيد تقبيحا لشأن الشرك ، وقيل : أتى شيخ إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم فقال : إنى شيخ منهمك فى الذنوب إلا أنى لم أشرك باللّه شيئا منذ عرفته وآمنت به ، ولم أتخذ من دونه وليا ، ولم أوقع المعاصي جرأة ، وما توهمت طرفة عين أنى أعجز الله هربا ، وإنى لنادم تائب ، فما ترى حالى عند الله؟ فنزلت. وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ ، فَقَدْ ضَلَّ عن الحق ضَلالًا بَعِيداً لأن الشرك أقبح أنواع الضلالة ، وأبعدها عن الثواب والاستقامة ، وإنما ذكر فى الآية الأولى. فَقَدِ افْتَرى لأنها متصلة بقصة أهل الكتاب ، ومنشأ شركهم نوع افتراء ، وهو دعوى الشيء على اللّه.

قاله البيضاوي.

الإشارة : كل من خالف شيخه ، وسلك طريقا غير طريقه ولاه الله ما تولى ، واستدرجه من حيث لا يشعر ، وقد تؤخر العقوبة عنه فيقول : لو كان هذا فيه سوء أدب مع الله ، لقطع الإمداد وأوجب البعاد ، وقد يقطع عنه من حيث لا يشعر ، ولو لم يكن إلا وتخليته وما يريد. وبالجملة : فالخروج عن مشايخ التربية والانتقال عنهم ، ولو إلى من هو أكمل فى زعمه ، بعد ما ظهر له الفتح والهداية على يديه طرد وبعد ، وإفساد لبذرة الإرادة ، فلا نتيجة له أصلا. والله تعالى أعلم. وبالله التوفيق.

(٥٦١/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٦٢

ثم قبّح شأن الشرك ، وشنّع قبحه ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١١٧ الى ١٢١]

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِناثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطاناً مَرِيداً (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢٠) أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً (١٢١)

قلت : المريد والمارد هو الذي لا يعلق بخير ، وأصل التركيب للملابسة ، ومنه : صرح ممرّد ، وغلام أمرد ، وشجرة مردى ، أي : سقط ورقها. قاله البيضاوي. هـ. وقيل : المريد : الشديد العاتي ، الخارج عن الطاعة.

يقول الحق جل جلاله : إِنْ يَدْعُونَ : ما يعبدون مِنْ دُونِهِ تعالى إِلَّا إِناثاً ، كاللات والعزى ومناة ، فإن ألفاظها مؤنثة عندهم ، أو لأنها جوامد لا تعقل ، فهى منفعلة لا فاعلة ، ومن حق المعبود إن يكون فاعلا غير منفعل ، أو يريد الملائكة لأنهم كانوا يعبدونها ، ويزعمون أنها بنات الله ، وما يعبدون فى الحقيقة إِلَّا شَيْطاناً مَرِيداً عاصيا ، لأنه هو الذي أمرهم بها ، وأغراهم عليها ، وكان يكلمهم من أجوافها.

ثم وصفه بأوصاف توجب التنفير عنه فقال : لَعَنَهُ اللَّهُ أي : أبعده من رحمته ، وَقالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً أي : مقطوعا فرضته لنفسى ، من قولهم : فرض له فى العطاء ، أي : قطع ، وَلَأُضِلَّنَّهُمْ عن الحق وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ الأمانى الباطلة ، كطول الحياة ، وألّا بعث ولا عقاب ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ أي : يشقونها لتحريم ما أحل الله ، وهى عبارة عما كانت العرب تفعل بالبحائر والسوائب ، وإشارة إلى تحريم كل ما أحل الله ، ونقص كل ما خلق الله كاملا بالفعل أو بالقوة ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ

خَلْقَ اللَّهِ ، صورة ، أو صفة ، فيندرج فيه خصاء العبيد والوشم ، والتنمص – وهو نتف الحاجب – . زاد البيضاوي : واللواط ، والمساحقه ، وعبادة الشمس والقمر ، وتغيير فطرة الله التي هى الإسلام ، واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمالا ولا يوجب لها من الله زلفى. وعموم اللفظ يقتضى منع الخصاء مطلقا ، لكن الفقهاء رخصوا فى خصاء البهائم للحاجة ، والجمل الأربع حكاية عما ذكره الشيطان نطقا ، أو أتاه فعلا. هـ.

(٥٦٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٦٣

ثم حذّر منه فقال : وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ باتباعه فيما أمره به دون ما أمر الله به ، فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً واضحا حيث ضيع رأس ماله ، وأبدل بمكانه من الجنة مكانه من النار. يَعِدُهُمْ أي : الشيطان ، أمورا لا تنجز لهم ، وَيُمَنِّيهِمْ أمانى لا تعطى لهم ، وَما يَعِدُهُمُ أي : الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً ، وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر ، فكان يوسوس لهم أنهم على الحق وأنهم أولى بالجنة ، إلى غير ذلك من أنواع الغرور ، أُولئِكَ المغرورون مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ أي : هى منزلهم ومقامهم ، وَلا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً أي : مهربا ولا معدلا. من حاص يحيص : إذا عدل.

الإشارة : ما أحببت شيئا إلا كنت له عبدا ، فاحذر أن تكون ممن يعبد من دون الله إناثا ، إن كنت تحب نفسك ، وتؤثر هواها على حق مولاها ، أو تكون عبد المرأة أو الخميصة «١» أو البهيمة ، أو غير ذلك من الشهوات التي أنت تحبها ، واحذر أيضا أن تكون من نصيب الشيطان بإيحاشك إلى الكريم المنان ، وفى الحكم :

«إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك ، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده». فاشتغل بمحبة الحبيب ، يكفيك عداوة العدو ، فاتخذ الله وليا وصاحبا ، ودع الشيطان جانبا ، غب عن الشيطان باستغراقك فى حضرة العيان.

وبالله التوفيق.

ثم ذكر ضد أهل الشرك ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٢٢]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢)

قلت : (وعد الله) مصدر ، مؤكد لنفسه ، أي : وعدهم وعدا ، و(حقا) مؤكد لغيره ، أي : لمضمون الجملة قبله.

انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ آمَنُوا بالله ووحدوه ، وَعَمِلُوا الأعمال الصَّالِحاتِ التي كلفوا بها سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وعدهم بذلك وعدا حقا ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا أي : لا أحد أصدق من الله فى قوله. والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقرنائه ، بوعد الله الصادق لأوليائه ، ترغيبا فى تحصيل أسبابه. والله تعالى أعلم.

---

(١) الخميصة : ثوب خز ، أو صوف.

(٥٦٣/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٦٤

الإشارة : والذين جمعوا بين توحيد عظمة الربوبية والقيام بوظائف العبودية سندخلهم جنة المعارف ، تجرى من تحتها أنهار العلوم ، خالدين فيها أبدا ، وعدا حقا وقولا صدقا. ومن أصدق من الله قيلا؟ وهذا الوعد لا ينال بالأمانى مع البطالة والتواني وإنما ينال بالأعمال الصالحة والمقاصد الخالصة ، كما قال تعالى :

[سورة النساء (٤) : آية ١٢٣]

لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (١٢٣)

قلت : اسم ليس ضمير الأمر ، أي : ليس الأمر بأمانيكم.

يقول الحق جل جلاله : لَيْسَ هذا الوعد الذي ذكرت لأهل الإيمان ينال بِأَمانِيِّكُمْ أي : تمنيكم أيها المسلمون ، ولا بأمانى أَهْلِ الْكِتابِ ، أي : لا يكون ما تتمنون ولا ما يتمنى أهل الكتاب ، بل يحكم الله بين عباده ويجازيهم بأعمالهم. روى أن المسلمين وأهل الكتاب تفاخروا ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : نحن أولى منكم ، نبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضى على الكتب المتقدمة ، فنزلت. وقيل : الخطاب مع المشركين ، وهو قولهم : لا جنة ولا نار ، أو قولهم : إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيرا منهم وأحسن حالا. وأمانى أهل الكتاب : قولهم لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ ولَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى ثم قرر ذلك فقال : مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ عاجلا أو آجلا لما روى أنه لما نزلت قال أبو بكر : من ينجو مع هذا يا رسول الله ، إن كنا مجزيين بكل سوء عملناه؟ فقال له – عليه الصلاة والسلام – : «أما تحزن؟

أما تمرض؟ أما يصيبك اللأواء؟ «١» قال : بلى يا رسول الله ، قال : هو ذلك». فكل من عمل سوءا جوزى به ، وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا يليه ويدفع عنه ، وَلا نَصِيراً ينصره ويمنعه من عذاب الله.

الإشارة : لا تنال المراتب بالأمانى الكاذبة والدعاوى الفارغة ، وإنما تنال بالهمم العالية ، والمجاهدات القوية ، إنما تنال المقامات العالية بالأعمال الصالحة ، والأحوال الصافية ، وأنشدوا :

---

(١) اللأواء : الشدة وضيق العيش.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٦٥

بقدر الكدّ تكتسب المعالي من أراد العز سهر الليالى

تريد العزّ ثم تنام ليلا يغوص البحر من طلب اللآلى

ولما نزل قوله تعالى : لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ ... الآية. قال أهل الكتاب : نحن وأنتم سواء ، فأنزل الله تعالى :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٢٤ الى ١٢٦]

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥) وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً (١٢٦)

قلت : (من ذكر أو أنثى) : حال من الضمير فى (يعمل) ، وكذا قوله : وَهُوَ مُؤْمِنٌ و(حنيفا) ، حال من (إبراهيم) لأنه جزء ما أضيف إليه.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يَعْمَلْ شيئا مَنْ الأعمال الصَّالِحاتِ وهو المهم من المكلف به ، إذ لا طاقة للبشر على الإتيان بكلها. حال كون العامل مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى إذ النساء شقائق الرجال فى طلب الأعمال ، والحالة أن العامل مُؤْمِنٌ لأن الإيمان شرط فى قبول الأعمال ، فلا ثواب على عمل ليس معه إيمان.

ثم ذكر الجواب فقال : فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ أي : يتصفون بالدخول ، أو يدخلهم الله الجنة ، وَلا يُظْلَمُونَ أي : لا ينقصون من ثواب أعمالهم نَقِيراً أي : مقداره ، وهو النقرة فى ظهر النواة. قال البيضاوي : وإذا لم ينقص ثواب المطيع فبالأحرى ألا يزيد فى عقاب العاصي ، لأن المجازى أرحم الراحمين. هـ.

وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ أي : لا أحد أحسن دينا ممن انقاد بكليته إلى مولاه وَهُوَ مُحْسِنٌ

أي : موحّد أحسن فيما بينه وبين الله ، وفيما بينه وبين عباد الله ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً بأن دخل فى الدين المحمدي الذي هو موافق لملة إبراهيم بل هو عينه ، فمن ادعى أنه على ملة إبراهيم ولم يدخل فيه فقد كذب.

ثم ذكر ما يحث على اتباع ملته ، فقال : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا أي : اصطفاه وخصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله ، وإنما أعاد ذكره ولم يضمر تفخيما له وتنصيصا على أنه الممدوح ، وسمى خليلا لأنه قد تخللت محبة الله فى جميع أجزائه.

(٥٦٥/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٦٦

روى أن إبراهيم عليه السّلام كان يضيف الناس ، حتى كان يسمى أبا الضيفان ، وكان منزله على ظهر الطريق ، فأصاب الناس سنة ، جهدوا فيها ، فحشد الناس إلى باب إبراهيم ، يطلبون الطعام ، وكانت الميرة كل سنة تصله من صديق له بمصر ، فبعث غلمانه بالإبل إلى الخليل الذي له بمصر يسأله الميرة ، فقال لغلمانه : لو كان إبراهيم يريد لنفسه احتملت له ذلك ، ولكنه يريد للأضياف ، وقد أصابنا ما أصاب الناس ، فرجع الرسل إليه ، ومرّوا ببطحاء لينة ، فملأوا منها الغرائر حياء من الناس ، وأتوا إبراهيم فأخبروه ، فاهتم إبراهيم لمكان الناس ببابه ، فنام ، وكانت سارة نائمة فاستيقظت ، وقالت : سبحان الله! أما جاء الغلمان؟ فقالوا : بلى ، فقامت إلى الغرائر فإذا فيها أجود الحوّارى – أي : الخالص من الدقيق – فخبزوا وأطعموا؟ فاستيقظ إبراهيم ، وشم رائحة الخبز ، فقال : يا سارة ، من أين هذا؟

فقالت : من عند خليلك المصري ، فقال : هذا من عند خليلى الله – عز وجل – ، فحينئذ سماه الله خليلا «١».

قال الزجاج : ومعنى الخليل : الذي ليس فى محبته خلل ، أو لأنه ردّ خلته ، أي : فقره إلى الله مخلصا. هـ.

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ملكا وخلقا وعبيدا ، فالملك له ، والعبيد عبيده ، يختار ما يشاء كما يشاء من خلة ومحبة وخدمة ، وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً علما وقدرة ، فيجازى كلّا على قدر سعيه وقصده. والله تعالى أعلم.

الإشارة : على قدر المجاهدة والمكابدة تكون المعاينة والمشاهدة ، على قدر البدايات تكون النهايات ، من أشرقت بدايته أشرقت نهايته ، والجزاء على العمل يكون على قدر الهمم ، فمن عمل لجنة الزخارف متع بها ، ومن عمل لجنة المعارف تنعم بها ، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ، فمن انقاد بكليته إلى

مولاه فلا أحد أحسن منه عند الله ، ومن تمسك بالملة الحنيفية ، وهى الانقطاع إلى الله بالكلية – فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وكان فى أعلى ذروة أهل التقى ، من تخلق بخلق الحبيب كان أقرب إلى الله من كل قريب. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ومما يتعلق بحفظ اللسان الفتوى بما يطابق الحق ، ولذلك ذكره بعد الأمر بالحكم بالعدل ، وما بينهما اعتراض انجرّ الكلام إليه ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٢٧]

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ فِي يَتامَى النِّساءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بِالْقِسْطِ وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِهِ عَلِيماً (١٢٧)

---

(١) قال ابن كثير : فى صحة هذا ووقوعه نظر. وغايته أن يكون خبرا اسرائيلى ، لا يصدق ولا يكذب ، وإنما سمى خليل الله لشدة محبته لربه – عز وجل – مما قام له به من الطاعة ، التي يحبها ويرضاها.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٦٧

قلت : و(ما يتلى) : عطف على (الله) ، أي : يفتيكم الله ، والمتلو عليكم فى الكتاب ، أي : فى القرآن. وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ حذف الجار ، وهو فى أو عن ، ليصدق النهى بالراغب فيها إذا كانت جميلة ، والراغب عنها إذا كانت دميمة ، والْمُسْتَضْعَفِينَ عطف على (يتامى النساء) أي : والذي يتلى فى المستضعفين من الولدان ، وهو قوله تعالى : يُوصِيكُمُ اللَّهُ ... إلخ ، أو على الضمير فى (فيهن) أي : يفتيكم فيهن وفى المستضعفين ، و(أن تقوموا) عطف على (المستضعفين) ، أو منصوب بمحذوف ، أي : ويأمركم أن تقوموا ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَيَسْتَفْتُونَكَ يا محمد فِي شأن النِّساءِ من الميراث وغيره ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ، فيأمركم أن تعطوهن حقهن من الميراث ، وَيفتيكم أيضا فيهن ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ فى أول السورة إذ قال : لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ثم بيّنه فى تقسيم الميراث فى يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ ، وقال فى اليتامى : وَآتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى ... الآية ، فقد أفتاكم فى اليتامى اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ من الصداق وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ بدون صداق مثلهن ، فأمركم أن تنكحوا غيرهن ، ولا تنكحوهن إلا أن تقسطوا لهن فى الصداق ، إذا كانت جميلة ، أو لها مال ، أو ترغبون عن نكاحهن إذا كانت دميمة ، فتعضلوهن

لترثوهن ، فلا تفعلوا ذلك ، بل تزوجوها أو زوجوها ، وكانوا فى الجاهلية ، إذا كانت اليتيمة ذات مال وجمال ، رغبوا فيها وتزوجوها بدون صداقها ، وإن كانت دميمة ولا مال لها رغبوا عنها وعضلوها ، أو زوجوها غيرهم. فنهى الله تعالى الفريقين معا.

وَيفتيكم أيضا فى الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ وهم الصغار ، أن تعطوهم حقهم من الميراث مع الكبار ، وكانوا لا يورثونهم ، روى أن عيينة بن حصن أتى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقال : أخبرنا أنك تورث النساء والصبيان ، وإنما كنا نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة؟ فقال له صلّى اللّه عليه وسلم : «كذا أمرت» ، فنزلت الآية.

وَيفتيكم أيضا ويأمركم أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بِالْقِسْطِ أي : العدل. وهو خطاب للأئمة أن ينظروا لهم بالمصلحة ويستوثقوا حقوقهم ، ويحتاطوا لهم فى أمورهم كلها. ثم وعدهم بالثواب على ذلك فقال : وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِهِ عَلِيماً ، فيجازيكم على قدر إحسانكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة : يستفتونك عن نساء العلوم الرسمية ، وعن يتامى العلوم القلبية ، وهن نتائج الأفكار ، وهى العلوم اللدنية ، والأسرار الربانية التي هى من علوم الحقيقة ، ولا تليق إلا بالمستضعفين عند الخليقة ، وفى الخبر : «ألا أخبركم بأهل الجنّة؟ هو كل ضعيف متضعّف ، لو أقسم على اللّه لأبرّه فى قسمه». أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلم. قل الله يفتيكم فيهن فيأمركم أن تأخذوا من العلوم الرسمية ما تتقنون به عبادة ربكم ، وترغبوا فى علم الطريقة ، التي هى علم

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٦٨

القلوب ، ما تحققون به عبوديتكم ، ومن نتائج الأفكار ما تشاهدون به عظمة ربكم ، ويأمركم أن تقوموا بالعدل فى جميع شئونكم ، فتعطوا الشريعة حقها والطريقة حقها ، وتحفظوا أسرار الحقيقة عن غير مستحقها ، والله لا يضيع أجر المحسنين.

ثم أمر بالصلح بين الزوجين عند خوف النشوز ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٢٨]

وَإِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١٢٨)

قلت : امرأة : فاعل بفعل يفسره ما بعده ، وأصل (يصّالحا) : يتصالحا ، فأدغمت ، و(صلحا) مصدر. وقرأ الكوفيون : يصلحا من الرباعي ، فتنصب صلحا على المفعول به ، أو المصدر ، و(بينهما) ظرف ، أو حال منه ، وجملة (الصلح خير) : معترضة ، وكذا : وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ، ولذلك اغتفر عدم

تجانسهما.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ وتوقعت من زوجها نُشُوزاً أي : ترفعا عن صحبتها ، وتجافيا عنها ، كراهية لها ، ومنعا لحقوقها ، أَوْ إِعْراضاً عنها ، بأن يترك مجالستها ، ومحادثتها ، فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أن يتصالحا بَيْنَهُما صُلْحاً بأن تحط له من مهرها ، أو من قسمها مع ضرتها ، أو تهب له شيئا تستميله به.

نزلت فى سعد بن الربيع ، تزوج على امرأته شابة ، وآثرها عليها. وقيل : فى رجل كبرت امرأته ، وله معها أولاد ، فأراد طلاقها ليتزوج ، فقالت له : دعنى على أولادى ، واقسم لى فى كل شهرين أو أكثر ، أو لا تقسم. فذكر ذلك للنبى صلّى اللّه عليه وسلم فقال له : «قد سمع الله ما تقول ، فإن شاء أجابك» ، فنزلت. وقيل : نزلت فى سودة زوج النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، لما كبرت ، أراد – عليه الصلاة والسلام – أن يفارقها ، فقالت : أمسكنى فى نسائك ولا تقسم لى ، فقد وهبت نوبتى لعائشة ، فإنى أريد أن أبعث فى نسائك.

ثم رغّب فى الصلح فقال : وَالصُّلْحُ خَيْرٌ من المفارقة ، أو من سوء العشرة والخصومة ، أو خير فى نفسه ، ولا يكون إلا مع ترك بعض حق النفس من أحد الخصمين ، فلذلك ثقل على النفس فشحت به ، وإليه أشار بقوله :

وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ أي : جعلته حاضرا لديها لا يفارقها ، لأنها مطبوعة عليه ، فالمرأة لا تكاد تسمح للزوج من حقها ، ولا تسخو بشيء تعطيه لزوجها ، والزوج لا يكاد يصبر على إمساكها وإحسان عشرتها إذا كرهها ،

(٥٦٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٦٩

وَإِنْ تُحْسِنُوا العشرة وَتَتَّقُوا النشوز والإعراض ونقص حق المرأة مع كراهة الطبع لها ، فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً لا يخفى عليه إحسانكم ولا نشوزكم ، فيجازى كلّا بعمله ، وفى بعض الأثر : «من صبر على أذى زوجته أعطاه الله ثواب أيوب عليه السلام». وكذلك المرأة. والله تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أن النفس كالمرأة حين يتزوجها الرجل ، فإنها إذا رأت من زوجها الجد فى أموره والانقباض عنها ، هابته وانقادت لأمره ، وإذا رأت منه الليونة والسيولة استخفت بأمره وركبته ، وسقطت هيبته من قلبها ، فإذا أمرها ونهاها لم تحتفل بأمره ، وكذلك النفس إذا رأت من المريد الجد فى بدايته والصولة عليها ، هابته وانقادت لأمره وكانت له سميعة مطيعة ، وإذا رأت منه الرخو والسهولة معها ، ركبته وصعب عليه انقيادها وجهادها ، فإذا صال عليها وقهرها فأرادت الصلح معه على أن يسامحها فى

بعض الأمور ، وتساعفه فيما يريد منها ، فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحا ، والصلح خير ، فإن دوام التشديد قد يفضى إلى الملل ، وإن تحسنوا معها بعد معرفتها ، وتتقوا الله فى سياستها ورياضتها حتى ترد بكم إلى حضرة ربها ، فإن الله كان بما تعملون خبيرا.

ثم أمر بالعدل بين النساء ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٢٩]

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٢٩)

يقول الحق جل جلاله : وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا ، يا معشر الأزواج ، أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ العدل الكامل التام فى الأقوال والأفعال والنفقة والكسوة والمحبة ، وَلَوْ حَرَصْتُمْ على ذلك لضعف حالكم ، وقد خففت عنكم ، وأسقطت الحرج عنكم ، فلا يجب العدل فى البيت فقط ، وكان صلّى اللّه عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ويقول : «اللهمّ هذه قسمتى فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما لا أملك» ، يعنى : ميل القلب ، وكان عمر رضي اللّه عنه يقول : (اللهم قلبى فلا أملكه ، وأما سوى ذلك فإنى أرجو أن أعدل) ، وأما الوطء فلا يجب العدل فيه ، إلا أن تتحرك شهوته ، فيكف لتتوفر لذته للأخرى.

فَلا تَمِيلُوا إلى المرغوب فيها لجمالها أو شبابها ، كُلَّ الْمَيْلِ بالنفقة والكسوة والإقبال عليها ، وتدعوا الأخرى كَالْمُعَلَّقَةِ التي ليست ذات بعل ولا مطلقة ، كأنها محبوسة مسجونة ، وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما ، جاء يوم القيامة ، وأحد شقّيه مائل» ، وَإِنْ تُصْلِحُوا ما كنتم تفسدون فى أمورهن بالعدل بينهن ، وَتَتَّقُوا الجور فيما يستقبل ، فَإِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً ، يغفر لكم ما مضى من ميلكم.

(٥٦٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٧٠

الإشارة : من شأن العبودية : الضعف والعجز ، فلا يستطيع العبد أن يقوم بالأمور التي كلف بها على العدل والتمام ، ولو حرص كل الحرص ، وجدّ كل الجد ، فلا يليق به إلا التحقق بوصفه والرجوع إلى ربه ، فيأتى بما يستطيع ولا يحرص على مالا يستطيع ، فلا يميل إلى الدعة والكسل كل الميل ، ولا يحرص على مالا طاقة له به كل الحرص ، فإن التعقيد ليس من شأن أهل التوحيد ، بل من شأنهم مساعفة الأقدار ، والسكون تحت أحكام الواحد القهار ، فلا تميلوا إلى التعمق والتشديد كل الميل ، فتتركوا أنفسكم كالمعلّقة ، أي : المسجونة ، وهذا من شأن أهل الحجاب ، يحبسون فى المقامات والأحوال ، تشغلهم حلاوة ذلك عن الله تعالى. فإذا فقدوا ذلك الحال أو المقام سلبوا وأفلسوا. وأهل

الغنى باللّه لا يقفون مع حال ولا مقام ، هم مع مولاهم ، وكل ما يبرز من عنصر القدرة قبلوه ، وتلونوا بلونه ، وهذا مقام التلوين بعد التمكين.

وفى إشارة أخرى : اعلم أن القدرة والحكمة كالزوجين للقلب ، يقيم عند هذه مدة ، وعند هذه أخرى ، فإذا أقام عند الحكمة كان فى مقام العبودية من جهل وغفلة وضعف وذلة ، وإذا أقام عند القدرة كان فى مقام شهود الربوبية فيكون فى علم ويقظة وقوة وعزة. ولا قدرة له على العدل بينهما ، فلا يميل إلى إحداهما كل الميل بل يسير بينهما ، ويعطى كل ذى حق حقه ، بأن يعرف فضلهما ، ويسير بكل واحد منهما. وإن تصلحوا قلوبكم وتتقوا ما يشغلكم عن ربكم ، فإن الله كان غفورا رحيما يغفر لكم ميلكم إلى إحدى الجهتين والله تعالى أعلم.

فإذا تعذر الإصلاح بين الزوجين ، وأراد الفراق ففى الله الغنى عن كل شىء ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة النساء (٤) : آية ١٣٠]

وَإِنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكانَ اللَّهُ واسِعاً حَكِيماً (١٣٠)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ يَتَفَرَّقا أي : يفارق كل واحد منهما صاحبه ، يُغْنِ اللَّهُ كل واحد منهما عن صاحبه ، ببدل أو سلو يقوم بأمره من رزق أو غيره ، من سعة غناه وكمال قدرته ، وَكانَ اللَّهُ واسِعاً بقدرته حَكِيماً أي : متقنا فى أحكامه وأفعاله. ثم بيّن معنى سعته فقال : وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أي : كل ما استقر فيهما فهو تحت حكمه ومشيئته ، قائما بحفظه وتدبيره ، يعطى كل واحد ما يقوم بأمره ويغنيه عن غيره. والله تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أن الروح ما دامت مسجونه تحت قهر البشرية ، محجوبة عن شهود معانى الربوبية ، كانت فقيرة جائعة متعطشه ، تتعشق إلى الأكوان وتفتقر إليها ، وتقف معها ، فإذا فارقت البشرية وانطلقت من سجن هيكلها ،

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٧١

وخرجت فكرتها من سجن الأكوان ، أغناها الله بشهود ذاته ، وأفضت إلى سعة فضاء الشهود والعيان ، وملكت جميع الأكوان ، «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك» ، وكذلك البشرية يغنيها الله عن تعب الخدمة وتستريح فى ظل المعرفة ، فلما تفرقا أغنى الله كلا من سعة فضله وجوده ، لأنه واسع العطاء والجود ، حكيم فى تدبير إمداد كل موجود.

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣١ الى ١٣٣]

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ

وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً (١٣١) وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٣٢) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكانَ اللَّهُ عَلى ذلِكَ قَدِيراً (١٣٣)

وفى قوله : وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ إشارة إلى أن من كان بالله ، ووصل إلى شهود ذاته ، ملّكه الله ما فى السموات وما فى الأرض ، فيكون خليفة الله فى ملكه ، (و ما ذلك على الله بعزيز).

ولمّا جرى الكلام على شأن النساء ، وهن حبائل الشيطان ، تشغل فتنتهن عن ذكر الرحمن ، حذّر الحق تعالى من فتنتهن ، كما هو عادته تعالى فى كتابه عند ذكرهن ، وأمر بالتقوى التي هى حصن من كل فتنة ، فقال :

وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ...

قلت : (من قبلكم) : يتعلق بأوتوا أو بوصينا ، و(إياكم) : عطف على الذين ، و(أن اتقوا) : على حذف الجار ، أي :

بأن اتقوا ، أو مفسرة لأن التوصية فى معنى القول ، و(إن تكفروا) على حذف القول ، أي : وقلنا لهم ولكم : وإن تكفروا ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الأمم المتقدمة الذين أنزلنا عليهم الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ كأهل التوراة والإنجيل والزبور ، وغيرهم من الأمم ، ووصيناكم أنتم أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ بأن تمتثلوا أوامره ، وتجتنبوا نواهيه ، ظاهرا وباطنا ، وقلنا لهم ولكم : وَإِنْ تَكْفُرُوا فإن الله غنى عن كفركم وشكركم فقد استقر له ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ملكا وعبيدا ، فله فيهما من الملائكة من هو أطوع منكم ، فلا يتضرر بكفركم ، كما لا ينتفع بشكركم وتقواكم ، وإنما أوصاكم رحمة بكم ، لا لحاجة إليكم ، ثم قرر ذلك بقوله : وَكانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً أي : غنيا عن الخلق وعبادتهم ، محمودا فى ذاته ، حمد أو لم يحمد.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٧٢

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ كرره ثالثا للدلالة على كونه غنيا حميدا ، فإن جميع المخلوقات تدل بحاجتها على غناه ، وبما أفاض عليها من الوجود ، وأنواع الخصائص والكمالات على كونه حميدا.

قاله البيضاوي. وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا أي : حافظا ومجيرا لمن تعلق به من أهل السموات والأرض. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إن لم تتقوه ، ويأت بقوم آخرين ، هم أطوع منكم وأتقى ، وَكانَ اللَّهُ عَلى ذلِكَ قَدِيراً أي : بليغ القدرة لا يعجزه مراد.

قال البيضاوي : وهذا – أي قوله : (إن يشأ يذهبكم ..) – أيضا تقرير لغناه وقدرته ، وتهديد لمن كفر وخالف أمره ، وقيل : هو خطاب لمن خالف الرسول صلّى اللّه عليه وسلم من العرب ، وهو معنى قوله : وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ لما روى : أنّها لما نزلت ضرب رسول صلّى اللّه عليه وسلم يده على ظهر سلمان وقال : «إنّهم قوم هذا».

الإشارة : التقوى أساس الطريق ومنهاج أهل التحقيق ، عليها سلك السائرون ، وبها وصل الواصلون ، قد وصّى بها الحق تعالى المتقدمين والمتأخرين ، وبها قرّب المقربين وشرّف المكرمين. ولها خمس درجات : أن يتقى العبد الكفر وذلك بمقام الإسلام ، وأن يتقى المعاصي والمحرمات وهو : مقام التوبة ، وأن يتقى الشبهات وهو مقام الورع ، وأن يتق المباحات ، وهو مقام الزهد ، وأن يتقى شهود السّوى والحس وهو مقام المشاهدة.

ولها فضائل مستنبطة من القرآن ، وهى خمس عشرة : الهداية لقوله تعالى : هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ، والنصرة لقوله : إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ، والولاية لقوله : وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ والمحبة لقوله : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ، وتنوير القلب لقوله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً ، والمخرج من الغم والرزق من حيث لا يحتسب ، لقوله : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ، وتيسير الأمور لقوله : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً وغفران الذنوب وإعظام الأجر لقوله : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ، وتقبل الأعمال لقوله : إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ والفلاح لقوله : وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ والبشرى لقوله : هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ ، ودخول الجنة لقوله : إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، والنجاة من النار لقوله : ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا. هـ. من ابن جزى.

(٥٧٢/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٧٣

ومما ينسب للقطب ابن مشيش رضي اللّه عنه :

عليك بتقوى الله فى السرّ والجهر ذا شئت توفيقا إلى سبل الخير

لأن التّقى أصل إلى البرّ كلّه فخذه تفز بكلّ نوع من البرّ

وخير جميع الزاد ما قال ربّنا فكن يا أخى لله ممتثل الأمر

ولمّا قرر أن الملك كله بيده ، رغّب الناس فى رفع حوائجهم إليه ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٣٤]

مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوابُ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَكانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً (١٣٤)

قلت : (من) : شرطية ، وجوابها محذوف دل عليه الكلام ، أي : من كان يريد ثواب الدنيا فليطلبه منه ، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ، أو من كان يريد ثواب الدنيا فلا يقتصر عليه خاصة ، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة.

يقول الحق جل جلاله : مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيا والتوسع فيها ، فليطلبه منا فعند الله ثواب الدارين ، أو من كان يريد ثواب الدنيا ، فليطلب مع ذلك ثواب الآخرة أيضا ، وليقل : رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوابُ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، فيعطيهما معا لمن طلبهما ، والثاني أنهض من الأول ، وأكمل منهما من أعرض عنهما وطلب مولاه ، وَكانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً ، لا يخفى عليه مقاصد خلقه ، فيعطى كلّا على حسب قصده.

الإشارة : الهمم ثلاثة : همة دنية تعلقت بالدنيا الدنية ، وهمة متوسطة تعلقت بنعيم الآخرة ، وهمة عالية تعلقت بالكبير المتعال. والله تعالى يرزق العبد على قدر همته ، وبالهمم ترفع المقادير أو تسقط ، فمن كانت همته دنية كان دنيا خسيسا ، ومن كانت همته متوسطة كان قدره متوسطا ، رحل من كون إلى كون ، كحمار الرحا ، يسير ، والذي ارتحل منه هو الذي عاد إليه ، ومن كانت همته عالية كان عالى المقدار ، كبير الشأن ، حاز الكونين بما فيهما ، وزاد مشاهدة خالقهما. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

ولما أمر بالعدل بين النساء أمر بالعدل فى الأحكام كلها ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٣٥]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١٣٥)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٧٤

قلت : (شهداء) : خبر ثان لكان ، أو حال ، (فالله أولى) : علة للجواب أي : إن يكن المشهود عليه غنيا عليه فلا تمتنعوا من الشهادة عليه تعظيما له ، وإن يكن فقيرا فلا تمتنعوا من الشهادة عليه إشفاقا عليه ، فإن الله أولى بالغنى والفقير منكم ، والضمير فى (بهما) راجع إلى مادل عليه المذكور ، وهو جنسا الغنى والفقير ، لا إليه وإلا لوحّد لأن «أو» لأحد الشيئين. و(أن تعدلوا) : مفعول من أجله ، ومن قرأ : تلوا – بضم اللام – فقد نقل ضم الواو إلى اللام وحذف أحد الواوين ، وقيل : من الولاية.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ أي : مجتهدين فى إقامة العدل مواظبين على الحكم به ، وكونوا شُهَداءَ لِلَّهِ بالحق تقيمون شهادتكم لوجه الله ، وابتغاء مرضاته ، بلا

طمع أجر ولا عوض ، وهذا إن تعينت عليه ، ولم يكن فى تحملها مشقة ، وإلا أبيح له أجر تعبه ، فأدوا شهاداتكم وَلَوْ كانت عَلى أَنْفُسِكُمْ بأن تقروا بالحق الذي عليها ، لأن الشهادة بيان الحق ، سواء كان عليها أو على غيرها ، أَوِ كانت الشهادة على الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، فلا تمنعكم الشفقة والتعظيم من إقامة الشهادة عليهما ، وأحرى غيرهما من الأجانب ، إِنْ يَكُنْ المشهود عليه غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فلا تميلوا عن الشهادة بالحق عليهما ، تعظيما للغنى أو شفقة للفقير ، فإن فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما وبالنظر لهما ، فلو لم تكن الشهادة عليهما صلاحا لهما ما شرعها ، فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى فتميلوا مع الغنى أو الفقير ، فقد نهيتكم إرادة أَنْ تَعْدِلُوا فى أحكامكم ، فتكونوا عدولا ، أو كراهية أن تعدلوا عن الحق أي : تميلوا ، وَإِنْ تَلْوُوا ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل أَوْ تُعْرِضُوا عن أدائها فتكتموها فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً ، فيجازى الكاتم والمؤدى.

قال صلّى اللّه عليه وسلم عند نزولها : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقم شهادته على من كانت ، ومن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر ، فلا يجحد حقا هو عليه ، وليؤده عفوا ، ولا يلجئه إلى السلطان وخصومته ، ليقتطع بها حقه ، وأيما رجل خاصم إلىّ فقضيت له على أخيه بحق ليس له عليه ، فلا يأخذه ، فإنّما أقطع له قطعة من النار».

الإشارة : قد أمر الحق تعالى عباده بإقامة العدل فى الأمور كلها ، ونهى عن مراقبة الخلق فى الأشياء كلها ، فيتأكد على المريد ألّا يراقب أحدا من الخلق وإنما يراقب الملك الحق ، فيكون قويا فى الحق ، يقيمه على نفسه وغيره ، فلا تجتمع مراقبة الحق مع مراقبة الخلق ، من راقب الحق غاب عن الناس ، ومن راقب الناس غاب عن الحق ، وعاش مغموما من الخلق ، ولله در القائل حيث قال :

من راقب الناس مات غمّا وفاز باللذات الجسور

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٧٥

وكان شيخ شيخنا رضي اللّه عنه يقول : (مراقبة الخلق عند أهل الظاهر شيء كبير ، وعدم المراقبة عند الباطن أمر كبير). فإقامة العدل على النفس ألّا يتركها تميل إلى الرخص والتأويلات ، وإقامته على الوالدين تذكيرهما بالله ودلالتهما على الله بلطف ولين ، وإقامته على الأقربين بنصحهم وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم ، كانوا أغنياء أو فقراء ، وإقامته على الأجانب كذلك. وبالله التوفيق.

ولما فرغ مما يتعلق بحفظ اللسان ، تكلم على حفظ الإيمان ، وهو الأمر السادس مما تضمنته السورة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٣٦]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (١٣٦)

يقول الحق جل جلاله : مخاطبا من أسلم من اليهود – وهو عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابنا كعب ، وثعلبة بن قيس ، وسلّام بن أخت عبد الله بن سلام ، وسلمة ابن أخيه ويامين – قالوا يا رسول الله ، نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزّير ، ونكفر بما سواه من الكتب؟ فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «آمنوا بالله ورسوله محمد صلّى اللّه عليه وسلم وبكتابه القرآن ، وبكل كتاب قبله» ، فنزلت الآية.

فقال لهم جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بمحمد ، بعد أن آمنوا بموسى آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ القرآن وَالْكِتابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ أي : جنس الكتاب ، فتدخل الكتب المتقدمة كلها ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أي : ومن يكفر بشيء من ذلك فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً أي : أخطأ خطأ بعيدا لا يكاد يعود إلى الطريق ، فلما نزلت قالوا : يا رسول الله إنا نؤمن بالجميع ، ولا نفرق بين أحد منهم ، كما فرقت اليهود والنصارى.

وقيل : الخطاب للمنافقين ، أي : يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم آمنوا بقلوبكم ، كما آمنتم بألسنتكم ، وقيل : للمؤمنين ، أي : دوموا على إيمانكم ، واثبتوا عليه.

الإشارة : أمر الحق جل جلاله ، أهل الإيمان أن يجددوا إيمانهم ، فيثبتوا على ما هو حاصل ، ويسترشدوا إلى ما ليس بحاصل ، فإن أنوار الإيمان تتزايد وتترادف على القلوب بحسب التصفية والنظر ، وبقدر الطاعة والتقرب ، فلا يزال العبد يتقرب إلى الله ، وأنوار التوجه تتوارد عليه ، حتى تشرق عليه أنوار المواجهة وهى أنوار الشهود ، فشروق الأنوار على قدر صفاء الأسرار ، وورود الإمداد على حسب الاستعداد ، فبقدر التفرغ من الأغيار ترد على

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٧٦

القلوب المواهب والأسرار ، وهذا كله لمن صحب العارفين وأخذ عنهم ، وملّك زمام نفسه لهم ، وإلا فحسبه الإيمان بالغيب ، ولو عمل ما عمل ، وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد من ارتد عن الإيمان ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣٧ الى ١٣٩]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (١٣٩)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثم تكرر منهم الإيمان والكفر ، ثم أصروا على الكفر وهم المنافقون ، لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ لما سبق لهم من الشقاء ، أو إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بموسى ثُمَّ كَفَرُوا بعبادة العجل ثُمَّ آمَنُوا حين تابوا ثُمَّ كَفَرُوا بعيسى ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ، وهم اليهود ، والأول أظهر لأن الكلام بعده فى المنافقين ، فقال تعالى فى شأنهم : لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا أي : طريقا توصلهم إلى الحق ، إذ يستبعد منهم أن يتوبوا ، فإن قلوبهم أشربت الكفر ، وبصائرهم عميت ، لا ينفع علاجها ، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم ينفعهم ، وقد يكون إضلالهم عقابا لسوء أفعالهم.

ثم ذكر وعيدهم فقال : بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً. وهم الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ أي : أحبابا وأصدقاء مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وقد كان الكفار قبل ظهور الإسلام لهم الصولة والجاه ، فطلب المنافقون أن ينالوا بولايتهم ومصادقتهم العزّ منهم ، فردّ الله عليهم بقوله : أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ بولايتهم؟ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ولرسوله ولأوليائه ، ولا عزة لغيره إذ لا يعبأ بعزة لا تدوم ويعقبها الذل.

الإشارة : من كان ضعيف الاعتقاد فى أهل الخصوصية ، ضعيف التصديق ، تراه تارة يدخل وتارة يخرج ، وتارة يصدق وتارة ينكر ، لا يرجى فلاحه فى طريق الخصوص ، فإن ضم إلى ذلك صحبة أهل الإنكار وولايتهم ، فبشره بالخيبة والخسران ، فإن تعزز بعزهم أعقبه الذل والهوان ، والعياذ بالله من الخذلان ، فالعز إنما يكون بعز التوحيد والإيمان ، وعزة المعرفة والإحسان ، وبصحبة أهل العرفان ، الذين تعززوا بعز الرحمن ، فمن تعزز بعز يفنى مات عزه ، ومن تعزز بعز يبقى دام عزه ، والشبكة التي يصطاد بها العزّ هو الذل لله ، يظهره بين عباد الله. قال بعضهم : والله ما رأيت العز إلا فى الذل. وقال الشاعر :

تذلّل لمن تهوى لتكسب عزّة فكم عزّة قد نالها المرء بالذّلّ

وبالله التوفيق.

(٥٧٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٧٧

ثم نهى عن صحبة أهل الخوض ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٤٠ الى ١٤١]

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَالْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَلَمْ

نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١)

قلت : (أن) مخفف : نافية ، فاعل نزّل ، و(يكفر) و(يستهزأ) ، حالان من الآيات ، وضمير (معهم) : يعود على الكفار المفهوم من (يكفر) ، وضمير (غيره) يعود على الكفر والاستهزاء ، وهما شيء واحد.

يقول الحق جل جلاله فى التحذير من مجالسة أهل الكفر والمعاصي : وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ يا معشر المسلمين فى القرآن فى سورة الأنعام ، أنه إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ حال كونها يُكْفَرُ بِها ، وَيُسْتَهْزَأُ بِها ، فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ بل قوموا عنهم ، إن لم تقدروا أن تنكروا عليهم ، والآية التي فى سورة الأنعام قوله تعالى :

وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ الآية. فما داموا في الخوض فاعرضوا عنهم حتى يخوضوا فى حديث غير الخوض ، فإن جلستم معهم فى حال الخوض فإنكم إِذاً مِثْلُهُمْ فى الإثم ، إن لم ترضوا ، أو فى الكفر ، إن رضيتم بخوضهم.

نزلت فى قوم من المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود ، فيسخرون من القرآن ، ويكذبون به ويحرفونه ، فنهى المسلمين عن مجالستهم ، قال ابن عباس : ودخل فى هذه الآية كلّ محدث فى الدين ومبتدع إلى يوم القيامه. هـ.

الإشارة : أولياء الله آيات من آيات الله : فمن استهزأ بهم فقد استوجب المقت من الله ، وكل موطن يقع فيه الإنكار عليهم أو الغض من مرتبتهم ، يجب الفرار منه ، لأنه موطن الغضب ومحل الهلاك والعطب ، فإن لحوم الأولياء سموم قاتلة ، واللعنة على من يقع فيهم حاصلة ، فمن جلس مع أهل الخوض من غير عذر ، كان من الخائضين ، ومن فرّ منهم كان من الناجين ، ومن أنكر على من يقع فيهم كان من المجاهدين. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد الخائضين ومن رضى بخوضهم ، فقال :

إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٧٨

قلت : (الذين) : صفة المنافقين ، أو نصب على الذم ، و(نستحوذ) : نغلب ، استحوذ : غلب ، جاء على أصله ، ولم يعلّ كاستعاذ والقياس : استحاذ ، يستحيذ ، كاستعاذ يستعيذ ، لكنه صحح تنبيها على الأصل.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ سيجمع الْمُنافِقِينَ وَالْكافِرِينَ ، أي : الخائضين والقاعدين معهم ، فِي

جَهَنَّمَ جَمِيعاً خالدين فيها. الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ أي : ينتظرون بكم الدوائر ، أي : ما يدور به الزمان والدهر عليكم ، وهم المنافقون ، فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ كالنصر والغنيمة قالُوا للمؤمنين : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ على دينكم ، فأعطونا مما غنمتم ، وَإِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ دولة أو ظهور على المسلمين ، قالُوا لهم : أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ أي : نغلبكم ونتمكن من قتلكم ، وأبقينا عليكم فمنعناكم من قتل المسلمين لكم ، بأن خذلناهم بتخييل ما ضعفت به عزيمتهم عليكم ، وتوانينا فى مظاهرتهم عليكم ، فأشركونا مما أصبتم. وإنما سمى ظفر المسلمين فتحا ، وظفر الكافرين نصيبا لخسة حظه ، فإنه حظ دنياوى ، استدراجا ومكرا ، بخلاف ظفر المسلمين ، فإنه إظهار الدين ، وإعانة بالغنيمة للمسلمين. فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فيدخل أهل الحق الجنة ، ويدخل أهل الخوض النار ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا أي : حجة ، أو غلبة فى الدنيا والآخرة ، وفيه دليل على عدم صحة ملك الكافر للمسلم ، فيباع عليه إن اشتراه ، ويفسخ نكاحه إن تزوج مسلمة. والله تعالى أعلم الإشارة : (المرء مع من أحب) من أحبّ قوما حشر معهم ، فمن أحب أهل الخوض حشر مع الخائضين ، ومن أحب أهل الصفا حشر مع المخلصين ، وإن كان مذبذبا يميل مع كل ريح حشر مع المخلطين ، وهو من خف عقله وضعف يقينه ، إن رأى بأهل النسبة من الفقراء عزا ونصرا وفتحا انحاز إليهم ، وقال : ألم نكن معكم ، وإن رأى لأهل الإنكار من العوام صولة وغلبة رجع إليهم ، وقال : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من دعاء الصالحين عليكم ، فما لهذا عند الله من خلاق. وفى الحديث : «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها». فالله يحكم بينهم يوم القيامة ، فيرفع أهل الصفا مع المقربين ، ويسقط أهل الخوض مع الخائضين ، وليس لأهل الخوض من أهل الإنكار سبيل ولا حجة على أهل الصفا من الأبرار ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ.

ثم ذكر أحوالهم الشنيعة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٤٢ الى ١٤٣]

إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ وَإِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَلا إِلى هؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (١٤٣)

(٥٧٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٧٩

قلت : جملة : (و لا يذكرون الله) حال من واو (يراءون) ، وكذلك (مذبذبين) أي : يراءون حال كونهم غير ذاكرين مذبذبين ، أو منصوب على الذم ، والمذبذب : المضطرب المتردد.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ
بإظهار الإيمان وإخفاء الكفر ، وَهُوَ خادِعُهُمْ
، أي : مجازيهم على خداعهم بأن يظهر لهم يوم القيامة نورا يمشون به على الصراط ، كما يعطى المؤمنين ، فإذا مضوا به طفئ نورهم وبقي نور المؤمنين ، فينادونهم : انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ، فيتهافتون فى النار. فسمى هذه العقوبة خداعا تسمية للعقوبة باسم الذنب.
وكانوا إذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى
أي : متثاقلين ، لا يريدون بها وجه الله ، فإن رءاهم أحد ، صلوا ، وإلّا انصرفوا ، فلم يصلوا ، يُراؤُنَ بأعمالهم النَّاسَ
أي : المؤمنين ، وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا
لأن المرائى لا يذكر إلا بحضرة الناس ، وهو أقل أحواله ، أو لا يذكرونه فى صلاتهم إلا قليلا ، لأنهم لا يذكرون إلا التكبير والتسليم ، وقال ابن عباس : إنما ذلك لأنهم يفعلونها رياء وسمعة ، ولو أرادوا بذلك وجه الله تعالى لكان كثيرا.
وقال قتاده : إنما قل ذكرهم ، لأنه لم يقبل ، فكل ما ردّ من العمل فهو قليل ، وكل ما قبل فهو كثير.
وكانوا أيضا مُذَبْذَبِينَ أي : مترددين ومتحيرين بين الكفر والإيمان ، لا إِلى هؤُلاءِ وَلا إِلى هؤُلاءِ أي : لا صائرين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين. قال قتادة : ما هم بمؤمنين مخلصين ، ولا مشركين مصرّحين بالشرك ، هكذا سبق فى علم الله ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا أي : طريقا إلى الهدى ، ومثله قوله تعالى : وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ.
الإشارة : كل من أحب أن يرى الناس محاسن أعماله وأحواله ، ففيه شعبة من النفاق وشعبة من الرياء ، وعلامة المرائى : تزيين ظاهرة وتخريب باطنه ، يتزين للناس بحسن أعماله وأحواله ، يراقب الناس ولا يراقب الله ، وكان بعض الحكماء يقول : يقول الله – تعالى – : «يا مرائى : أمر من ترائى بيد من تعصيه». فمثل هذا أعماله كلها قليلة ، ولو كثرت فى الحس كالجبال الرواسي ، وأعمال المخلصين كلها كثيرة ولو قلّت فى الحس ، وأعمال المرائين كلها قليلة ولو كثرت فى الحس. قال فى القوت : وصف اللّه تعالى ذكر المنافقين بالقلة ، لكونه غير خالص ، كما قيل فى تفسير قوله تعالى : ذِكْراً كَثِيراً أي : خالصا ، فسمى الخالص كثيرا. هـ.
قوله تعالى : مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ : هذه صفة أهل الدعوى ، المستشرفين على الحقيقة بالعلم ، ليسوا من الخصوص ولا من العموم ، مترددين بين الفريقين ، ومن يضلل الله عن طريق التحقيق ، فلن تجد له سبيلا.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٨٠

ثم نهى المؤمنين عن موالاة الكفار لئلا يتشبهوا بالمنافقين ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٤٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً (١٤٤)

قلت : اتخذ ، يتعدى إلى مفعولين ، و(من دون) : حال.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تتشبهوا بالمنافقين فتتخذوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ وأصدقاء مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ لأن الله أعزكم بالإيمان والنصر ، فلا تطلبوا العز من أحد سواه ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً أي : حجة واضحة على تعذيبكم وسببا فى عقابكم.

الإشارة : قد تقدم فى كثير من الإشارات النهى عن موالاة أهل الإنكار على الأولياء ، وعن مخالطة أهل الدنيا وصحبتهم ، فإن ذلك حجة واضحة على الرجوع إليهم ومصانعتهم ، وهو عين النفاق عند المخلصين.

والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد المنافقين ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٤٥ الى ١٤٧]

إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (١٤٦) ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكانَ اللَّهُ شاكِراً عَلِيماً (١٤٧)

قلت : الدرك : والدرك لغتان ، كالظعن والظعن ، والنهر والنهر ، والنشر والنشر ، وهى الطبقة السفلى ، وسميت طبقاتهم دركات لأنها متداركة متتابعة ، وهى ضد الدرجات ، فالدرجات للعلو ، والدركات للسفل.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ أي : فى الطبقة السفلى فى قعر جهنم لأنهم أخبث الكفرة ، حيث ضموا إلى الكفر الاستهزاء بالإسلام وخداع المسلمين. قال ابن مسعود رضي اللّه عنه :

(هم فى توابيت من النار مقفلة عليهم فى النار ، مطبقة عليهم). وعن ابن عمر رضي اللّه عنه : (إن أشد الناس عذابا يوم القيامة ثلاثة : المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون لقوله : إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ

مِنَ النَّارِ

وقال فى أصحاب المائدة : فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ. وقال : أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ ، وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً يمنعهم من ذلك العذاب. إِلَّا الَّذِينَ تابُوا عن النفاق وَأَصْلَحُوا ما أفسدوا فى سرائرهم وأعمالهم فى حال النفاق ، وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ أي : وثقوا به وتمسكوا به ، دون أحد سواه ، وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ لا يريدون بطاعته إلا وجه الله ، لا رياء ولا سمعة فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فى الدين. قال الفرّاء : من المؤمنين ، وقال العتبى : حاد عن كلامهم غيظا عليهم ، ولم يقل هم المؤمنون. هـ. قلت :

إنما قال : مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ولم يقل : منهم ، لأن التخلص من النفاق صعب ، ولا يكون من المؤمنين ، حتى يتخلص من جميع شعبه ، وهو عزيز ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «ثلاث من كنّ فيه فهو منافق ، وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم ، من إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان». وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ المخلصين أَجْراً عَظِيماً فيساهمونهم فيه إن تابوا وأصلحوا ، فإن الله غنى عن عذابهم ، ولذلك قال : ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ أي : لا حاجة له فى عذابكم ، فلا يشفى به غيظا ولا يدفع به ضررا ، أو يستجلب به نفعا لأنه غنىّ عن المنافع ، وإنما يعاقب المصر بكفره ، لأن إصراره عليه كسوء المزاج يؤدى إلى مرض ، فإن زال بالإيمان والشكر ، ونقّى منه قلبه ، تخلص من تبعته. وإنما قدم الشكر لأن الناظر يدرك النعم أولا فيشكر شكرا مبهما ، ثم يمعن النظر حتى يعرف المنعم فيؤمن به. قاله البيضاوي. وقال الثعلبي : فيه تقديم وتأخير ، أي إن آمنتم وشكرتم ، لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان. وَكانَ اللَّهُ شاكِراً لأعمال عباده ، يقبل اليسير ويعطى الكثير ، عَلِيماً بحقيقة شكرهم وإيمانهم ، ومقدار أعمالهم ، فيضاعفها على قدر تخليصها. والله تعالى أعلم.

الإشارة : لا شىء أصعب على النفس من الإخلاص كلما اجتهد العبد فى قطع الرياء نبت على لون آخر ، فلا يتطهر العبد منها إلا بتحقيق الفناء والغيبة عن السوي بالكلية. كما قال الششترى رضي اللّه عنه :

طهّر العين بالمدامع سكبا من شهود السّوى تزل كلّ علّه

قال بعضهم : [لا ينبت الإخلاص فى القلب حتى يسقط من عين الناس ، ويسقط الناس من عينه]. والإخلاص من أعمال القلوب ، فلا يطّلع عليه إلا علّام الغيوب. فلا يجوز أن يحكم على أحد بالرياء بمجرد ما يرى عليه من الإظهار ، وقد تدخل الرياء مع الإسرار ، وتتخلص من القلب مع الإظهار ، وفى الحكم : «ربما دخل الرياء عليك حيث لا ينظر الخلق إليك». فإذا تخلص العبد من دقائق الرياء ، وأصلح ما بينه وبين الله ، واعتصم به دون شىء سواه ، كان مع المخلصين المقربين فيكون عمله موفورا ، وسعيه مشكورا. وبالله التوفيق.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٨٢

وقد تكلم فى الإحياء على هذه الآية فقال : إنما كان المنافقون فى الدرك الأسفل لأنهم جحدوا بعد العلم ، وإنما تضاعف عذاب العالم فى معصيته لأنه عصى عن علم. قلت : وافهم منه قوله صلّى اللّه عليه وسلم فى أبى طالب : «ولو لا أنا لكان فى الدّرك الأسفل من النّار». وذلك لإعراضه مع العلم.

وقال فى الإحياء أيضا : شدّد أمر المنافقين لأن الكافر كفر وأظهر ، والمنافق كفر وستر ، فكان ستره لكفره كفرا آخر ، لأنه استخف بنظر الله إلى قلبه ، وعظّم أمر المخلوقين. هـ. والحاصل : أن التشديد فى الرياء والنفاق لما فى ذلك من تعظيم نظر الخلق على نظر الخالق ، فكان أعظم من الكفر الصريح. هـ. من الحاشية.

ومن علامة تصفيته الباطن من الرياء والنفاق تلبس الظاهر بأحسن الأخلاق ، ولذلك ذكره بإثره ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٤٨ الى ١٤٩]

لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَكانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً (١٤٨) إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيراً (١٤٩)

قلت : (إلا من ظلم) : استثناء منقطع ، أي : لكن من ظلم فلا بأس أن يشكو بظالمه ويدعو عليه ، وليس المراد أن الله يحب ذلك منه ، إذ العفو أحسن كما يقوله بعد ، وقرئ : (إلا من ظلم) بالبناء للفاعل ، أي : ولكن الظالم يفعل مالا يحبه الله.

يقول الحق جل جلاله : لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ أي : الإجهار بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ لأنه من فعل أهل الجفاء والجهل إِلَّا مَنْ ظُلِمَ فلا بأس أن يجهر بالدعاء على ظالمه ، أو بالشكوى به. نظيرها : وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ. قال مجاهد : هذا فى الضيف النازل إذا لم يضف ومنع حقه ، أو أسىء قراه ، فقد رخص له أن يذكر ما صنع به. وزعم أن ضيفا تضيّف قوما فأساءوا قراه ، فاشتكاهم ، فنزلت الآية رخصة فى شكواه. وَكانَ اللَّهُ سَمِيعاً لدعاء المظلوم ، ورده على الظالم ، فلا يحتاج إلى جهره ، عَلِيماً بالظالم فيعاقبه على قدر جرمه.

ثم رغّب فى العفو فقال : إِنْ تُبْدُوا خَيْراً : طاعة وبرا كحسن الخلق ولين الجانب ، أَوْ تُخْفُوهُ أي : تفعلوه سرا ، أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ بأن لا تؤاخذوا به من أساء إليكم ، وهذا هو المقصود بالذكر ، وإنما ذكر إبداء الخير وإخفاؤه سببا ووسيلة لذكره ، ولذلك رتب عليه فَإِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيراً أي : كثير العفو عن العصاة ، مع كمال قدرته على الانتقام ، فأنتم أولى بذلك ، وهو حث للمظلوم على العفو ، بعد ما رخّص له فى الانتصار ، حملا على مكارم الأخلاق.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٨٣

الإشارة : اعلم أن الباطن إذا كمل تطهيره وتحقق تنويره ظهر أثر ذلك على الظاهر من مكارم الأخلاق ، ولين الجانب ، وحسن الخطاب ، وترك العتاب ، فما كمن فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر وما كمن فيك ظهر على فيك ، وهذه أخلاق الصوفية – رضى الله عنهم وأرضاهم – وبذلك وصفهم القائل فيهم ، فقال :

هيّنون ليّنون أيسار بنو يسر سوّاس مكرمة أبناء أيسار

لا ينطقون بغير الحقّ إن نطقوا ولا يمارون إن ماروا بإكثار

من تلق منهم تقل هذاك سيّدهم مثل النّجوم التي يهدى بها السّار

ومن شأن الحضرة التهذيب والتأديب ، فلا يبقى معها لغو ولا تأثيم ، لأنها جنة معجلة ، قال تعالى : لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً.

وأيضا أهل الحضرة حصل لهم القرب من الحبيب ، فهم فى حضرة القريب على بساط القرب على الدوام ، ولا يتصور منهم الجهر بالكلام ، وهم فى حضرة الملك العلّام. قال تعالى : وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً ، فرفع الصوت عند الصوفية مذموم شنيع ، يدل على بعد صاحبه كيف ما كان ، وتأمل قضية الصّدّيق حيث قال له – عليه الصلاة والسلام – : «مالك تقرأ سرا؟» فقال : (إن الذي نناجيه ليس ببعيد). أو كما قال ، وإنما قال له صلّى اللّه عليه وسلم : «إرفع قليلا» إخراجا له عن مراده ، تربية له. والله تعالى أعلم.

ولما قدّم أقبح الكفر ، وهو كفر المنافقين ، ذكر ما يليه ، وهو كفر اليهود ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٥٠ الى ١٥١]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (١٥١)

قلت : (حقا) : مصدر مؤكد للجملة ، أو صفة لمصدر الكافرين ، أي : كفروا كفرا محققا يقينا. وأصل (أعتدنا) :

أعددنا ، أبدلت الدال تاء لقرب المخرج.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ الأنبياء وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، كاليهود ، آمنوا بموسى

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٨٤

وعزير والتوراة ، وكفروا بعيسى ومحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا ، أي : طريقا وسطا بين الإيمان والكفر ، ولا واسطة ، إذ الحق لا يختلف ، فإن الإيمان بالله إنما يتم برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه ، تفصيلا وإجمالا ، فالكافر بالبعض كالكافر بالكل فى الضلال. ولذلك حكم عليهم بصريح الكفر فقال : أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا أي : هم الكاملون فى الكفر حقيقة ، وإنما أكد كفرهم لأنهم تحكموا على الله ، واتخذوا إلههم هواهم ، حيث جعلوا الاختيار لهم دون الله ، وفى ذلك منازعة للقدر ، وتعطيل له ، وهو كفر وشرك ، ثم ذكر وعيدهم فقال : وَأَعْتَدْنا أي : هيأنا لِلْكافِرِينَ منهم عَذاباً مُهِيناً أي : يخزيهم ويهينهم ، حين يكرّم أولياءه ويرفع أقدارهم. جعلنا الله منهم. آمين.

الإشارة : الأولياء على قدم الأنبياء ، فمن فرّق بينهم حرم بركة جميعهم ، ومن صدّق بجميعهم وعظّمهم اقتبس من أنوارهم كلهم ، والله – تعالى – غيور على أوليائه ، كما كان غيورا على أنبيائه ، فطرد من فرّق بينهم ، فكذلك يطرد من يقع فى بعض أوليائه ويعظم البعض ، لأن البعض هو الكل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر من لم يفرق ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٥٢]

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٥٢)

قلت : (بين) : من الأمور النسبية ، فلا بد أن تدخل على متعدد ، تقول : جلست بين فلان وفلان ، وإنما دخلت هنا على (أحد) لأنه يقتضى متعددا لعمومه ، لأنه وقع فى سياق النفي. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وما يجب له من الكمالات ، (و رسله) وما يجب لهم كذلك ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ بأن آمنوا بجميعهم ، وصدقوا بكل ما جاءوا به من عند ربهم ، أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ «١» أُجُورَهُمْ الموعودة لهم ، بأن نجلّ مقدارهم ، ونرفع مقامهم ، ونبوئهم فى جنات النعيم.

وتصديره بسوف لتأكيد الوعد والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تأخر وقته ، ولمّا كان العبد لا يخلو من نقص ، رفع الخوف عنهم بقوله : وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً لما فرط منهم رَحِيماً بهم بتضعيف حسناتهم.

الإشارة : والذين صدقوا بأولياء الله ، وعظموا جميعهم ، واقتبسوا من أنوارهم كلهم ، أولئك سوف نؤتيهم أجورهم ، بأن أنعمهم فى جنات المعارف فى دار الدنيا ، فإن ماتوا أسكنّاهم فى الفراديس العلى (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر). والله تعالى أعلم.

(١) قرأ حفص عن عاصم (يوتيهم) بالياء ، وقرأ الباقون بالنون. [.....]

(٥٨٤/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٨٥

ثم ذكر مساوئ اليهود فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٥٣ الى ١٥٤]

يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ فَعَفَوْنا عَنْ ذلِكَ وَآتَيْنا مُوسى سُلْطاناً مُبِيناً (١٥٣) وَرَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ وَقُلْنا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَقُلْنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (١٥٤)

قلت : من قرأ : (لا تعدوا) بالسكون ، فماضيه : عدا ، ومن قرأ بتشديد الدال ، فماضيه اعتدى ، وأصله : لا تعتدوا ، فنقلت حركة التاء إلى العين وأدغمت التاء فى الدال ، ومن قرأ بالاختلاس أشار إلى الأصل.

يقول الحق جل جلاله : يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ ، وهم أحبار اليهود ، أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ جملة واحدة ، كما نزل التوراة ، أو كتابا بخطّ سماوى على ألواح كما كانت التوراة ، والمسائل هو كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازوراء وغيرهم ، قالوا للنبى صلّى اللّه عليه وسلم : (إن كنت نبيا فأتنا بكتاب من السماء جملة ، كما أتى به موسى) ، قال تعالى فى الرد عليهم : فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ وهو رؤية ذات الحق – تعالى – جهرا حسا. والمعنى : إن استعظمت ما سألوا منك فقد وقع منهم ما هو أعظم من ذلك.

وهذا السؤال ، وإن كان من آبائهم ، أسند إليهم لأنهم كانوا آخذين بمذهبهم تابعين لهديهم ، فما اقترحوا عليك ليس بأول جهالاتهم وتشغيبهم بل عرفهم راسخ فى ذلك ، فلا تستغرب ما وقع منهم.

ثم فسر سؤالهم بقوله : فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً أي : عيانا فى الحس ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ، بأن جاءت نار من السماء فأهلكتهم ، فماتوا ثم بعثوا بدعوة موسى عليه السّلام وذلك بسبب ظلمهم. وهو تعنتهم وسؤالهم لما استحيل فى تلك الحال التي كانوا عليها. وذلك لا يقتضى امتناع الرؤية مطلقا. وسيأتى فى الإشارة تحرير ذلك.

ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ على وحدانيته تعالى. وهذه جناية أخرى اقترفها أيضا أوائلهم ، فَعَفَوْنا عَنْ ذلِكَ حين تابوا ، ولم نعاجلهم بالعقوبة ، وَآتَيْنا مُوسى سُلْطاناً مُبِيناً أي : تسلطا

ظاهرا عليهم ، حين أمرهم أن يقتلوا أنفسهم ، توبة من اتخاذهم العجل إلها ، وحجة واضحة على نبوته كالآيات التسع.

(٥٨٥/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٨٦

وَرَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ حين امتنعوا من قبول أحكام التوراة ، بسبب ميثاقهم الذي أخذناه عليهم ، وهو التزام أحكام التوراة ، وقلنا لهم على لسان موسى : ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً أي : باب بيت المقدس ، فدخلوا يزحفون على أستاههم عنادا واستهزاء ، وقلنا لهم : لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ على لسان داود عليه السّلام ، فاعتدوا فيه بالاصطياد ، فمسخناهم قردة وخنازير ، وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً على ذلك كله ، فنقضوا جميع ذلك ، أو ميثاقا غليظا فى التوراة لئن أدركوك ليؤمنن بك ، وليبينن صفتك للناس ، فنقضوا وكتموا. والله تعالى أعلم.

الإشارة : اقتراح الآيات وطلب الكرامات من الأولياء ، سنة ماضية ، لأنهم على قدم الأنبياء – عليهم السلام – ما يقال لهم إلا ما قيل للأنبياء قبلهم ، فلا تكاد تجد أحدا يصدق بولي حتى تظهر عليه الكرامة ، وهو جهل كبير لأن الكرامة قد تظهر على من لم تكمل له استقامة ، وقد تكون استدراجا ومكرا. وأىّ كرامة أعظم من العلوم اللدنية والأخلاق النبوية؟ كما قال شيخنا رضي اللّه عنه. وقد ظهرت الكرامات على المتقدمين ولم ينقطع الإنكار عليهم.

واعلم أن طلب الرؤية فى الدنيا ليس بممتنع ، وإنما عاقب الله بنى إسرائيل على طلبها لأنهم طلبوها قبل إبانها ، طلبوها من غير اتصاف بشروط حصولها ، وهو كمال التهذيب والتطهير من دنس الحس ، فمن كمل تهذيبه وتحقق تطهيره حصل له شهود الحق ، حتى لو كلف أن يشهد غيره لم يستطع ، وذلك حين تستولى البصيرة على البصر ، فيشهد البصر ما كانت تشهده البصيرة ، وذلك بعد كمال فتحها. ولذلك قال فى الحكم : «شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق» ... إلخ كلامه. وهذه المشاهدة لا تحصل إلا لمن اتصل بشيخ التربية ، وإلا فلا مطمع فيها. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر عقوبة اليهود حيث نقضوا العهود ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٥٥ الى ١٥٨]

فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآياتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ

لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّباعَ الظَّنِّ وَما قَتَلُوهُ يَقِيناً (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٥٨)

(٥٨٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٨٧

قلت : (فبما) : صلة زيدت للتأكيد ، و(نقضهم) : مصدر مجرور بالباء ، وهى متعلقة بالفعل المحذوف ، أي :

بسبب نقضهم فعلنا بهم ما فعلنا ، أو بقوله : (حرمنا عليهم) ، ويكون (فبظلم) على هذا بدلا من قوله : (فبما نقضهم) ، فيكون التحريم بسبب النقض ، وما عطف عليه. والاستثناء فى قوله : (إلا اتباع الظن) منقطع إذ العلم يناقض الظن.

يقول الحق جل جلاله : فلما أخذنا على بنى إسرائيل العهد والميثاق خالفوا ونقضوا ، ففعلنا بهم ما فعلنا ، بسبب نقضهم ميثاقهم ، أو بسبب نقضهم وكفرهم حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ، وبسبب كفرهم أيضا بِآياتِ اللَّهِ القرآن ، أو بما فى كتبهم ، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ أي : مغلفة لا تفقه ما تقول.

قال تعالى فى الرد عليهم : بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ ، فجعلها محجوبة عن العلم ، بأن خذلها ومنعها التوفيق للتدبر فى الآيات والتذكر بالمواعظ ، فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه ، أو إيمانا قليلا لا عبرة به لنقصانه ، وَبِكُفْرِهِمْ أيضا بعيسى عاقبناهم وطبعنا على قلوبهم ، وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً أي : نسبتها للزنى وبقولهم : إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ أي بزعمه ، ويحتمل أنهم قالوه استهزاء ، ونظيره : إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ، أو يكون استئنافا من الله بمدحه ، أو وضعا للذكر الحسن موضع قولهم القبيح. قاله البيضاوي.

ثم رد الله تعالى عليهم فقال : وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، روى أن رهطا من اليهود سبوه هو وأمه ، فدعا عليهم ، فمسخوا قردة وخنازير ، فاجتمعت اليهود على قتله ، فقال لهم : يا معشر اليهود ، إن الله يبغضكم ، فغضبوا وثاروا ليقتلوه ، فبعث الله تعالى جبريل فأدخله خوخة فيها كوة فى سقفها ، ورفعه الله إلى السماء من تلك الكوة ، فأمر اليهود رجلا منهم يقال له : طيطانوس ، أن يدخل الخوخة ويقتله ، فلما دخل الخوخة ، لم ير عيسى ، فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه ، فلما أبطأ عليهم دخلوا عليه ، فظنوه عيسى ، فقتلوه وصلبوه.

وقال قتادة : ذكر لنا أن عيسى عليه السّلام قال لأصحابه : أيكم يقذف عليه شبهى فيقتل؟ فقال رجل : أنا يا رسول الله ، فقتل ذلك الرجل ، ورفع عيسى عليه السّلام ، وكساه الريش وألبسه النور ، وقطع

عنه لذة المطعم والمشرب وصار مع الملائكة ، فهو معهم فى السماء إنسيا ملكيا ، أرضيا سماويا.
وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ فقال بعض اليهود : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان صاحبنا فأين عيسى؟ ويقال : إن الله تعالى ألقى شبه وجه عيسى على صاحبهم ، ولم يلق عليه شبه جسده ، فلما

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٨٨
قتلوه ونظروا إليه ، فقالوا : الوجه وجه عيسى والجسد جسد صاحبنا. ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ أي :
لا علم لهم بقتله ، لكن يتبعون الظن فقط. وَما قَتَلُوهُ قتلا يَقِيناً كما زعموا بقولهم : إنا قتلنا المسيح ، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ فهو فى السماء الثانية مع يحيى عليها السلام ، وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً أي : قويا بالنقمة على اليهود ، حكيما فيما حكم عليهم من اللعنة والغضب. والله تعالى أعلم.
الإشارة : نقض عهود الشيوخ من أسباب المقت والبعد عن الله ، وكذلك الإنكار عليهم والطعن فيهم ، وكذلك البعد عن وعظهم وتذكيرهم ، وضد هذا من موجبات القرب والحب من الله ، كحفظ حرمتهم ، والوقوف مع أوامرهم ، والذب عنهم حين تهتك حرمتهم ، والدنو منهم ، والسعى فى خدمتهم. وبالله التوفيق.
ثم ذكر نزول عيسى فى آخر الزمان ، فقال :
[سورة النساء (٤) : آية ١٥٩]
وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (١٥٩)
يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أي : ما من يهودى ولا نصرانى ، أي : الموجودين حين نزوله إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بعيسى قَبْلَ مَوْتِهِ أي : عيسى ، وذلك حين نزوله من السماء ، روى أنه ينزل من السماء حين يخرج الدجال فيهلكه ، ولا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن به ، حتى تكون الملة واحدة ، وهى ملة الإسلام ، وتقع الأمنة حتى يرتع الأسود مع الإبل ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات ، ويلبث فى الأرض أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه.
وقيل الضمير فى (به) إلى عيسى ، وفى (موته) إلى الكتابي ، أي : وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى بأنه عبد الله ورسوله ، قَبْلَ مَوْتِهِ أي : قبل خروج نفس ذلك الكتابي إذا عاين الملك ، فلا ينفعه حينئذ إيمانه ، لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل. ويؤيد هذا قراءة من قرأ : ليؤمنّ به قبل موتهم بضم النون ، لأن (أحدا) فى معنى الجمع ، وهذا كالوعيد لهم

والتحريض على معاجلة الإيمان به من قبل أن يضطر إليه ولم ينفعه إيمانه ، وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً يشهد على اليهود بالتكذيب ، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله. والله تعالى أعلم الإشارة : عند الموت تتحقق الحقائق ، ويتميز الحق من الباطل ، ويحصل الندم ، ولا ينفع حين تزل القدم ، فالمطلوب المبادرة بتحقيق الإيمان ، وتحصيل مقام العرفان ، قبل أن يسقط إلى جنبه ، فينفرد رهينا فى قبره بذنبه.

والله تعالى أعلم.

(٥٨٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٨٩

ثم ذكر وبال ظلمهم وعدوانهم فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٦٠ الى ١٦١]

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٦١)

يقول الحق جل جلاله : فبسبب ظلم مِنَ الَّذِينَ هادُوا وهو نقضهم الميثاق ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء ، حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ كانت أُحِلَّتْ لَهُمْ كالشحوم ، وكل ذى ظفر ، وغير ذلك من لذيذ الطيبات ، وكانوا كلما ارتكبوا كبيرة حرّم عليهم شيئا من الطيبات ، وحرمنا ذلك أيضا عليهم بِصَدِّهِمْ عن طريق اللَّهِ صدا كَثِيراً ، أي : بإعراضهم عنه إعراضا كثيرا ، أو بصدهم عنه ناسا كثيرا كانوا يخذّلونهم عن الدخول فى دين الله ، وبأخذهم الربا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ، فهو محرم عليهم وعلى الأمة المحمدية ، وبأكلهم أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ كالرشوة وما كانوا يأخذونه من عوامهم ، وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم عَذاباً أَلِيماً ، دون من تاب وآمن به.

الإشارة : اعلم أن كل غفلة ومعصية وسوء أدب يحرم مرتكبه بسببه من لذيذ الطاعات وحلاوة المشاهدات على قدره ، شعر أو لم يشعر ، وقد يبعده من الحضرة وهو لا يشعر ، مكرا واستدراجا ، فإذا أصر عليه سلب من مقام الولاية بالكلية ، ولا يزال ينقص إيمانه شيئا فشيئا ، حتى يتفلت منه ، والعياذ بالله ، وإذا بادر بالتوبة رجى قبوله ، وكل يقظة وطاعة وحسن أدب يوجب لصاحبه الزلفى والقرب من الحضرة ، ويزيده فى حلاوة المعاملة والمشاهدة على قدره ، فلا يزال يتقرب إليه بنوافل الخيرات ، حتى يحبه فيتولاه ، فيكون سمعه وبصره ، كما فى الحديث.

وبالله التوفيق.

ثم استثنى من تاب من اليهود ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٦٢]

لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (١٦٢)

(٥٨٩/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩٠

قلت : والمؤمنون عطف على الراسخين ، و(يؤمنون) : حال منهم. و(المقيمين) : نصب على المدح ، لأن العرب إذا تطاولت فى مدح شىء أو ذمه خالفوا بين إعراب أوله وأوسطه ، نظيره : وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ. وقالت عائشة رضي اللّه عنهما : هو لحن من الكتّاب «١» ، وفى مصحف ابن مسعود : (و المقيمون) بالرفع على الأصل.

يقول الحق جل جلاله : ليس أهل الكتاب كلهم كما ذكرنا ، لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ كعبد الله ابن سلام ، ومخيريق ، وغيرهما ممن له علم بالكتب المتقدمة ، وَالْمُؤْمِنُونَ منهم بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، من عوامهم حال كونهم يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ أي : يؤمنون إيمانا كاملا بلا تفريق ، وأخص الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ ، المتقنين لها ، الْمُؤْتُونَ الزَّكاةَ المفروضة ، وَالْمُؤْمِنُونَ منهم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، على صفة ما جاء به القرآن من البعث بالأجسام والحساب وغير ذلك مما هو مقرر فى السنة ، أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً ، فتكون الآية كلها فى أهل الكتاب.

أو يقول الحق جل جلاله : لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ من أهل الكتاب ، وَالْمُؤْمِنُونَ بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، من العرب ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ منهم ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً.

الإشارة : كل من تحققت توبته بعد عصيانه ، وظهرت يقظته بعد غفلاته ، ورسخ فى العلم بالله وبصفاته وأسمائه التحق بالسابقين ، وحشر مع المقربين ، وكان ممن أوتى أجرا عظيما وخيرا جسيما ، والحمد لله رب العالمين.

ثم أجاب أهل الكتاب عن سؤالهم أن ينزل عليهم كتابا من السماء فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٦٣ الى ١٦٥]

إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارُونَ وَسُلَيْمانَ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً (١٦٤) رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٦٥)

(١) رد العلماء والمفسرون على هذا الخبر ، ومنهم الإمام ابن جرير الطبري الذي قال : لو كان ذلك خطأ من الكاتب لكان الواجب أن يكون فى كل المصاحف غير مصحفنا الذي كتبه لنا الكاتب ، الذي أخطأ فى كتابه. وفى اتفاق مصحفنا ومصحف أبى فى ذلك ما يدل على أن الذي فى مصحفنا من ذلك صواب غير خطأ. مع أن ذلك لو كان خطأ من جهة الخط لم يكن الذين أخذ عنهم القرآن من أصحاب رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم يعلّمون من علموا ذلك من المسلمين على وجه اللحن ، ولأصلحوه ولقنوه الأمة تعليما على وجه الصواب. وفى نقل المسلمين جميعا ذلك قراءة على ما هو به فى الخط مرسوما ، أدل الدليل على صحة ذلك وصوابه ، وأن لا صنع فى ذلك للكاتب. انظر : تفسير الطبري بتعليق الشيخ شاكر – والإتقان للسيوطى ، وتفسير الرازي.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩١

قلت : من قرأ (زبورا) بالفتح ، فالمراد به كتاب الزبور ، ومن قرأ بالضم ، فجمع «زبر» بكسر الزاى وسكون الباء ، بمعنى مزبورا ، أي : مكتوبا ، أي : آتينا داود كتبا متعددة ، و(رسلا) : منصوب بمحذوف دل عليه «أوحينا» ، أي : أرسلنا رسلا ، أو يفسره ما بعده ، أي : قصصنا عليك رسلا ، و(رسلا مبشرين) : منصوب على البدل ، أو على المدح ، أو بإضمار أرسلنا ، أو على الحال الموطئة لما بعده ، كقولك : مررت بزيد رجلا صالحا.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ يا محمد كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ولم يكن ينزل عليهم الكتاب جملة واحدة ، كما سألك أهل الكتاب تعنيتا ، بل كان ينزل عليهم الوحى شيئا فشيئا ، فأمرك كأمرهم. وقدّم نوحا عليه السّلام لأنه أبو البشر بعد آدم ، وأول نبى من أنبياء الشريعة ، وأول نذير على الشرك ، وأول رسول عذبت أمته بدعوته ، وأطول الأنبياء عمرا ، وجعلت معجزته فى نفسه ، فإنه عمّر ألف سنة ، ولم تنقص له سن ، ولم تنقص له قوة ، ولم تشب له شعرة ، ولم يبالغ أحد فى تأخير الدعوة ما بالغ هو عليه السّلام ، ولم يصبر أحد على أذى قومه ما صبر هو ، كان يشتم ويضرب حتى يغمى عليه.

ثم قال تعالى : وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ أي : الأحفاد ، وهم أنبياء بنى إسرائيل ، وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارُونَ وَسُلَيْمانَ ، وإنما خصهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تعظيما لهم ، فإن إبراهيم أول أولى العزم منهم ، وآخرهم عيسى عليه السّلام ، والباقون أشراف الأنبياء ومشاهيرهم ، وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً أي : كتاب الزبور ، أو زبورا أي : صحفا متعددة ، وأرسلنا رُسُلًا قَدْ

قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ أي : من قبل هذه السورة ، أو قبل هذا اليوم ، وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وفى الحديث :

«عددهم ثلاثمائة وأربعة عشر» ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً حقيقيا ، خصّ به من بين الأنبياء ، وزاد نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم بالرؤية مع الكلام.

قال الورتجبي : بادر موسى عليه السّلام من بين الأنبياء لسؤال الرؤية ، فأوقفه الحق فى مقام سماع كلامه ، ومنعه من مشاهدة رؤيته صرفا ، وتحمل نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم أثقال السر بمطايا أسراره ، ولم يسأل مشاهدة الحق جهرا بالانبساط ، فأوصله الله إلى مقام مشاهدته ، ثم أسمعه كلامه بلا واسطة ولا حجاب. قال تعالى : فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى

. هـ. وقال ابن عطية : كلامه تعالى لموسى دون تكييف ولا تحديد ، وكما أن الله تعالى موجود لا كالموجودات معلوم لا كالمعلومات ، فكذلك كلامه لا كالكلام. هـ.

ثم ذكر حكمة إرسال الرسل فقال : أرسلنا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ بعث الرُّسُلِ فيقولون : لو لا أرسلت إلينا رسولا ينبهنا ويعلمنا ما جهلنا من أمر توحيدك والقيام بعبوديتك ،

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩٢

فقطع عذر العباد ببعث الرسل ، وقامت الحجة عليهم ، وفى الحديث عنه – عليه الصلاة والسلام – : «ما أحد أغير من اللّه ، ولذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وما أحد أحبّ إليه المدح من اللّه ، ولذلك مدح نفسه ، وما أحد أحبّ إليه العذر من اللّه تعالى ، ولذلك أرسل الرّسل وأنزل الكتب».

وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً لا يغلب ، فلا يجب عليه شيء ، حَكِيماً فيما دبر من النبوة ، وخص كل نبى بنوع من الوحى والإعجاز على ما يليق به فى زمانه. والله تعالى أعلم.

الإشارة : علماء هذه الأمة كأنبياء بنى إسرائيل ، العارفون منهم كالرسل منهم ، قال ابن الفارض رضي اللّه عنه :

فعالمنا منهم نبى ، ومن دعا إلى الحقّ منّا قام بالرسليّة «١»

وعارفنا فى وقتنا الأحمدىّ من أولى العزم منهم آخذ بالعزيمة

فإنهم يشاركونهم فى وحي الإلهام ، ويحصل لهم المكالمة مع المشاهدة ، فيسمعون من الحق كما ينطقون به. كما قال الششترى :

أنا بالله أنطق ومن الله أسمع

فتارة يسمعون كلامه بالوسائط ، وتارة من غير الوسائط ، يعرف هذا أهل الفن من أهل الذوق ، وشأن من لم يبلغ مقامهم : التسليم.

إن لم تر الهلال فسلّم لأناس رأوه بالأبصار

وفى الورتجبي : وإن الله تعالى إذا أراد أن يسمع كلامه أحدا من الأنبياء والأولياء يعطيه سمعا من أسماعه ، فيسمع به كلامه ، كما حكى – عليه الصلاة والسلام – عنه – تعالى – ، قال : (فإذا أحببته كنت سمعه ....) ، الحديث.

أسمعه كلامه ، وليس هناك الحروف والأصوات ، بل أسمعه بحرف القدرة وصوت الأزلية ، الذي هو منزه عن همهمة الأنفاس وخطرات الوسواس ، وليس فى ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شىء ، حتى هناك السامع والمسمع واحد من حيث المحبة ، لا من حيث الجمع والتفرقة. انتهى كلامه.

واعلم أن أهل الجمع لا يشهدون إلا متكلما واحدا ، قد انتفى من نظرهم التعدد والاثنينية ، غير أنهم يفرقون بين كلام القدرة وكلام الحكمة ، كلام القدرة يبرز من غير اختيار ، بل يكون المتكلم به مأخوذا عنه ، غائبا عن اختياره ،

---

(١) فى الأصول : بالرسالة. قلت : والرسلية : تأدية الرسالة.

وكلام الحكمة معه ضرب من الاختيار ، وقد يسمعون كلام القدرة من الهواتف الغيبية ، ومن الجمادات على وجه الكرامة ، وكله بحرف وصوت. نعم ما يقع من الهواتف القلبية والتجليات الباطنية ، قد يكون بلا حرف ولا صوت ، وقد تحصل لهم المكالمة بالإشارة بلا صوت ولا حرف ، فقوله : (بل أسمعه بحرف القدرة وصوت الأزلية ...) إلخ.

إن أراد به التجليات الباطنية فمسلّم ، لكن ظاهره أن كلام الحق الذي يسمعه لأنبيائه وأوليائه محصور فى ذلك ، وأنه لا يكون إلا بلا حرف ولا صوت. وليس كذلك.

وقوله : (و ليس فى ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شى ء) إلخ ، معناه : لم يبق فى ولاية أهل مشاهدة الأزل من رسوم الحوادث شىء. قلت : لكنهم يثبتونها حكمة ، ويمحونها قدرة ومشاهدة ، ولا يلزم من محوها عدم صدور الكلام منها بالحرف والصوت فإن البشرية لا تطيق سماع كلام الحق بلا واسطة الحكمة ، كما هو معلوم.

والله تعالى أعلم.

ثم شهد لرسوله بالوحى والرسالة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٦٦]

لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (١٦٦)

قلت : (لكن) : حرف استدراك ، وهو عن مفهوم ما تقدم ، وكأنه قال : إنهم لا يشهدون بوحينا إليك. لكن الله يشهد بذلك.

يقول الحق جل جلاله فى الرد على اليهود لما قالوا للنبى صلّى اللّه عليه وسلم : لا نشهد لك بما أوحى إليك.

فقال تعالى : لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ إن لم يشهدوا به ، أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ أي : متلبسا بعلمه الخاص به ، وهو العلم بتأليفه على نظم يعجز عنه كل بليغ. أو متلبسا بعلمه الذي يحتاج الناس إليه فى معاشهم ومعادهم. أو بعلمه المتعلق بمن يستأهل نزول الكتب إليه ، وَالْمَلائِكَةُ أيضا يشهدون بذلك. وفيه تنبيه على أن الملائكة يودّون أن يعلم الناس صحة دعوى النبوة ، على وجه يستغنى عن النظر والتأمل ، وهذا النوع من خواص الملك ، ولا سبيل للإنسان إلى العلم بأمثال ذلك ، سوى التفكر والنظر ، فلو أتى هؤلاء بالنظر الصحيح لعرفوا نبوتك ، وشهدوا بها كما عرفت الملائكة وشهدوا. قاله البيضاوي ، وقد يخلق الله العلم فى قلب الإنسان من غير تفكر ولا نظر ، بل هداية من المالك القدير. وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً لرسوله عن شهادة غيره.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩٤

الإشارة : كما شهد الحق تعالى لرسوله بالنبوة والرسالة ، شهد لمن كان على قدمه من ورثته الخاصة بالولاية والخصوصية ، وهم الأولياء العارفون بالله ، وشهادته لهم بما أظهر عليهم من العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، وبما أتحفهم به من الأخلاق النبوية والمحاسن البهية ، وبما أظهر على أيديهم من الكرامات الظاهرة مع الاستقامة الشرعية ، لكن لا يدرك هذه الشهادة إلا من سبقت له العناية ، وكان له حظ فى الولاية. «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه! ولم يوصل إليه إلا من أراد أن يوصله إليه» وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد من أعرض عن هذه الشهادة ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٦٧ الى ١٦٩]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ

لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٦٩)

قلت : (خالدين) : حال مقدرة.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بما أنزلت على رسولنا من اليهود أو غيرهم ، وَصَدُّوا الناس عن طريق الله الموصلة إليه ، قَدْ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِيداً لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ، ولأن المضل يكون أغرق فى الضلال وأبعد عن الانقلاع. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا الناس بصدهم عما فيه صلاحهم وخلاصهم ، أو ظلموا رسول الله بإنكار نبوته وكتمان صفته ، أو ظلموا أنفسهم بالانهماك فى الكفر ، لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً ، إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ، فجرى حكمه السابق ووعده الصادق على أن من مات على الكفر مخلد فى النار ، وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً لا يصعب عليه ولا يتعاظمه.

الإشارة : إن الذين كفروا بالخصوصية وأنكروا على أهلها ، وصدوا الناس عن القصد إليها والدخول فى حزبها قد ضلوا عن طريق الوصول ضلالا بعيدا ، إذ لا وصول إلى الله إلا على يد أولياء الله لأنهم باب الحضرة ، فلا بد من الأدب معهم والخضوع لهم. إن الذين كفروا بأولياء الله ، وظلموا أنفسهم حيث حرموها الوصول ، وتركوها فى أودية الخواطر تجول ، لم يكن الله ليستر مساوئهم ويقدس سرائرهم ، ولا ليهديهم طريق المشاهدة ولا كيفية المجاهدة ، وإنما يمكنهم من طريق التعب والنصب حتى يلقوا الله بقلب سقيم ، والعياذ بالله.

(١/٥٩٤)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩٥

ولما قرر أمر النبوة ، وبيّن الطريق الموصل إلى العلم بها ، وأوعد من أنكرها ، خاطب الناس بالدعوة إليها فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٧٠]

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧٠)

قلت : (فآمنوا خيرا لكم) ، و(انتهوا خيرا لكم) : قال سيبويه : هو منصوب بفعل مضمر ، تقديره : وائتوا خيرا لكم ، وقال الخليل : منصوب بآمنوا وبانتهوا على المعنى. أي : اقصدوا. وقال الفراء : صفة لمصدر ، أي : آمنوا إيمانا خيرا لكم. وقال بعض الكوفيين : هو خبر كان المحذوفة ، وتقديره : ليكن الإيمان خيرا لكم.

قلت : وهو أظهر من جهة المعنى ، وإن منعه البصريون ، قالوا : لأنّ (كان) لا تحذف مع اسمها إلا في مواضع مخصوصة ، قال ابن مالك :

ويحذوفونها ويبقون الخبر وبعد إن ، ولو ، كثيرا ذا اشتهر

ولعل هذا الموضع أتى على غير المشهور تنبيها على الجواز.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ وهو محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، فَآمِنُوا به يكن خَيْراً لَكُمْ مما أنتم فيه من الضلال ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وما تركبتا منه ، ملكا وخلقا وعبيدا ، فهو غنى عنكم ، لا يتضرر بكفركم ، كما لا ينتفع بإيمانكم ، وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً بأحوالكم ، حَكِيماً فيما دبر لكم.

الإشارة : الذي جاء به الرسول – عليه الصلاة والسلام – هو إتقان مقام الإسلام ، وتصحيح مقام الإيمان ، الذي من أركانه : الإيمان بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، وتحقيق مقام الإحسان الذي هو مقام الشهود والعيان ، ولا يكمل هذا إلا بصحبة أهل العرفان ، الذين صححوا مقام الفناء ، وخرجوا إلى البقاء ، خاضوا بحار التوحيد ، وانفردوا بأسرار التفريد ، ورسخ فيهم مقام الرضى والتسليم ، فتلقوا المقادير كلها بقلب سليم ، فمن لم يصحبهم ويتأدب بآدابهم بقي إيمانه ناقصا ، وحقه العتاب ، فكأن الحق – تعالى – يقول على لسان الإشارة : قد جاءكم وليي ، وهو خليفة رسولى ، فآمنوا بخصوصيته ، وأذعنوا لأمره وتربيته ، يكن خيرا لكم مما أنتم فيه من المساوئ والأمراض ، لئلا تلقونى بقلب سقيم ، وبالله التوفيق.

(٥٩٥/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩٦

ثم خص أهل الكتاب بالخطاب والعتاب ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٧١]

يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١)

قلت : أصل الغلو : مجاوزة الحد فى كل شىء ، يقال : غلا بالجارية لحمها وعظمها ، إذا أسرعت إلى الشباب فجاوزت لداتها أي : أقرانها ، تغلو غلوا.

يقول الحق جل جلاله فى عتاب النصارى – بدليل ما بعده : يا أَهْلَ الْكِتابِ الإنجيل لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ فتجاوزوا الحد فيه باعتقادكم فى عيسى أنه الله ، أو ابن الله ، قصدوا تعظيمه فغلوا وأفرطوا ، وَلا

تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، وهو تنزيه عن الصاحبة والولد.
ثم بيّن الحق فيه فقال : إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ ، لا كما قالت اليهود : ليس برسول ، ولا كما قالت النصارى : إنه الله ، أو ابن الله ، وإنما هو عبد الله ورسوله ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ أي : أوصلها إليها وحصلها فيها ، وهى كلمة : كن. فتكوّن بها فى رحم أمه فسمى بها ، وَرُوحٌ مِنْهُ وهو نفخ جبريل فى جيبها فحملت بذلك النفخ ، وسمى النفخ روحا لأنه ريح يخرج عن الروح ، فكانت روحه صادرة من روح القدس ، كما قال فى آدم : نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ، وقد قال : إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، فنفخ جبريل فى الحقيقة لما كان بأمر الله صار هو نفخ الحق لأن الواسطة محذوفة عند المحققين ، فلذلك أضاف روحه إليه كروح آدم عليه السّلام.
فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أي : وحدوا الله فى ألوهيته ، وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ أي : الآلهة ثلاثة : الله ، والمسيح ، ومريم ، انْتَهُوا عن التثليث يكن خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ فى ذاته وصفاته وأفعاله ، سُبْحانَهُ أي : تنزيها له أن يكون له ولد ، لأنه لا يجانس ولا يتطرقه الفناء ، لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، ملكا وخلقا وعبيدا ، والعبودية تنافى البنوة ، وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا فلا يحتاج إلى ولد لأن الولد يكون وكيلا عن أبيه وخليفته ، والله تعالى قائم بحفظ الأشياء كاف لها ، مستغن عمن يعينه أو يخلفه لوجوب بقائه وغناه.

(٥٩٦/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩٧
واعلم أن النصارى انقسموا على أربع فرق : نسطورية ، ويعقوبية ، وملكانية ، ومرقوسية ، ومنهم نصارى نجران ، فالنسطورية ، قالوا فى عيسى هو ابن الله ، واليعقوبية ، والملكانية ، قالوا هو الله ، والمرقوسية قالوا : هو ثالث ثلاثة ، وكلهم ضالون.
الإشارة : الغلو كله مذموم ، وخير الأمور أوساطها ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «لا تطرونى كما أطرت النّصارى عيسى بن مريم ، ولكن قولوا : عبد اللّه ورسوله» ، ويرخص للفقير أن يتغالى فى مدح شيخه ، ما لم يخرجه عن طوره ، أو ينتقص غيره بمدحه ، وفى الإشارة حث على حفظ مقام التوحيد ، وتنزيهه تعالى عن الأضداد والأنداد. وفى ذلك يقول الشاعر :
أربّ وعبد ونفى ضد قلت له : ليس ذاك عندى
فقال ما عندكم؟ فقلنا : وجود فقد وفقد وجد
فإثبات العبودية مستقلة تضاد الربوبية ، ولذلك أنكرها الشاعر ، أي : أثبت ربا وعبدا ، وأنت تقول بنفي الضد عنه وفى الحكم : «الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته».

ولما قالت نصارى نجران للنبى صلّى اللّه عليه وسلم : إنك تعيب صاحبنا؟ فقال – عليه الصلاة والسلام – ومن صاحبكم؟ قالوا :

عيسى. قال : وأي شيء أقول؟ قالو : تقول إنه عبد الله. قال لهم – عليه الصلاة والسلام – «ليس بعار أن يكون عيسى عبدا للّه» ، أنزل الله تعالى :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٧٢ الى ١٧٣]

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (١٧٣)

قلت : أصل الاستنكاف : التنحية ، من قولهم : نكفت الدمع إذا نحيته بإصبعك كى لا يرى أثره عليك ، ثم أطلق على الأنفة ، والاستكبار دون الاستنكاف ، ولذا عطف عليه لأن الاستنكاف لا يستعمل إلا حيث لا استحقاق ، بخلاف الاستكبار فإنه يكون باستحقاق. قاله البيضاوي.

(٥٩٧/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩٨

يقول الحق جل جلاله فى الرد على النصارى : نْ يَسْتَنْكِفَ

أي : لن يأنفْ مَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ

فإن عبوديته لله شرف يتباهى بها ، وإنما المذلة والاستنكاف فى عبوديته لغيره ، لَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ لا يستنكفون أيضا أن يكونوا عبيدا لله ، بل ما كانوا مكرمين إلا بعبوديتهم لله ، واحتج بالآية من فضّل الملائكة على الأنبياء ، لأن المعطوف يقتضى أن يكون أرفع درجة من المعطوف عليه ، حتى يكون عدم استنكاف الملائكة كالدليل على عدم استنكاف المسيح.

والجواب : أن عطف الملائكة إنما أريد به التكثير والمبالغة ، كقولهم : أصبح الأمير اليوم لا يخالفه رئيس ولا مرؤوس ، والرئيس أفضل من المرءوس ، والتحقيق فى المسألة أن الأنبياء والرسل أفضل من خواص الملائكة كالمقربين ، وخواص الملائكة – وهم المقربون – أفضل من خواص البشر كالأولياء ، وخواص البشر أفضل من عوام الملائكة ، وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر ، ولذلك قيل : من غلب عقله على هواه ، كان كالملائكة أو أفضل ، ومن غلب هواه على عقله ، كان كالبهائم أو أضل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وعيد من استنكف عن عبوديته – تعالى – فقال : مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ

فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً

فيجازيهم فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ولم يستنكفوا عن عبادته فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا عن عبوديته وَاسْتَكْبَرُوا عن عبادته فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً أي : موجعا ، وهو النار ، وقال القشيري : العذاب الأليم : هو ألا يصلوا إليه أبدا بعد ما عرفوا جلاله ، إذ صارت معرفتهم ضرورية – أي قهرية – فحسراتهم حينئذ على ما فاتهم أشدّ عقوبة لهم. هـ. وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً.

فإن قلت : هذا التفصيل أعم من المفصل ، لأن الحشر إنما ذكر للمتكبرين والتفصيل أعم ، فالجواب : أن عموم المفصل يفهم من قوة الكلام ، فكأنه قال : فسيحشرهم للمجازاة يوم يجازى عباده جميعا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ...

إلخ ، نظيره : قولك : جمع الأمير كافة مملكته ، فأما العلماء فأكرمهم ، وأما الطغاة فقطعهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : العبودية أشرف الحالات وأرفع المقامات ، بها شرف من شرف ، وارتفع من ارتفع ، عند الله ، وما خاطب الله أحباءه إلا بالعبودية ، فقال تعالى : سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ، وقال : وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ، وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ... إلى غير ذلك.

(٥٩٨/١)

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٥٩٩

وأوصاف العبودية أربعة : الذل ، والفقر ، والضعف والجهل. ومقابلها من أوصاف الربوبية أربعة : العز ، والغنى والقوة والعلم ، فبقدر ما يظهر العبد من أوصاف العبودية يمده الحق من أوصاف الربوبية ، فبقدر ما يظهر العبد من الذل يمده من العز ، وبقدر ما يظهر من الفقر يمده بالغنى ، وبقدر ما يظهر من الضعف يمده من القوة ، وبقدر ما يظهر من الجهل يمده من العلم ، تحقق بوصفك يمدك بوصفه ، ولا يتحقق ظهور هذه الأوصاف إلا بين عباده لتمتحق بذلك أوصاف النفس.

ثم دعا الكل إلى كتابه والإيمان برسوله ، فقال :

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٧٤ الى ١٧٥]

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً (١٧٥)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وهو الرسول عليه الصلاة والسلام وما

اقترن به من المعجزات الواضحات ، وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ على لسانه نُوراً مُبِيناً وهو القرآن. أو جاءكم برهان من ربكم : المعجزات الظاهرة ، وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً : القرآن العظيم ، أي : جاءكم دليل العقل وشواهد النقل ، فلم يبق لكم عذر ولا علة.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ أي : وحدوه فى ربوبيته ، وَاعْتَصَمُوا أي : تمسكوا بدينه أو بكتابه ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وهى الجنة ، وَفَضْلٍ : النظر لوجهه الكريم ، قال البيضاوي : فِي رَحْمَةٍ أي : ثواب قدّره بإزاء إيمانه وعمله ، رحمة منه ، لا قضاء لحق واجب ، وفضل إحسان زائد عليهما. هـ. وقال القشيري : سيحفظ عليهم إيمانهم فى المآل عند التوفى ، كما أكرمهم به وبالعرفان فى الحال. هـ. وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ أي : إلى الوصول إليه ، صِراطاً مُسْتَقِيماً أي : يبيّن لهم الوصول إليه ، وهو طريق السير الذي لا عوج فيه العلم والعمل والحال ، وقال البيضاوي : هو الإسلام والطاعة فى الدنيا ، وطريق الجنة فى الآخرة. هـ.

الإشارة : قد جاءكم من يعرفكم بالله ، ويدلكم على الله ، وهم أولياء الله ، ببرهان واضح لا يخفى إلا على من كان خفاشيا ، وأنزلنا إليكم من سر قدسنا ، وبحر جبروتنا ، نورا مبينا ، تشاهدون فيه أسرار الذات وأنوار الصفات ، وهو ما ظهر من التجليات من القبضة الأولية المحمدية ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فى حال سيرهم إليه فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وهى حضرة القدس ، (و فضل) وهو الترقي فى أسرار المعارف إلى مالا نهاية له ،

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٦٠٠

ويهديهم إلى الوصول إليه ، وهو شهوده فى ذلك النور ، طريقا مستقيما توصل إليه فى أقرب زمان.

ولعل الآية فيها تقديم وتأخير ، أي : فسيهديهم إليه طريقا مستقيما يسيرون فيه ، حتى يصلوا إليه ، ثم يدخلهم فى رحمة حضرته ، وفضل زيادة معرفته. والله تعالى أعلم.

ثم ختم السورة بميراث الكلالة ، لأن آخر أحوال الإنسان الموت فيورث ماله ، وكان المناسب ذكر يوصيكم هنا ، لكنه أدرجه فى حفظ الأموال لكونه أنسب ، فقال :

[سورة النساء (٤) : آية ١٧٦]

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَها نِصْفُ ما تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُها إِنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَدٌ فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كانُوا إِخْوَةً رِجالاً وَنِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)

قلت : (فى الكلالة) ، يتعلق بيفتيكم ، ويستفتونك ، فيكون من باب التنازع ، وأعمل الثاني على اختيار

البصريين ، وعمل الأول فى الضمير المجرور حذف ، أي : يستفتونك فيها ، أو عمل الأول وحذف ضمير الثاني ، أو يكون يستفتونك مقطوعا فيوقف عليه ، أو حذف متعلقه لدلالة الجواب عليه ، أي : يستفتونك فى الكلالة ، وهو أظهر ، وتقدم تفسير الكلالة «١» ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ : ارتفع بفعل مضمر عند البصريين ، من باب الاشتغال فى المرفوع.

يقول الحق جل جلاله : يَسْتَفْتُونَكَ فى الكلالة ، والمستفتى هو جابر بن عبد الله ، كان مريضا فعاده رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم فقال : يا رسول الله. إنى كلالة ، فكيف أصنع فى مالى؟ فنزلت ، وهى آخر ما نزل من الأحكام.

قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ ، ثم بيّن الفتوى فيها فقال : إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ولا والد ، بل انقطع نسبه من الجهتين ، وَلَهُ أُخْتٌ شقيقة أو لأب فَلَها نِصْفُ ما تَرَكَ والباقي للعصبة ، ولا ميراث لها مع الأب أو الابن ، وَهُوَ يَرِثُها إن ماتت ولم يكن لها ولد ولا والد.

فإن استقل فله المال ، وإن كان معه ذو سهم أخذ الباقي ، فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فأكثر شقائق فَلَهُمَا الثُّلُثانِ مِمَّا تَرَكَ ، وإن كانت شقيقة مع الأب أخذت الشقيقة النصف ، والتي لأب السدس تكملة الثلثين ، وإن كانت لأب

---

(١) راجع تفسير الآية ١٢ من نفس السورة.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٦٠١

مع الشقيقتين فلا شيء لها ، وَإِنْ كانُوا إِخْوَةً رِجالًا وَنِساءً شقائق ، مات أخوهم ، فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، ولا شيء للأخوة لأب من الشقائق. يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الحق ، كراهية أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فهو عالم بمصالح العباد فى المحيا والممات. اللهم أحينا حياة طيبة وأمتنا موتة حسنة ، فى عافية وستر جميل ، يا أرحم الراحمين ، يا رب العالمين.

الإشارة : الكلالة من الأولياء ، هو الذي مات ولم يخلف ولدا يرث حاله ، فإن لم تكن له تلاميذ ، فإن كان له أخ يقارب حاله ، ورثه ، وقد يرث سره أخته فى النسبة ، لكن لا تستوجب ذلك كله لحكمة الله تعالى. يشير إليه قوله تعالى : فَلَها نِصْفُ ما تَرَكَ ، وإن ترك إخوة فى الشيخ اقتسموا سره كله ، كل على قدر صدقه ، والنساء الصادقات شقائق الرجال فى نيل أسرار الولاية. وقد تقدم أول السورة أن مدد الشيخ كنهر أو كبحر يصب فى القواديس ، فإذا انسدت قادوس انتقل ماؤها إلى الأخرى. والله تعالى أعلم.

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٦٠٢

البحر المديد ، ج ١ ، ص : ٦٠٣

فهرس المجلد الأول

تقديم المحقق ٥ تقديم بقلم الأستاذ الدكتور/ حسن عباس زكى ٧ كلمة الأستاذ الدكتور/ جودة محمد المهدى ١٥ ترجمة الإمام ابن عجيبة ١٩ منهج ابن عجيبة فى التفسير ٣٣ وصف النسخ ٣٩ منهج التحقيق ٤١ مقدمة المفسر ٤٩ تفسير سورة الفاتحة ٥٣ تفسير سورة البقرة ٧١ تفسير سورة آل عمران ٣٢١ تفسير سورة النساء ٤٥٩

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣

[المجلد الثاني]

سورة المائدة

مدنية. وهى مائة وعشرون آية ، وألفان وثمان مائة وأربع كلمات ، وقرأها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فى حجة الوداع ، وقال :

«يا أيها الناس ، إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولا ، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها» «١». وقال ابن عمر : (أنزلت سورة المائدة والنبي صلّى اللّه عليه وسلّم على راحلته ، فلم تستطع أن تحمله حتى نزل). وهى مكملة لما تضمنته سورة النساء من عقود الأحكام الستة ، ولذلك افتتحها بالتوصية على الوفاء بها ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلاَّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ (١)

أي : بالعهود التي عهدت إليكم أن تحفظوها ، وهى حفظ الأموال ، وحفظ الأنساب ، وحفظ الأديان ، وحفظ الأبدان ، وحفظ اللسان ، وحفظ الأيمان ، ثم مرّ معها على الترتيب ، فما ذكره هناك مستوفى ، لم يعد منه هنا إلا أصله ، وما بقي هناك فى أصل من الأصول الستة كمله هنا ، ولمّا ذكر فيما تقدم فى أول السورة حكم الأموال باعتبار الملك ، ولم يتكلم على ما يحل منها وما يحرم ، تكلم هنا على ذلك ، فقال : أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ...

قلت : إضافة (بهيمة الأنعام) : للبيان ، كثوب خزّ ، أي : البهيمة من الأنعام ، و(غير محلى الصيد) : حال ، قال الأخفش : من فاعل «أوفوا» ، وفيه معنى النهى ، وقال الكسائي : من ضمير (لكم) كما تقول : أحل لكم الطعام غير مفسدين فيه ، فإن قلت : الحال قيد لعاملها ، والحلّية غير خاصة بوقت حرمة الصيد؟ قلت : لمّا كانت الحاجة إليها فى ذلك الوقت أكثر ، خص الحلية به ليكون أدعى للشكر ، ويؤخذ عموم الحلّية من سورة الحج «٢».

يقول الحق جل جلاله : أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ أي : الأنعام كلها ، وهى الإبل والبقر والغنم ، إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ بعد فى قوله : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ... الآية «٣» ، حال كونكم غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (التفسير ٢/ ٣١١) موقوفا على (أم المؤمنين عائشة) رضى اللّه عنها. وصححه ووافقه الذهبي.

وفى الفتح السماوي (٢/ ٥٥٢) نقلا عن الحافظ ابن حجر : لم نقف عليه مرفوعا.

(٢) فى قول اللّه تعالى : أُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ .. الآية/ ٣٠.

(٣) الآية الثالثة من السورة نفسها.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤

فى حال الإحرام ، ومعنى الآية فى الجملة : أحلت الأنعام كلها إلا ما يتلى عليكم من الميتة وأخواتها ، لكن الصيد فى حال الإحرام حرام عليكم ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ من تحليل أو تحريم.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود التي عقدتموها على نفوسكم فى حال سيركم إلى حضرة ربكم ، من مجاهدة ومكابدة ، فمن عقد عقدة مع ربه فلا يحلها ، فإن النفس إذا استأنست بحل العقود لم ترتبط بحال ، ولعبت بصاحبها كيف شاءت ، وأوفوا بالعقود التي عقدتموها مع أشياخكم بالاستماع والاتباع إلى مماتكم ، وأوفوا بالعقود التي عقدها عليكم الحق تعالى ، من القيام بوظائف العبودية ، ودوام مشاهدة عظمة الربوبية ، فإن أوفيتم بذلك ، فقد أحلت لكم الأشياء كلها تتصرفون

فيها بهمتكم لأنكم إذا كنتم مع المكون كانت الأكوان معكم. إلا ما يتلى عليكم مما ليس من مقدوركم مما أحاطت به أسوار الأقدار ، «فإن سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار» ، غير متعرضين لشهود السّوى وأنتم فى حرم حضرة المولى. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا نهى عن التعرض للصيد فى الحرم ، نهى عن تغيير المناسك والتعرض للحجّاج لأنه من تعظيم حرمة الحرم ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٢]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْواناً وَإِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢)

قلت : الشعائر : جمع شعيرة ، وهى اسم ما أشعر ، أي : جعل علامة على مناسك الحج ومواقفه ، و(لا يجرمنكم) أي : يحملنكم ، أو يكسبنكم ، يقال : جرم فلان فلانا هذا الأمر ، إذا أكسبه إياه وحمله عليه. والشنآن : هو البغض والحقد ، يقال : بفتح النون وإسكانها ، و(أن صدوكم) مفعول من أجله ، و(أن تعتدوا) مفعول ثان ليجرمنكم. ومن قرأ : (إن صدوكم) ، بالكسر فشرط ، أغنى عن جوابه : (لا يجرمنكم).

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ أي : لا تستحلوا شيئا من ترك المناسك ، وذلك أن الأنصار كانوا لا يسعون بين الصفا والعروة ، وكان أهل مكة لا يخرجون إلى عرفات ، وكان أهل اليمن يرجعون من عرفات ، فأمرهم اللّه ألّا يتركوا شيئا من المناسك ، أي : لا تحلوا ترك شعائر اللّه وَلَا تحلوا

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥

الشَّهْرَ الْحَرامَ بالقتال أو السّبى ، وهذا قبل النسخ ، وَلَا تحلوا الْهَدْيَ ، أي : ما أهدى إلى الكعبة ، فلا تتعرضوا له ولو من كافر ، وَلَا تحلوا الْقَلائِدَ أي : ذوات القلائد ، وهى الهدى المقلدة ، وعطفها على الهدى للاختصاص فإنها أشرف الهدى ، أي : لا تتعرضوا للهدى مطلقا. والقلائد جمع قلادة ، وهى : ما قلد به الهدى من نعل أو لحاء الشجر ، أو غيرهما ، ليعلم به أنه هدى فلا يتعرض له ، وَلَا تحلوا آمِّينَ أي : قاصدين البيت الحرام ، أي : قاصدين لزيارته ، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْواناً أي : يطلبون رزقا بالتجارة التي قصدوها ، ورضوانا بزعمهم لأنهم كانوا كفارا.

وذلك ، أن الآية نزلت فى الحطم بن ضبيعة ، وذلك أنه أتى المدينة ، فخلّف خيله خارج المدينة ، ودخل وحده إلى النّبى صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : إلام تدعو النّاس إليه؟ فقال له : «إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه وإقام الصّلاة وإيتاء الزكاة».

فقال : حسن ، إلا أن لى أمراء لا أقطع أمرا دونهم ، ولعلى أسلم ، فخرج وغار على سرح المدينة فاستاقه ، فلما كان فى العام المقبل خرج حاجّا مع أهل اليمامة ، ومعه تجارة عظيمة ، وقد قلّد الهدى ، فقال المسلمون للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم : هذا الحطم قد خرج حاجّا فخلّ بيننا وبينه؟ فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنه قلد الهدى» ، فقالوا يا رسول اللّه : هذا شىء كنا نفعله فى الجاهلية – أي : تقية – ، فأبى عليهم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فنزلت الآية «١».

وقال ابن عباس : كان المشركون يحجون ويهدون ، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم ، فنهاهم اللّه تعالى بالآية.

وَإِذا حَلَلْتُمْ من الحج والعمرة فَاصْطادُوا ، أمر إباحة لأنه وقع بعد الحظر ، وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ أي : لا يحملنكم ، أو لا يكسبنكم شَنَآنُ قَوْمٍ أي : شدة بغضكم لهم لأجل أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ عام الحديبية أَنْ تَعْتَدُوا بالانتقام منهم بأن تحلوا هداياهم وتتعرضوا لهم فى الحرم. قال ابن جزى : نزلت عام الفتح حين ظفر المسلمون بأهل مكة ، فأرادوا أن يستأصلوهم بالقتل لأنهم كانوا قد صدوهم عن المسجد الحرام عام الحديبية ، فنهاهم اللّه عن قتلهم لأن اللّه علم أنهم يؤمنون. هـ. ثم نسخ ذلك بقوله : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ. «٢»

ثم قال تعالى : وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى كالعفو ، والإغضاء ، ومتابعة الأمر ، ومجانبة الهوى. وقال ابن جزى : وصية عامة ، والفرق بين البر والتقوى أن البر عام فى الواجبات والمندوبات ، فالبر أعم من التقوى هـ.

وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ كالتشفى والانتقام. قال ابن جزى : الإثم : كل ذنب بين اللّه وعبده ، والعدوان : على الناس. هـ. وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ فانتقامه أشد.

الإشارة : قد أمر الحق – جل جلاله – بتعظيم عباده ، وحفظ حرمتهم كيفما كانوا ، «فالخلق كلهم عيال اللّه ، وأحب الخلق إلى اللّه أنفعهم لعياله» ، فيجب على العبد كف أذاه عنهم وحمل الجفا منهم ، وألّا ينتقم لنفسه ممن آذاه

---

(١) أخرجه ابن جرير عن عكرمة. وذكره الواحدي فى الأسباب ، عن ابن عباس.

(٢) من الآية ٥ من سورة التوبة.

منهم ، ولا يحمله ما أصابه منهم على أن يعتدى عليهم ولو بالدعاء ، بل إن وسّع اللّه صدره بالمعرفة قابلهم بالإحسان ، ودعا لعدوه بصلاح حاله حتى يأخذ اللّه بيده ، وهذا مقام الصديقية العظمى والولاية الكبرى ، وهذا غاية البر والتقوى الذي أمر اللّه – تعالى – بالتعاون عليه ، والاجتماع إليه ، دون الاجتماع على الإثم والعدوان ، وهو الانتصار للنفس والانتقام من الأعداء ، فإن هذا من شأن العوام ، الذين هم فى طرف مقام الإسلام. واللّه تعالى أعلم.

ثم بيّن ما وعد به فى قوله : إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٣]

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَما أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ ما ذَكَّيْتُمْ وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)

يقول الحق جل جلاله : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ أي : ما ماتت حتف أنفها بلا ذكاة ، وَالدَّمُ المسفوح ، أي : المهروق ، وكانت الجاهلية يصبونه فى الأمعاء ، ويشوونها ، ورخص فى الباقي فى العروق بعد التذكية ، وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ، وكذا شحمه وسائر أجزائه المتصلة ، بخلاف الشعر المجزو ، وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ أي : رفع الصوت عليه عند ذبحه بغير اللّه ، كقولهم : باسم اللات والعزى ، وكذا ما ترك عليه اسم اللّه عمدا ، عند مالك وَالْمُنْخَنِقَةُ بحبل وشبهه حتى ماتت ، وَالْمَوْقُوذَةُ أي : المضروبة بعصا أو بحجر أو شبهه ، من : وقذته وقذا :

ضربته ، وَالْمُتَرَدِّيَةُ أي : الساقطة من جبل أو فى بئر وشبهه فماتت ، وَالنَّطِيحَةُ التي نطحتها أخرى فماتت ، فإن لم تمت فإن كان فى العصران الأعلى فكذلك ، لا فى الأسفل أو الكرش.

وَما أَكَلَ السَّبُعُ أي : أكل بعضه وأنفذ مقتله ، والسبع : كل حيوان مفترس كالذئب والأسد والنمر والثعلب والنمس والعقاب والنسر إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ أي : إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك. قاله البيضاوي.

وقال ابن جزى : قيل : إنه استثناء منقطع ، وذلك إذا أريد بالمنخنقة وأخواتها : مامات من ذلك بالخنق وما بعده ، أي : حرمت عليكم هذه الأشياء ، لكن ما ذكيتم من غيرها فهو حلال ، وهذا ضعيف ، وقيل : إنه استثناء متصل ، وذلك إن أريد بالمنخنقة وأخواتها ما أصابته تلك الأسباب وأدركت حياته. والمعنى : إلا ما أدركتم حياته من هذه الأشياء ، فهو حلال ، واختلف أهل هذا القول هل يشترط أن يكون لم تنفذ مقاتله ، أم لا؟ فالأئمة كلهم على عدم الاشتراط إلا مالكا – رحمه اللّه – ، وأما من لم تشرف على الموت من هذه الأسباب ، فذكاتها جائزة باتفاق. هـ.

وَحرم عليكم أيضا : ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ، وهى أحجار كانت منصوبة حول البيت ، يذبحون عليها

ويعدون ذلك قربة ، وليست بالأصنام لأن الأصنام مصورة ، والنصب غير مصورة ، وقيل : (على) بمعنى اللام ، أي : وما ذبح للنصب ، والمراد : كل ما ذبح لغير اللّه.

(٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٧

وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ أي : تطلبوا ما قسم لكم فى الأزل من المقادير بالأزلام ، جمع زلم – بضم الزاى وفتحها – وهى الأقداح على قدر السهام. وكانت فى الجاهلية ثلاثة ، قد كتب على أحدها : افعل ، وعلى الآخر :

لا تفعل ، وعلى الثالث : مهمل ، فإذا أراد الإنسان أن يعمل أمرا جعلها فى خريطة ، وأدخل يده وأخرج أحدها ، فإن خرج له الذي فيه «افعل» فعل ما أراد ، وإن خرج الذي فيه «لا تفعل» ، تركه ، وإن خرج المهمل أعاد الضرب ، ويقاس عليه كل ما يدخل فى علم الغيب ، كالقريعة والحظ والنصبة والكهانة ، وشبهها.

ذلِكُمْ فِسْقٌ ، الإشارة إلى المحرمات المذكورة ، أو إلى الاستقسام بالأزلام ، وإنما كان فسقا لأنه دخول فى علم الغيب الذي انفرد اللّه به ، وفيه تجسس على سر الملك ، وهو حرام ، ولا يعارض ما ثبت جوازه من القرعة ، فى أمور مخصوصة كتمييز الأنصبة فى القسمة ، «وقد كان – عليه الصلاة والسلام – يقترع بين نسائه» ، وغير ذلك مما تفيد تطييب القلوب ، دون الاطلاع على علم الغيوب. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : حرمت عليكم يا معشر المريدين طلب الحظوظ والشهوات ، وما تموت به قلوبكم من الانهماك فى الغفلات ، وتناول ما أعطيكم لغير وجه اللّه ، وقبضتموه من غير يد اللّه ، بأن نظرتم حين قبضه إلى الواسطة ، وغفلتم عن المعطى حقيقة ، فمقتضى شريعة الخواص : إخراجه عن الملك ، وحرمان النفس من الانتفاع به ، كما وقع لبعض الأولياء ، ولا تتناولوا من الطعام إلا ما ذكيتموه بأن شهدتم فيه المنعم دون الوقوف مع النعمة ، ونزلتم إليه بالإذن ، دون قصد الشهوة والمتعة ، وهذا يحتاج إلى تيقظ كبير ومراقبة قوية. واللّه يتجاوز عن أمثالنا بحلمه وكرمه. آمين.

ولمّا حرّم اللّه تعالى هذه الأشياء حصل للمشركين الإياس من موافقة المسلمين لهم فى دينهم ، فلذلك ذكره الحق تعالى بإثر تحريمها ، فقال :

... الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ...

يقول الحق جل جلاله : الْيَوْمَ الذي أنتم فيه ، وهو يوم الجمعة ، ويوم عرفة فى حجة الوداع ، يَئِسَ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ أن يبطلوه ، أو يظهروا عليه بحصول المباينة لهم فى أمورهم كلها ، ولظهور الإسلام فيه وكثرة المسلمين ، قيل : إنه وقف معه صلّى اللّه عليه وسلّم فى هذه الحجة : مائة ألف وأربعة عشر ألفا ، ويحتمل أن يريد باليوم الزمان الحاضر ، وما يتصل به من الأزمنة الآتية ، فَلا تَخْشَوْهُمْ أن يظهروا عليكم ، وَاخْشَوْنِ وحدي فأمرهم بيدي.

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ بالنصر والإظهار على الأديان كلها ، أو بالتنصيص على قواعد العقائد ، والتوقيف على أحوال الشرائع وقوانين الاجتهاد ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي بالهداية والتوفيق ، أو بإكمال الدين ، وبالفتح والتمكين ، بهدم منار الكفر ، ومحو علل الملحدين ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً أي : اخترته لكم من بين الأديان ، الذي لا نرتضى غيره ولا نقبل سواه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٨

الإشارة : إذا حصل المريد على أسرار التوحيد ، وخاض بحار التفريد ، وذاق حلاوة أسرار المعاني ، وغاب عن شهود حس الأوانى ، وحصل له الرسوخ والتمكين فى ذلك ، أيس منه الشيطان وسائر القواطع ، فلا يخشى أحدا إلا اللّه ، ولا يركن إلى شيء سواه ، وأمن من الرجوع فى الغالب ، إلا لأمر غالب ، وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ. ولذلك قال بعضهم : (و اللّه ما رجع من رجع إلا من الطريق ، وأما من وصل فلا يرجع).

والوصول هو التمكين فيما ذكرنا ، فإذا حصل على كمال المعرفة ، ووقف على عرفة المعارف ، فقد كمل دينه واستقام أمره ، وظهرت أنواره ، وتحققت أسراره ، وما بقي إلا الترقي فى الأسرار أبدا سرمدا ، والسير فى المقامات كسير الشمس فى المنازل ، ينتقل فيها من مقام إلى مقام ، بحسب ما يبرز من عنصر القدرة ، فتارة يبرز معه ما يوجب الخوف ، وتارة ما يوجب الرجاء ، وتارة ما يوجب الرضا والتسليم ، وتارة ما يوجب التوكل ، وهكذا يتلون مع كل مقام ويقوم بحقه ، ولا يقف مع مقام ولا مع حال ، لأنه خليفة اللّه فى أرضه ، وقد قال تعالى : كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ «١» ، وهذا هو التلوين بعد التمكين. واللّه تعالى أعلم.

ثم استثنى من تلك المحرمات حالة المضطر ، فقال :

...

فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ قال البيضاوي : هو متصل بذكر المحرمات ، وما بينهما اعتراض مما يوجب التجنب عنها ، وهو أن تناولها فسوق ، وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضى. هـ.

يقول الحق جل جلاله : فَمَنِ اضْطُرَّ إلى تناول شيء من هذه المحرمات فِي مَخْمَصَةٍ أي : مجاعة ، حال كونه غَيْرَ مُتَجانِفٍ أي : مائل للإثم وقاصد له ، بأن يأكلها تلذذا أو متجاوزا حد الرخصة ، قيل : هو سد الرمق ، وقال ابن أبى زيد : يأكل منها ويتزود ، فإن استغنى عنها طرحها. هـ. فإن تناولها للضرورة فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ له رَحِيمٌ به حيث أباحها له فى تلك الحالة.

الإشارة : قال بعض الحكماء : الدنيا كلها كالميتة ، لا يحل منها للذاكر إلا قدر الضرورة أكلا وشربا ، وملبسا ومركبا ، حتى يتحقق له الوصول ، فما بقي لأحد حينئذ ما يقول ، وعلامة الوصول : هو الاكتفاء بالله دون الاحتياج لشيء سواه ، إن افتقر اغتنى فى فقره ، وإن ذل عز فى ذله ، وإن فقد وجد فى فقده ، وهكذا فى تقلبات الأحوال لا يتضعضع ولا يتزلزل ، ولو سقطت السماء على الأرض. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا ذكر ما حرّم عليهم ذكر ما أحل لهم ، فقال :

---

(١) من الآية/ ٢٩ من سورة الرحمن.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٩

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٤ الى ٥]

يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَطَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (٥)

قلت : لم يقل ماذا أحل لنا لأن «يسألونك» بلفظ الغيبة ، وكلا الوجهين شائع فى أمثاله. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : يَسْئَلُونَكَ يا محمد عن الذي أُحِلَّ لَهُمْ من المآكل ، بعد الذي حرم عليهم من الخبائث ، فقل لهم. أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وهو عند مالك : ما لم يدل دليل على تحريمه من كتاب ولا سنة ، وعند الشافعي : ما يستلذه الطبع السليم ولم يفرّ عنه ، فحرم الخنافس وشبهها ، وَأحل لكم صيد ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ أي : الكواسب ، وهى الكلاب ونحوها ، مما يصطاد به ويكسب الصيد على أهله ، من سباع وذوات أربع ، وطير ، ونحوها ، حال كونكم مُكَلِّبِينَ أي : معلمين لها الاصطياد ،

أي : مؤدبين لها ، تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ من الحيل وصدق التأديب ، فإن العلم بها إلهام من اللّه ، أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة من اللّه لابن آدم.

وحد التعليم عند ابن القاسم : أن يفهم الجارح الإشلاء والزجر ، وقيل : الإشلاء أي : التسلط – فقط ، وقيل : الزجر فقط ، وقيل : أن يجيب إذا دعى.

فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ولم يأكل منه ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «وإن أكل ، فلا تأكل فإنّما أمسك على نفسه» «١».

وهو مذهب الشافعي ، وقال مالك : يؤكل مطلقا لما فى بعض الأحاديث : «وإن أكل فكل» «٢» ، وقال بعضهم : لا يشترط ذلك فى سباع الطير لأن تأديبها إلى هذا الحد متعذر.

وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ أي : على ما علمتم عند إرساله ، ولو لم ير المرسل عليه ، وكذا عند الرمي بالمحدد ونحوه ، فإن سمى على شيء معين ووجد غيره لم يؤكل ، أو التبس مع غيره ، وإن سمى على ما وجد أكل الجميع ، ولا بد من نية الذكاة عند الإرسال أو الرمي ، واختلف فى حكم التسمية ، فقال الظاهرية : إنها واجبة مطلقا ، فإن تركت عمدا أو سهوا لم تؤكل عندهم ، وقال الشافعي : مستحبة ، حملا للأمر على الندب ، فإن تركت عمدا أو سهوا أكلت عنده.

---

(١) بعض حديث أخرجه البخاري في (الذبائح والصيد ، باب إذا أكل الكلب) ومسلم فى (الصيد والذبائح ، باب الصيد بالكلاب المعلمة) من حديث عدى بن حاتم.

(٢) أخرجه ابو داود فى (الصيد ، باب فى الصيد) عن أبى ثعلبه الخشني.

وفى التوفيق بين الحديثين قال الخطابي فى معالم السنن : يجعل حديث أبى ثعلبه أصلا فى الإباحة ، وأن يكون النهى فى حديث عدى على معنى التنزيه دون التحريم. ويحتمل أن يكون الأصل فى ذلك : حديث عدى بن حاتم ، ويكون النهى على التحريم البات ، ويكون المراد بقوله : وإن أكل ، فيما مضى من الزمان وتقدم منه ، لا فى هذه الحال ، فكأنه قال : كل منه وإن كان قد أكل فيما تقدم ، إذا لم يكن قد أكل فى هذه الحالة. انظر معالم السنن على هامش سنن أبى داود ٣/ ٢٧٢ ، وانظر أيضا : فتح الباري ٩/ ٤٩٤.

وجعل بعضهم الضمير فى عَلَيْهِ ، عائدا على الأكل ، فليس فيها على هذا أمر بالتسمية على الصيد ، ومذهب مالك : أنه إن تركت التسمية عمدا لم تؤكل ، وإن تركت سهوا أكلت ، فهى عنده واجبة

بالذكر ساقطة بالنسيان ، وهذا الخلاف جار فى الذكاة كلها.
وَاتَّقُوا اللَّهَ فى اجتناب محرماته ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ ، فيؤاخذكم على ما جلّ ودق.
الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَطَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ فيتناول الذبائح وغيرها ، ويعم أهل الكتاب اليهود والنصارى ، واستثنى علىّ – كرم اللّه وجهه – نصارى بنى تغلب ، وقال : (ليسوا على النصرانية ، ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر). ولا يلحق بهم المجوس فى ذلك ، وإن ألحقوا بهم فى الجزية ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «سنوا بهم سنة أهل الكتاب ، غير ألا تنكحوا نساءهم ، ولا تأكلوا ذبائحهم» «١» وكذلك المرتد مطلقا لا تؤكل ذكاته.
قال ابن جزى : وأما الطعام ، فهو على ثلاثة أقسام : أحدها : الذبائح ، وقد اتفق العلماء على أنها مرادة فى الآية ، فأجازوا أكل ذبائح اليهود والنصارى ، واختلفوا فيما هو محرم عليهم فى دينهم ، على ثلاثة أقوال : الجواز ، والمنع ، والكراهة ، وهو مبنى على : هل هو من طعامهم أم لا؟ فإن أريد بطعامهم ما ذبحوه ، جازت ، وإن أريد ما يحل لهم ، منع ، والكراهة توسط بين القولين. الثاني : ما لا محاولة لهم فيه ، كالقمح والفاكهة ، فهو جائز لنا اتفاقا. والثالث : ما فيه محاولة كالخبز وتعصير الزيت وعقد الجبن ، وشبه ذلك مما يمكن استعمال النجاسة فيه ، فمنعه ابن عباس لأنه رأى أن طعامهم هو الذبائح خاصة ، وأجازه الجمهور ، لأنه رأوه داخلا فى طعامهم ، وهذا إذا كان استعمال النجاسة فيه محتملا ، أما إذا تحققنا استعمال النجاسة فيه كالخمر والخنزير والميتة ، فلا يجوز أصلا ، وقد صنف الطرطوشى فى تحريم جبن النصارى ، وقال : إنه ينجس البائع والمشترى والآلة لأنهم يعقدونه على إنفحة الميتة. هـ.
وَطَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، فلا بأس أن تطعموهم من طعامكم ، وتبيعوه لهم ، وأما ما حرم عليهم ، فلا يجوز بيعه منهم. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : يسألونك أيها العارف الرباني ماذا أحل للفقراء من الأعمال والأحوال ، قل لهم : أحل لكم الطيبات ، أي : الخالص من الأعمال ، والصافي من الأحوال ، والتلذذ بحلاوة المشاهدة والمكالمة ، وما اصطادت لكم أنفسكم من العلوم اللدنية والأسرار القدسية ، بقدر تزكيتها وتربيتها ، فكلوا مما أمسكن عليكم ، أي : تمتعوا بما أتت به لكم من

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ (الزكاة ، باب جزية أهل الكتاب والمجوس) من حديث عبد الرحمن بن عوف ، بدون ذكر : (غير ألا تنكحوا نساءهم ولا تأكلوا ذبائحهم) وجاءت هذه العبارة بنحوها فى حديث أخرجه عبد الرزاق فى المصنف (٦/ ٦٩ ح ١٠٠٢٨) والبيهقي فى الكبرى (٩/ ١٩٢) عن الحسن بن محمد بن على قال : (كتب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام ، فمن أسلم قبل ، ومن أصر ضربت عليهم الجزية ، على أن لا تؤكل لهم ذبيحة ، ولا ينكح لهم امرأة).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١١

أبكار الحكم وعرائس الحقائق ، فإن أتت بشيء من علوم الحس ، فاذكروا اسم اللّه عليه ينقلب معانى ، واتقوا اللّه أن تقفوا مع شيء سواه ، (إن اللّه سريع الحساب) فيحاسبكم على الخواطر والطوارق إن لم تعرفوا فيها. اليوم أحل لكم الطيبات ، أي : حين دخلتم بلاد المعاني ورسختم فيها ، أحل لكم التمتع بالمشاهدات والمناجاة ، وطعام العلوم الظاهرة حلّ لكم تتوسعون بها ، وطعامكم حل لهم ، أي : وتذكيركم بما يقدرون عليه حلّ لهم لأن العارف الكامل يسير كل واحد على سيره ، ويتلون معه بلونه ، يقره فى بلده ويحوشه إلى ربه. نفعنا اللّه بذكره. آمين.

ثم تكلم على ما بقي من حفظ الأنساب ، وهو جواز نكاح الكتابية إذ لم يتكلم عليه فى سورة النساء ، فقال :

وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ يقول الحق جل جلاله : وأحل لكم الْمُحْصَناتُ أي : الحرائر مِنَ الْمُؤْمِناتِ دون الإماء ، إلا لخوف العنت ، أو العفيفات دون البغايا ، فإن نكاحها مكروه ، وَأحل لكم الْمُحْصَناتُ أي : الحرائر مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، فأحل اللّه نكاح اليهودية والنصرانية الحرتين دون إمائهم ، إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ أي :

أعطيتموهن مهورهن. فلا يجوز نكاح الكتابية إلا بصداق شرعى. حال كونكم مُحْصِنِينَ ، أي : متعففين عن الزنى بنكاحها ، غَيْرَ مُسافِحِينَ أي : مجاهرين بالزنى ، وَلا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ أي : أصحاب تسرون معهن بالزنى ، والخدن : الصاحب ، يقع على الذكر والأنثى. والمعنى : أحللنا لكم نكاح الكتابيات ، توسعة عليكم لتتعففوا عن الزنى سرا وجهرا.

ولما نزل إباحة الكتابيات قال بعض الناس : كيف أتزوج من ليس على دينى؟ فأنزل اللّه : وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ أي : بشرائع الإيمان فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ ، ومن الكفر به إنكاره والامتناع منه.

الإشارة : قد تقدم أن علوم الحقائق أبكار ، لأنها عرائس مخدّرة ، مهرها النفوس ، وما سواها من العلوم ثيبات وإماء لرخص مهرها ، فإذا اتصل العارف بعلوم الحقائق ورسخ فيها أحل له أن ينكح المحصنات من علوم الطريقة – وهى مبادئ التصوف ، أي : التفنن فيها مع أهلها على وجه التركيز أو التعليم ، والمحصنات من علوم الشريعة إذا أعطاها مهرها من الإخلاص وقصد التوسع بها وتعليمها لأهلها ،

وهذه العلوم كلها مشروعة ، والمشتغل بها متوجه إلى اللّه تعالى ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ ، فمن كفر بها فقد حبط عمله ، وهو عند اللّه من الخاسرين.

(١١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٢

ثم تكلم على ما بقي من حفظ الأديان ، وهو الوضوء إذ لم يتكلم عليه فى النساء ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٦]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)

قلت : إِذا قُمْتُمْ : أردتم القيام ، كقوله : فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ «١» ، حذف الإرادة للإيجاز ، وللتنبيه على أن من أراد العبادة ينبغى أن يبادر إليها ، بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة ، وقوله : بِرُؤُسِكُمْ الباء للإلصاق ، تقول : أمسكت بثوب زيد ، أي : ألصقت يدى به ، أي : ألصقوا المسح برؤوسكم ، أو للتبعيض ، وهذا سبب الخلاف فى مسحه كله أو بعضه ، فقال مالك : واجب كله ، وقال الشافعي : أقل ما يقع عليه اسم الرأس ، ولو قلّ. وقال أبو حنيفة : الربع.

وَأَرْجُلَكُمْ ، من نصب عطف على الوجه ، ومن خفض فعلى الجوار ، وفائدته : التنبيه على قلة صبّ الماء ، حتى يكون غسلا يقرب من المسح. قاله البيضاوي. وردّه فى المغني فقال : الجوار يكون فى النعت قليلا ، وفى التوكيد نادرا ، ولا يكون فى النسق لأن العاطف يمنع من التجاور ، وقال الزمخشري : لمّا كانت الأرجل بين الأعضاء الثلاثة مغسولات ، تغسل بصب الماء عليها ، كان مظنة الإسراف المذموم شرعا ، فعطف على الممسوح لا لتمسح ، ولكن لينبه على وجوب الاقتصار فى صب الماء عليها ، وجيء فيهما بالغاية إماطة لظن من يظن أنها ممسوحة لأن المسح لم يضرب له غاية فى الشريعة. هـ.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا أردتم القيام إِلَى الصَّلاةِ ، وأنتم محدثون فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ من منابت شعر الرأس المعتاد إلى الذقن ، ومن الأذن إلى الأذن ، وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ أي : معها ، وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ أي : جميعها أو بعضها على الخلاف ، وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ العظمين الناتئين فى مفصلى الساقين ، فهذه أربعة فرائض ، وبقيت النية لقوله : وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ «٢» ، ولقوله

(١) من الآية : ٩٨ من سورة النحل.

(٢) من الآية : ٥ من سورة البينة. [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٣

عليه الصلاة السّلام – : «إنما الأعمال بالنيات». والدلك إذا لا يسمى غسلا إلا به ، وإلا كان غمسا ، والفور لأن العبادة إذا لم تتصل كانت عبثا. ولمّا عطفت بالواو ، وهى لا ترتب ، علمنا أن الترتيب سنة.

وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى لم تقدروا على الماء أَوْ عَلى سَفَرٍ ولم تجدوه ، أو فى الحضر وجاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ بالجماع أو غيره فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ أي : جميعه وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، وقيد الحضر بفقد الماء دون السفر لأن السفر مظنة إعوازه ، فالآية نص فى تيمم الحاضر الصحيح للصلوات كلها. قال البيضاوي : وإنما كرره ، – يعنى مع ما فى النساء – ليتصل الكلام فى بيان أنواع الطهارة. هـ.

ثم قال تعالى : ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ حتى يكلفكم بالطهارة فى المرض أو الفقد من غير انتقال للتيمم ، وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ أي : ينظفكم بالماء أو بدله ، أو يطهركم من الذنوب ، فإن الذنوب تذهب مع صب الماء فى كل عضو ، كما فى الحديث ، وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ بشرعه ، ما هو مطهرة لأبدانكم ، ومكفرة لذنوبكم ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نعمه فيزيدكم من فضله.

الإشارة : كما أمر الحق جل جلاله بتطهير الظاهر لدخول حضرة الصلاة ، التي هل محل المناجاة ومعدن المصافاة ، أمر أيضا بتطهير الباطن من لوث السهو والغفلات ، فمن طهر ظاهره من الأوساخ والنجاسات ، ولوّث باطنه بالوساوس والغفلات ، كان بعيدا من حضرة الصلاة إذ لا عبرة بحركة الأبدان ، وإنما المطلوب حضور الجنان.

قال القشيري : وكما أن للظاهر طهارة فللسرائر طهارة ، فطهارة الظاهر بماء السماء ، أي : المطر ، وطهارة القلوب بماء الندم والخجل ، ثم بماء الحياء والوجل ، ويجب غسل الوجه عند القيام إلى الصلاة ، ويجب – فى بيان الإشارة – صيانة الوجه عن التبذل للأشكال عند طلب خسائس الأغراض ، وكما يجب مسح الرأس ، يجب صونه عن التواضع لكل أحد – أي : فى طلب الحظوظ والأغراض – وكما يجب غسل الرجلين فى الطهارة الظاهرة ، يجب صونها – فى الطهارة الباطنة – عن التنقل فيما لا يجوز هـ.

وقال عند قوله : وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا : وكما يجب طهارة الأعلى ، أي : الظاهر ، فيقتضى غسل

جميع البدن ، فقد يقع للمريد فترة – توجب عليه الاستقصاء فى الطهارة الباطنية – فذلك تجديد عقد وتأكيد عهد ، وكما أنه إذا لم يجد المتطهر الماء ففرضه التيمم ، فكذلك إذا لم يجد المريد من يفيض عليه صوب همته ، ويغسله ببركات إشارته ، اشتغل بما ينشر له من اقتفاء آثارهم ، والاسترواح إلى ما يجد من سالف سيرتهم ، ومأثور حكايتهم. هـ.

قلت : محصل كلامه أن من سقط على شيخ التربية ، كان كمن وجد الماء فاستعمل الطهارة الأصلية الحقيقية ، ومن لم يسقط على شيخ التربية ، كان كالمستعمل للطهارة الفرعية المجازية وهى التيمم ، وإلى ذلك أشار الغزالي ، لما سقط على الشيخ ، ولامه ابن العربي الفقيه على التجريد ، فقال :

قد تيممت بالصّعيد زمانا والآن قد ظفرت بالماء

من سرى مطبق الجفون وأضحى فاتحا لا يردّها للعماء

(١٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٤

ثم قال ، لمّا طلع قمر السّعادة فى ملك الإرادة وأشرقت شمس الوصول على أفق الأصول :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل وملت إلى علياء أول منزل

فنادتنى الأوطان أهلا ومرحبا ألا أيها السّارى رويدك فانزل

غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجد لغزلى نسّاجا فكسّرت مغزلى

ثم ذكّرهم الحق جل جلاله العهد الذي أخذه عليهم فى الجهاد والطاعة ، حين بايعوا نبيه – عليه الصلاة السّلام – فى العقبة وغيرها ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٧]

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٧)

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بالهداية والعز والنصر ، وَاذكروا مِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ حين بايعتم نبيه فى بيعة العقبة وبيعة الرضوان على الجهاد وإظهار الدين ، وعلى السمع والطاعة فى المنشط والمكره ، حين قُلْتُمْ له : سَمِعْنا وَأَطَعْنا فيما تأمرنا به فى عسرنا ويسرنا ، فى منشطنا ومكر هنا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فى نقض العهود ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أي : خفياتها ، فيجازيكم عليها ، فضلا عن جليات أعمالكم ، والمقصود : الترغيب فى الجهاد الذي هو من كمال الدين.

الإشارة : يقال للفقراء الذين منّ اللّه عليهم بصحبة شيوخ التربية ، وأخذوا عنهم العهد ألا يخالفوهم : اذكروا نعمة اللّه عليكم ، حيث يسّر لكم من يسيركم إلى حضرة ربكم ، ويعرفكم به ، وغيركم يقول :

إنه معدوم ، أو خفى لا يعرفه أحد ، وهذا الكنز الذي سقطتم عليه ، قلّ من وجده ، واذكروا أيضا ميثاقه الذي واثقه عليكم ألا تخالفوهم ، ولو أدى الأمر إلى حتف أنفكم.

كان شيخ شيوخنا – سيدى العربي بن عبد اللّه ، يقول : الفقير الصادق ، هو الذي إذا قال له شيخه : ادخل فى عين الإبرة ، يقوم مبادرا يحاول ذلك ، ولا يتردد. وقال أيضا : (صاحبى هو الذي نقتله بشعرة) ، وقد تقرر أن من قال لشيخه : لم ، لا يفلح ، وهذا أمر مقرر فى علم التربية كما فى قضية الخضر مع سيدنا موسى – عليه السّلام – .

واتقوا اللّه فى اعتقاد مخالفتهم سرا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ فإن الاعتراض سرا أقبح لأنه خيانة ، فليبادر المريد بالتوبة منه ويغسله من قلبه. واللّه تعالى أعلم.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٥

ولما كان الجهاد لا يقوم إلا بنصب الإمام ، ذكر ما يتعلق به من العدل فى الأحكام ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٨ الى ١٠]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (١٠)

قلت : (وعد) : يتعدى إلى مفعولين ، وحذف هنا الثاني ، أي : وعدهم أجرا عظيما ، دل عليه الجملة بعده.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عامّ أريد به خاص ، وهم أولوا الأمر منهم ، الذين يلون الحكم بين الناس ، وما تقدم فى سورة النساء «١» باق على عمومه ، أي : كُونُوا قَوَّامِينَ على من تحت حكمكم ، راعين لهم فإنكم مسئولون عن رعيتكم ، وكونوا مخلصين لِلَّهِ فى قيامكم وولايتكم ، شُهَداءَ على أنفسكم بالعدل ، تشهدون عليها بالحق إن توجه عليها ، ولا تمنعكم الرئاسة من الإنصاف فى الحق ، إن توجه عليكم ، أو على أقاربكم وأصدقائكم ، ولا على عدوكم وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ أي : ولا يحملنكم شَنَآنُ قَوْمٍ أي : شدة بغضهم لكم ، عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا فيهم ، فتمنعوهم من حقهم ، أو تزيدوا فى نكالهم ، تشفيا وغيظا.

اعْدِلُوا هُوَ أي : العدل أَقْرَبُ لِلتَّقْوى ، قال البيضاوي : صرح لهم بالأمر بالعدل ، وبيّن أنه بمكان من التقوى بعد ما نهاهم عن الجور ، وبين أنه مقتضى الهوى. فإذا كان هذا العدل مع الكفار ، فما بالك مع المؤمنين؟.

هـ وَاتَّقُوا اللَّهَ ولا تراقبوا سواه ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ فيجازى كلّا على عمله ، من عدل أو جور.
ثم ذكر ثواب من امتثل ، فقال : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ، وأفضل الأعمال : العدل فى الأحكام. قال عليه الصلاة السّلام : «المقسطون على منابر من نور يوم القيامة» «٢» ... الحديث ، وهو من السبعة الذين يظلهم اللّه فى ظله.
ثم ذكر وعيد ضدهم ، فقال : وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ كما هو عادته تعالى ، يشفع بضد الفريق الذي يذكر أولا ، وفاء لحق الدعوة ، وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطييب لقلوبهم.
وهذه الآية فى مقابلة قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ «٣» وتكميل لها. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) فى قوله تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ... الآية ١٣٥.
(٢) أخرجه مسلم فى (الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل ..) من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص.
(٣) من الآية ٥٨ من سورة النساء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٦
الإشارة : أمر الحق جل جلاله شيوخ التربية أن يعدلوا بين الفقراء فى النظرة والإمداد ، ولا يحملهم سوء أدب أحدهم ، أو قلة محبته وصدقه ، أن يبعده أو يمقته لأن قلوبهم صافية ، لا تحمل الكدر ، فهم يحسنون إلى من أساء إليهم من العوام ، فضلا عن أصحابهم فهم مأمورون بالتسوية بينهم فى التذكير والإمداد. واللّه تعالى يقسم بينهم على قدر صدقهم ومحبتهم ، كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنما أنا قاسم واللّه معطى» أي : إنما أنا أبين كيفية التوصل إلى الحق ، واللّه – تعالى – يتولى إعطاء ذلك لمن يشاء من خلقه ، فالأنبياء والأولياء مثلهم فى بيان الطريق بالوعظ والتذكير ، كمن يبين قسمة التركة بالقلم ، والحاكم هو الذي يوصل إلى كل واحد من الورثة ما كان ينوبه فى التركة ، كذلك المذكّر والمربى ، يبين المقامات ، واللّه يعطى ذلك بحكمته وفضله. واللّه تعالى أعلم.
ثم أمر نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم بشكر نعمة حفظه ورعايته ، وتنسحب على الأمراء من بعده ، إذ لا يخلو أحد منهم من عدو أو حاسد ، فقال :
[سورة المائدة (٥) : آية ١١]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بحفظه إياكم من عدوكم إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أي : حين همّ الكفار أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ بالقتل ، فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، ولما كانت مصيبة قتل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم – لو قتل – تعمّ المؤمنين كلهم ، خاطبهم جميعا ، وهى إشارة إلى ما همت به بنو قريظة ، من قتله صلّى اللّه عليه وسلّم ، وذلك أنه صلّى اللّه عليه وسلّم أتى بنى قريظة ، ومعه الخلفاء الأربعة يستعينهم فى دية رجلين مسلمين ، قتلهما عمرو بن أمية الضمري ، خطأ ، يظنهما مشركين ، فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، قد آن لنا أن نعينك فاجلس حتى تطعم ، فأجلسوه ، وهموا بقتله ، فعمد عمرو بن جحاش إلى رحى عظيمة ليطرحها عليه ، فأمسك اللّه يده ، ونزل جبريل فأخبره ، فخرج النّبى صلّى اللّه عليه وسلّم إلى المدينة ولحقه أصحابه ، وهذا كان سبب قتلهم فى غزوة بنى قريظة.

وقيل : نزلت فى قضية غورث ، وذلك أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان ببطن نخلة حاصرا لغطفان ، فقال رجل منهم : هل لكم فى أن أقتل محمدا فأفتك به؟ قالوا : وددنا ذلك. فأتى النبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم متقلدا سيفه ، فوجد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم نازلا تحت شجرة قد تفرق أصحابه عنه ، وقد علق سيفه فى الشجرة ، فسله الأعرابى وقال : من يمنعك منى؟ وفى رواية : وجد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم نائما فاستل السيف ، فما استيقظ النبي إلا والسيف فى يد الأعرابى ، فقال : من يمنعك منى يا محمد؟ فقال : «اللّه» ، فأسقطه جبريل من يده ، وأخذه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : «وأنت ، من يمنعك منى؟» فقال : كن خير آخذ ، فعفى عنه – عليه الصلاة السّلام «١» – . زاد البيضاوي : أنه أسلم.

---

(١) أخرجه القصة : البخاري فى (الجهاد ، باب من علق سيفه بالشجر) وفى مواضع أخرى ، ومسلم فى (الفضائل ، باب توكله صلّى اللّه عليه وسلّم على اللّه) عن جابر رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٧

وقيل نزلت فى صلاة الخوف حين همّ المشركون أن يغيروا على المسلمين فى الصلاة. فالله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى : وَاتَّقُوا اللَّهَ فلا تشهدوا معه سواه ، وتوكلوا عليه يكفكم أمر عدوكم ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ فإنه يكفيكم أمرهم جلبا ودفعا ، من توكل على اللّه كفاه.

الإشارة : ما جرى على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من قصد القتل والإذاية يجرى على خواص ورثته ، وهم الأولياء – رضى اللّه عنهم – والعلماء الأتقياء ، فقد همّ قوم بقتلهم وسجنهم وضربهم ، وإجلائهم من أوطانهم ، فكف اللّه أيديهم عنهم ، وكفاهم شرهم ، لمّا صححوا التوكل عليه ، وأخلصوا الوجهة إليه ، ومنهم من لحقه شيء من ذلك ، كما لحق بعض الأنبياء – عليهم السّلام – زيادة فى شرفهم وكرامتهم ، جمع اللّه لهم بين مقام الشهادة والصديقية ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

ثم ذكر وبال من نقض العهد ترهيبا وترغيبا ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ١٢ الى ١٣]

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَبَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)

قلت : النقيب : هو كبير القوم والمقدّم عليهم ، ينقب عن أحوالهم ويفتش عليها. والخائنة : إما مصدر كالعاقبة واللاغية ، أو اسم فاعل ، والتاء للمبالغة ، مثل : راوية ونسّابة وعلّامة.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ على أن يجاهدوا مع موسى – عليه السّلام – وينصروه ، ويلتزموا أحكام التوراة ، وَبَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً اخترناهم وقدمناهم ، على كل سبط نقيبا ينقب عن أحوال قومه ، ويقوم بأمرهم ، ويتكفل بهم فيما أمروا به.

روى أن بنى إسرائيل لمّا خرجوا عن فرعون ، واستقروا بأوائل الشام ، أمرهم اللّه تعالى بالمسير إلى بيت المقدس ، وهى فى الأرض المقدسة ، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون ، وقال : إنى كتبتها لكم دارا وقرارا ، فاخرجوا إليها ، وجاهدوا من فيها من العدو ، فإنى ناصركم. وقال لموسى عليه السّلام : خذ من قومك اثنى عشر نقيبا ، من كل

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ١٨

سبط نقيبا ، يكون أمينا وكفيلا على قومه بالوفاء على ما أمروا به. فاختار موسى النقباء ، فسار بهم حتى إذا دنوا من أرض كنعان ، وهى أريحا ، بعث هؤلاء النقباء يتجسسون الأخبار ، ونهاهم أن يحدثوا قومهم بما يرون ، فلما قربوا من الأرض المقدسة رأوا أجراما عظاما وبأسا شديدا ، فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم ، إلا كالب بن يوقنا – من سبط يهوذا – ويوشع بن نون – من سبط إفرائيم بن يوسف – ثم

قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ إلى آخر ما يأتى من قصتهم. وأما ما ذكره الثعلبي هنا ، وغيره ، من قصة عوج بن عناق ، فقال القسطلاني : هى باطلة من وضع الزنادقة ، فلا يجوز ذكرها فى تفسير كتاب اللّه الصادق المصدوق.

وَقالَ اللَّهُ لبنى إسرائيل : إِنِّي مَعَكُمْ بالنصر والمعونة لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي التي أرسلت بعد موسى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ أي : نصرتموهم وقويتموهم ، وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً بالإنفاق فى سبل الخير ، لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ أي : أستر عنكم ذنوبكم فلا نفضحكم بها ، وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ العهد المؤكد ، المعلق عليه هذا الوعد العظيم ، فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ أي : تلف عن وسط الطريق ، تلفا لا شبهة فيه ولا عذر معه ، بخلاف من كفر قبل أخذ العهد فيمكن أن تكون له شبهة ، ويتوهم له معذرة.

ثم إن بنى إسرائيل نقضوا المواثيق التي أخذت عليهم ، فكفروا وقتلوا الأنبياء ، قال تعالى : فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ أي : طردناهم وأبعدناهم ، أو مسخناهم ، وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً أي : يابسة صلبة لا ينفع فيها الوعظ والتذكير ، أو رديّة مغشوشة بمرض الذنوب والكفر.

ثم بيّن نتيجة قسوة قلوبهم فقال : يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ لفظا أو تأويلا. ولا قسوة أعظم من الجرأة على تغيير كتاب اللّه وتحريفه ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ أي : تركوا نصيبا واجبا مما ذكروا به من التوراة.

فلو عملوا بما ذكّرهم اللّه فى التوراة ما نقضوا العهود وحرّفوا كلام اللّه من بعد ما علموه ، لكن رين الذنوب والانهماك فى المعاصي ، غطت قلوبهم فقست ويبست ، وَلا تَزالُ يا محمد تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ أي : خيانة مِنْهُمْ أو على طائفة خائنة منهم ، لأن الخيانة والغدر من عادتهم وعادة أسلافهم ، فلا تزال ترى ذلك منهم إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ لم يخونوا ، وهم الذين أسلموا منهم ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ حتى يأتيك أمر اللّه فيهم ، أو إن تابوا وآمنوا ، أو إن عاهدوا والتزموا الجزية ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ إلى عباده كيفما كانوا. ومن الإحسان إليهم :

جبرهم على الإيمان بالسيف وسوقهم إلى الجنة بسلاسل الامتحان.

الإشارة : قد أخذ اللّه على هذه الأمة أن يلتزموا أحكام القرآن ، ويحافظوا على مراسم الإسلام والإيمان ، ويجاهدوا نفوسهم فى تحصيل مقام الإحسان ، وبعث من يقوم ببيان شرائع الإسلام والإيمان ، ومن يعرف الطريق إلى مقام الإحسان ، وقال اللّه لهم : (إنى معكم) بالنصر والتأييد ، لئن أقمتم شرائع الإسلام ، وحققتم قواعد الإيمان ، وعظمتم من يعرفكم بطريق الإحسان ، لأغطين مساوئكم ، ولأمحقن دعاويكم ، فأوصلكم بما منى إليكم من الكرم

والجود ، ولأدخلنكم جنة المعارف تجرى من تحتها أنهار العلوم وأنواع الحكم ، فمن لم يقم بهذا ، أو جحده فقد ضل عن طريق الرشاد ، ومن نقض عهد الشيوخ المعرفين بمقام الإحسان ، فقد طرد وأبعد غاية الإبعاد ، وقسا قلبه بعد اللين. وقد ذكرنا فى تفسير الفاتحة الكبير معنى النقباء والنجباء وسائر مراتب الأولياء ، وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما ذكر نقض اليهود ذكر نقض النصارى ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ١٤]

وَمِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : وأخذنا أيضا عهدا وميثاقا من النصارى ، الذين سموا أنفسهم نصارى ادعاء لنصرة عيسى عليه السّلام ولم يقوموا بواجب ذلك عملا واعتقادا ، أخذناه عليهم بالتزام أحكام الإنجيل ، وأن يؤمنوا بالله وحده لا شريك له ، ولا صاحبة ولا ولد ، وأن يؤمنوا بمحمد – عليه الصلاة والسّلام – إن أدركوه ويتبعوه ، فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ أي : نسوا ما ذكرناهم به ، وتركوا حظا واجبا مما كلفوا به ، فَأَغْرَيْنا أي : سلطنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، فهم يقتتلون فى البر والبحر ، ويتحاربون إلى يوم القيامة ، فكل فرقة تلعن أختها وتكفرها ، أو بينهم وبين اليهود ، فالعداوة بينهم دائمة ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ بالجزاء والعقاب.

الإشارة : يؤخذ من الآية أن من نقض العهد مع اللّه بمخالفة ما أمره به أو نهاه عنه ، أو مع أولياء اللّه ، بالانتقاد عليهم وعدم موالاتهم ، ألقى اللّه فى قلب عباده العداوة والبغضاء له ، فيبغضه اللّه ، ويبغضه عباد اللّه ، ومن أوفى بما أخذه اللّه عليه من العهد بوفاء ما كلفه به ، واجتناب ما نهاه عنه ، وتودد إلى أوليائه ، ألقى اللّه فى قلب عباده المحبة والوداد ، فيحبه اللّه ، ويحبه عباد اللّه ، ويتعطف عليه أولياء اللّه ، كما فى الحديث : «إذا أحبّ اللّه عبدا نادى جبريل ، إنّ اللّه يحبّ فلانا فأحبّه ، فيحبّه جبريل. ثم ينادى فى الملائكة : إن اللّه يحبّ فلانا فأحبّوه.

فيحبّه أهل السّماء ، ثم يلقى له القبول فى الأرض» «١» ... الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الأدب ، باب المقة «المحبه» من اللّه) ومسلم فى (البر والصلة ، باب إذا أحب اللّه عبدا حببه إلى عباده) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٠

ثم دعا أهل الكتابين إلى الإيمان برسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ١٥ الى ١٦]

يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)

قلت : الضمير فى : (به) ، يعود إلى النور والكتاب ، ووحّده لأن المراد به شيء واحد ، لأن النور هو الكتاب المبين ، أو لأنهما جنس واحد.

يقول الحق جل جلاله : يا أَهْلَ الْكِتابِ اليهود والنصارى قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ كصفة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وآية الرجم التي فى التوراة ، وكبشارة عيسى بأحمد التي فى الإنجيل ، وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ مما تخفونه وتحرفونه ، فلم يخبر به ، ولم يفضحكم ، حيث لم يؤمر به ، أو عن كثير منكم ، فلا يؤاخذه بجرمه وسوء أدبه معه.

قَدْ جاءَكُمْ يا أهل الكتاب مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ ، عطف تفسير ، فالنور هو الكتاب المبين ، أو النور : محمد – عليه الصلاة السّلام – والكتاب المبين : القرآن لأنه الكاشف لظلمات الشك والضلال ، والواضح الإعجاز والبيان ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ أي : من اتبع رضى اللّه بالإيمان به ، والعمل بما فيه ، سُبُلَ السَّلامِ أي : طرق السلامة من العذاب ، أو طرق اللّه الموصلة إليه ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ من ظلمات الكفر ، إلى نور الإسلام بِإِذْنِهِ أي : بإرادته وتوفيقه ، وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أي :

طريق توصلهم إليه لاعوج فيها.

الإشارة : قد أطلع اللّه علماء الباطن على مقامات علماء الظاهر وأحوالهم وجل مساوئهم ، ولا سيما من كان عالما بالظاهر ثم انتقل إلى علم الباطن ، كالغزالى وابن عباد وغيرهما. فقد تكلم الغزالي فى صدر الإحياء مع علماء الظاهر ، ففضح كثيرا من مساوئهم. وكذلك ابن عباد فى شرح الحكم ، وعفوا عن كثير – فهم على قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وخواص ورثته ، لأنهم حازوا الوراثة كلها ، كما فى المباحث :

تبعة العالم فى الأقوال والعابد الزّاهد فى الأفعال

وفيهما الصّوفىّ فى السباق لكنّه قد زاد بالأخلاق

فالولى نور من نور اللّه ، وسر من أسراره ، يخرج به من سبقت له العناية من ظلمات الحجاب إلى نور الشهود ، ويهدى به من اصطفاه لحضرته تعالى طريق الوصول إليه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مساوئ أهل الكتاب وضلالتهم ، تحريضا على قتالهم إن لم يسلموا أو يعطوا الجزية ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ١٧]

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، والقائل بهذه المقالة هى الطائفة اليعقوبية من النصارى ، كما تقدم. وقيل : لم يصرح بهذه المقالة أحد منهم. ولكن لزمهم حيث قالوا بأن اللاهوت حل فى ناسوت عيسى – مع أنهم يقولون الإله واحد ، فلزمهم أن يكون هو المسيح ، ولزمهم الاتحاد والحلول فنسب إليهم لازم قولهم ، توضيحا لجهلهم ، وتقبيحا لمعتقدهم.

ثم رد عليهم بقوله : قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أي : من يمنع من قدرته وإرادته شيئا ، إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ، وبيان الرد عليهم : أن المسيح مقدور ومقهور ، قابل للفناء كسائر الممكنات ، ومن كان كذلك فهو معزول عن الألوهية. ثم أزال شبهتهم بحجة أخرى فقال : وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما يتصرف فيهما كيف شاء ، يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فقدرته عامة فيخلق من غير أصل كالسموات والأرض ، ومن أصل كخلق ما بينهما ، وينشىء من أصل ليس هو جنسه كآدم وكثير من الحيوانات ، ومن أصل يجانسه ، إما من ذكر وحده كحواء ، أو من أنثى وحدها :

كعيسى ، أو منهما كسائر الناس. قاله البيضاوي.

الإشارة : قد رمى كثير من الأولياء المحققين بالاتحاد والحلول كابن العربي الحاتمي ، وابن الفارض ، وابن سبعين ، والششترى والحلاج ، وغيرهم – رضى اللّه عنهم – وهم برءاء منه. وسبب ذلك أنهم لما خاضوا بحار التوحيد ، وكوشفوا بأسرار التفريد ، أو أسرار المعاني قائمة بالأوانى ، سارية فى كل شىء ، ماحية لكل شىء ، كما قال فى الحكم : «الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته» فأرادوا أن يعبروا عن تلك المعاني فضاقت عبارتهم عنها لأنها خارجة عن مدارك العقول ، لا تدرك بالسطور ولا بالنقول. وإنما هى أذواق ووجدان فمن عبّر عنها

بعبارة اللسان كفّر وزندق ، وهذه المعاني هى الخمرة الأزلية التي كانت خفية لطيفة ، ثم ظهرت محاسنها ، وأبدت أنوارها وأسرارها ، وهى أسرار الذات وأنوار الصفات ، فمن عرفها وكوشف بها. اتحد عنده الوجود ، وأفضى إلى مقام الشهود. وهى منزهة عن الحلول والاتحاد ، إذ لا ثانى لها حتى تحل فيه أو تتحد معه ، وقد أشرت إلى هذا المعنى فى تائيتى الخمرية ، حيث قلت :

تنزّهت عن حكم الحلول فى وصفها فليس لها سوى فى شكله حلّت
تجلّت عروسا فى مرائى جمالها وأرخت ستور الكبرياء لعزّتى
فما ظاهر فى الكون غير بهائها وما احتجبت إلا لحجب سريرتى

فمن كوشف بأسرار هذه الخمرة ، لم ير مع الحق سواه. كما قال بعض العارفين : (لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع فإنه لا غير معه حتى أشهده). ولو أظهرها اللّه تعالى للكفار لوجدوا أنفسهم عابدة لله دون شيء سواه ، وفى هذا المعنى يقول ابن الفارض على لسان الحقيقة :

فما قصدوا غيره وإن كان قصدهم سواى وإن لم يظهروا عقد نيّة

والنصارى – دمرهم اللّه فى مقام الفرق والضلال – حملهم الجهل والتقليد الردىّ على مقالالتهم التي قالوا فى عيسى عليه السّلام.

ثم ذكر مقالة أخرى لليهود والنصارى ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ١٨]

وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ أي : أولاد بنيه فاليهود يقولون : نحن أولاد عزير ، والنصارى يقولون : نحن أشياع عيسى. أو : فينا أبناء اللّه ونحن أحباؤه ، أو : نحن مقربون عند اللّه كقرب الولد من والده. وهذه دعوى ردّها عليهم بقوله : قُلْ لهم : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، وهل رأيتم والدا يعذب ابنه ، وقد عذبكم فى الدنيا بالمسخ والقتل والذل ، وقد اعترفتم أنه يعذبكم بالنار أياما معدودة ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ أي : ممن خلقه اللّه ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ بفضله وهو من آمن منهم بالله ورسله ، وَيُعَذِّبُ مَنْ

يَشاءُ

بعدله وهو من مات منهم على كفره ، فأنتم كسائر البشر يعاملكم معاملتهم ، لا مزية لكم عليهم ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما كلها سواء فى كونها ملكا وعبيدا اللّه – سبحانه – وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقى.

الإشارة : قوله تعالى : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ

أي : فلو كنتم أحباءه لما عذبكم لأن الحبيب لا يعذب حبيبه ، حكى عن الشبلي رضى اللّه عنه أنه كان إذا لبس ثوبا جديدا مزقه ، فأراد ابن مجاهد أن يعجزه بمحضر الوزير ، فقال له :

أين تجد فى العلم فساد ما ينتفع به؟ فقال له الشبلي : أين فى العلم : فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ «١»؟

فسكت ، فقال له الشبلي : أنت مقرىء عند الناس ، فأين فى القرآن : إن الحبيب لا يعذب حبيبه؟

فسكت ابن مجاهد ، ثم قال : قل يا أبا بكر ، فقرأ له الشبلي قوله تعالى وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، فقال ابن مجاهد : كأنى واللّه ما سمعتها قط. هـ.

وفى الحديث : «إذا أحب اللّه عبدا لا يضرّه ذنب» ، ذكره فى القوت. وفى المثل الشائع : (من سبقت له العناية لا تضره الجناية). وفى الصحيح : «لعلّ اللّه اطّلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم» «٢» ، وسببه معلوم ، وفى القوت عن زيد بن أسلم : (إن اللّه – عز وجل – ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول له : اصنع ما شئت فقد غفرت لك). وفى القصد للشيخ أبى الحسن الشاذلى – رضي اللّه عنه – قال : يبلغ الولي مبلغا يقال له :

أصحبناك السلامة ، وأسقطنا عنك الملامة ، فاصنع ما شئت. هـ.

وليس معناه إباحة الذنوب ، ولكنه لمّا أحبه عصمه أو حفظه ، وإذا قضى عليه بشيء ألهمه التوبة ، وهى ماحية للذنوب ، وصاحبها محبوب ، قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ. واللّه تعالى أعلم.

ثم دعاهم إلى اتباع رسوله – عليه الصلاة والسّلام ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ١٩]

يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)

قلت : جملة (يبين) : حال ، أي : جاءكم رسولنا مبينا لكم ، و(على فترة) : متعلق بجاء ، أي : جاءكم على حين فترة وانقطاع من الوحى ، و(أن تقولوا) : مفعول من أجله ، أي : كراهية أن تقولوا.

يقول الحق جل جلاله : يا أَهْلَ الْكِتابِ اليهود والنصارى قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم يُبَيِّنُ لَكُمْ ما اختلفتم فيه ، أو ما كتمتم من أوامر الدين ، أو مطلق البيان. جاءكم عَلى حين فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ

---

(١) من الآية ٣٣ من سورة (ص).

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري فى (المغازي – باب فضل من شهد بدرا) ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب من فضائل أهل بدر) عن سيدنا على رضي اللّه عنه.

(٢٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٤

وانقطاع من الوحى ، أرسلناه كراهية أَنْ تَقُولُوا يوم القيامة : ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ ، فتعتذروا بذلك ، فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ فلا عذر لكم ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر على الإرسال من غير فترة ، كما فى أنبياء بنى إسرائيل فقد كان بين موسى وعيسى ألف نبى ، وبينهما ألف وسبعمائة سنة ، وعلى الإرسال على الفترة كما بين عيسى ومحمد صلّى اللّه عليه وسلّم. كان بينهما ستمائة سنة ، أو خمسمائة سنة وتسع وستون سنة. قاله البيضاوي.

والذي فى الصحيح : أن الفترة ستمائة سنة «١» ، وفى الصحيح أيضا عنه – عليه الصلاة السّلام – : «أنا أولى النّاس بعيسى فى الأولى والآخرة وليس بيننا نبى» «٢». وهو يرد ما حكاه الزمخشري وغيره : أن بينهما أربعة أنبياء : ثلاثة من بنى إسرائيل وواحد من العرب ، وهو خالد بن سنان العبسي لأن النكرة فى سياق النفي تعم. قاله المحشى.

الإشارة : ظهور أهل التربية بعد زمان الفترة ، وخمود أنوار الطريقة وأسرار الحقيقة ، حجة على العباد ، ونعمة كبيرة على أهل العشق والوداد ، من انتكب عنهم لقى اللّه بقلب سقيم ، وقامت بهم الحجة عليهم عند الملك الكريم ، ومن اتبعهم وحط رأسه لهم فاز بالخير الجسيم ، والنعيم المقيم حيث لقى اللّه بقلب سليم ، وقد ظهروا فى زماننا هذا بعد اندراس أنوار الطريقة ، وخمود أسرار الحقيقة ، فجدد اللّه بهم الطريقة ، وأحيا بهم أسرار الحقيقة ، منهم شيخنا أبو المواهب صاحب العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، البحر الفياض ، سيدى محمد بن أحمد البوزيدى الحسنى ، وشيخه القطب الواضح ، والجبل الراسخ ، شيخ المشايخ ، مولاى العربي الدرقاوى الحسنى ، أطال اللّه بركاتهما للأنام ، فقد تخرج على أيديهما الجم الغفير من الأولياء. وليس الخبر كالعيان. وباللّه التوفيق.

ثم ذكّرهم بالنعم على لسان نبيه موسى – عليه السّلام – فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٢٠]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (٢٠)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ : يا بنى إسرائيل اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ يسوسونكم ، كلما مات نبى خلفه نبى ، فقد شرفكم بهم دون غيركم ، إذ لم يبعث فى أمة

ما بعث فى بنى إسرائيل من الأنبياء ، وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً أي : جعل منكم ملوكا ، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء ، فكان كل نبى معه ملك ينفذ أحكامه ، فكانت دار النبوة ودار المملكة معلومة ، يخلف بعضهم بعضا فى النبوة والملك ، استمر ذلك لهم ، حتى قتلوا يحيى ، وهموا بقتل عيسى ، فنزع اللّه منهم الملك ، وأنزل عليهم الذل والهوان.

وقيل : لمّا كانوا مملوكين فى أيدى القبط ، فأنقذهم اللّه وجعلهم مالكين لأنفسهم ، سماهم ملوكا.

---

(١) جاء ذلك فيما أخرجه البخاري فى (مناقب الأنصار – باب إسلام سلمان الفارسي رضي اللّه عنه) عن سلمان قال : (فتره بين عيسى ومحمد صلّى اللّه عليهما – ستمائة سنة).

(٢) أخرجه البخاري فى (كتاب الأنبياء ، باب : واذكر فى الكتاب مريم) ومسلم فى (الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السّلام) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٥

وَآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ من فلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، ونحوها ، أو المراد عالمى زمانهم ، وعن أبى سعيد الخدري قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وامرأة يكتب ملكا» «١». وقال ابن عباس : (من كان له بيت وخادم وامرأة فهو ملك) ، وعن أبى الدرداء قال : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «من أصبح معافى فى بدنه ، آمنا فى سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ، يكفيك منها ، يا ابن آدم ، ما سدّ جوعتك ، ووار عورتك ، فإن كان بيت يواريك فذاك ، وإن كانت دابة فبخ بخ ، فلق الخبز ، وماء الجر «٢» وما فوق الإزار حساب عليك» «٣».

وقال الضحاك : (كانت منازلهم واسعة ، فيها مياة جارية ، فمن كان مسكنه واسعا وفيه ماء جار ، فهو ملك).

وقال قتادة : كانوا أول من ملك الخدم ، وأول من سخر لهم الخدم من بنى آدم. هـ.

الإشارة : كل من رزقه اللّه من يأخذ بيده ومن يستعين به على ذكر ربه ، فليذكر نعمة اللّه عليه ، فقد أسبغ اللّه عليه نعمه ظاهرة وباطنة. وكل من ملك نفسه وهواه ، وأغناه اللّه عما سواه ، فهو ملك من الملوك. وكل من خرجت فكرته عن دائرة الأكوان ، واتصل بفضاء الشهود والعيان ، فقد آتاه اللّه ما لم يؤت أحدا من العالمين. وقد كنت ذات يوم جالسا فى الجامع الأعظم من مدينة تطوان ، فانتبهت فإذا مصحف إلى جنبى ، فقال لى الهاتف :

انظر تجد مقامك ، فأعرضت عنه ، فأعاد علىّ الهاتف ثلاث مرات ، فرفعته ، ونظرت ، فإذا فى أول الورقة :

وَآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ ، فحمدت اللّه تعالى وأثنيت عليه.

ثم أمرهم بجهاد عدوهم ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٢١ الى ٢٦]

يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (٢١) قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ (٢٢) قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ (٢٤) قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (٢٥)

قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (٢٦)

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور لابن أبى حاتم ، عن أبى سعيد الخدري.

(٢) الجرّ والجرار : جمع جرة : وهو الإناء المعروف من الفخار.

(٣) أخرجه إلى قوله : (حيزت له الدنيا) البخاري فى الأدب المفرد (باب من أصبح أمنا فى سربه) والترمذي فى (الزهد باب ٣٤) وابن ماجه فى (الزهد ، باب القناعة)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٦

قلت : (فتنقلبوا) : منصوب بأن فى جواب النهى ، أو عطف على المجزوم ، و(ما داموا) : بدل من (أبدا) بدل بعض ، و(أخى) يحتمل النصب عطف على (نفسى) ، أو رفع عطف على (أن) مع اسمها ، أو مبتدأ حذف خبره ، أو جر عطف على ياء المضاف ، على مذهب الكوفيين.

يقول الحق جل جلاله حاكيا عن موسى – عليه السّلام – : يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ أرض بيت المقدس ، قدسها اللّه ، حيث جعلها قرار أنبيائه ومسكن المؤمنين. وفى مدحها أحاديث كثيرة. وقيل : الطور وما حوله ، أو دمشق وفلسطين ، أو الشام ، الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ أي : التي كتب اللّه فى اللوح المحفوظ ، أنها لكم مسكنا إن جاهدتم وأطعتم نبيكم ، وَلا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ أي : لا ترجعوا مدبرين هاربين خوفا من الجبابرة ، أو : لا ترتدوا عن دينكم بالعصيان ، وعدم الوثوق بالله ، فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ

الدنيا والآخرة. روى أنهم لما سمعوا حالهم من النقباء بكوا ، وقالوا : ليتنا متنا بمصر ، تعالوا نجعل علينا رأسا ينصرف بنا إلى مصر ، ثم قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ أقوياء متغالبين ، لا طاقة لنا بمقاومتهم ، وهم قوم من العمالقة ، من بقية قوم عاد ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها بأمر سماوى ، أو يسلط عليهم من يخرجهم من غيرنا ، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ فيها.

قالَ رَجُلانِ كالب بن يوقنّا ، ويوشع بن نون – ابن اخت موسى وخادمه – مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ اللّه ، أو رجلان من الجبابرة أسلما وصارا إلى موسى ، وعليه قراءة يخافان بضم الياء ، أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا بالإسلام والتثبت ، قالا : ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ أي : باب المدينة ، أي : باغتوهم بالقتال ، فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ أي : ظاهرون عليهم ، فإنهم أجسام لا قلوب فيها. يحتمل أن يكون علمهما بذلك من قبل موسى ، أو من قوله تعالى : الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، أو من عادته سبحانه فى نصر رسله وأوليائه ، وما عهدا من صنيعه تعالى مع موسى من قهر أعدائه. ثم قال : وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ به ، ومصدقين لوعده.

قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها ، وهذا من تعنتهم وعصيانهم ، وأشنع منه قولهم : فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ ، قالوه استهزاء بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما ، وانظر فضيلة الأمة

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٢٧

المحمدية ، وكمال أدبها مع نبيها – عليه الصلاة والسّلام – فإن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال يوم الحديبية لأصحابه حين صد عن البيت : إنى ذاهب بالهدى فناحره عند البيت ، فقال المقداد بن الأسود : أما واللّه ما تقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ ، ولكن نقاتل عن يمينك وشمالك ، ومن بين يديك ومن خلفك ، ولو خضت البحر لخضناه معك ، ولو تسنمت جبلا لعلوناه معك ، ولو ذهبت بنا إلى برك الغماد لتبعناك ، فلما سمعها أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم تابعوه على ذلك ، فسر صلّى اللّه عليه وسلّم بذلك وأشرق وجهه «١». هـ.

ولما سمع موسى عليه السّلام مقالة قومه له غضب ، ودعا ربه فقال : رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي أي :

لا أثق إلا بنفسي وأخى ، ولا قدرة لى على غيرهما ، والرجلان المذكوران ، وإن كانا موافقين له ، لكنه لم يوثق عليهما ، لما كبد من تلوّن قومه ، ثم دعا عليهم فقال : فَافْرُقْ بَيْنَنا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ أي : احكم بيننا وبينهم بما يستحق كل واحد منا ومنهم ، أو بالتبعيد بيننا وبينهم ، وتخليصنا من صحبتهم.

روى أنه لما دعا عليهم ظهر فوقهم الغمام ، وأوحى اللّه إليه : يا موسى إلى متى يعصى هذا الشعب؟ لأهلكنهم جميعا ، فشفع فيهم موسى عليه السّلام فقال اللّه تعالى له : قد غفرت لهم بشفاعتك ، ولكن بعد ما سميتهم فاسقين ، ودعوت عليهم ، بي حلفت لأحرمنّ عليهم دخول الأرض المقدسة ، وذلك قوله تعالى : قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ يحتمل أن يكون «أربعين» متعلقا بمحرمة ، فيكون التحريم عليهم مؤقتا غير مؤبد فيوافق ظاهر قوله : الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ.

ويؤيد هذا ما روى أن موسى – عليه السّلام – لما خرج من التيه ، سار بمن بقي معه من بنى إسرائيل ، ويوشع على مقدمته ، ففتح بيت المقدس ، فبقى فيها ما شاء اللّه ، ثم قبض. ويحتمل أن يكون «أربعين» متعلقا ب (يتيهون) ، فيكون التحريم مؤبدا ، وعلى هذا لم يبق أحد ممن دخل التيه إلا يوشع وكالب ، ولم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال له : (اذهب أنت وربك ...) ، بل كلهم هلكوا فى التيه ، وإنما دخلها أشياعهم.

روى أن موسى عليه السّلام لما حضره الموت فى التيه أخبرهم بأن يوشع بعده نبى ، وأن اللّه أمره بقتال الجبابرة ، فسار بهم يوشع ، وقاتل الجبابرة ، وكان القتال يوم الجمعة ، فبقيت منهم بقية ، وكادت الشمس أن تغرب ليلة السبت ، فخشى أن يعجزوه ، فقال : اللهم اردد الشمس علىّ ، وقال للشمس : إنك فى طاعة اللّه وأنا فى طاعته ، فوقفت مثل يوم حتى قتلهم ، ثم قتل ملوك الأرمانيين ، وقتل من ملوك الشام أحدا وثلاثين ملكا ، فصارت الشام كلها لبنى إسرائيل ، وفرّق عماله فى نواحيها ، وبقيت بنو إسرائيل فى التيه أربعين سنة يتيهون فى الأرض فى ستة فراسخ ، بين فلسطين وأيلة ، متحيرين ، يسيرون من الصباح إلى المساء جادين فى السير ، فإذا هم بحيث ارتحلوا عنه ، ثم

---

(١) المشهور أن قول المقداد كان يوم بدر. وقال العلامة ابن كثير : وهذا – إن كان محفوظا يوم الحديبية – فيحتمل أنه كرر هذه المقالة يومئذ ، كما قاله يوم بدر. انظر : تفسير ابن كثير.

يسيرون بالليل كذلك فيصبحون حيث ارتحلوا ، وكان الغمام يظلهم من الشمس وعمود من نور يطلع بالليل فيضيء لهم ، وكان طعامهم المن والسلوى ، وماؤهم من الحجر الذي يحمله موسى ، واختلف فى الكسوة ، فقيل : أبقى اللّه كسوتهم معجزة لموسى ، وقيل : كساهم مثل الظفر. والأكثر أن موسى وهارون كانا معهم زيادة فى درجاتهما ، وكان عقوبة لقومهما وأنهما ماتا فيه ، مات هارون أولا ودفنه أخوه فى كهف ، وقيل : رفع على سرير فى قبة ، ثم مات موسى – عليه السّلام – ودفن بقرب من

الأرض المقدسة ، رمية بحجر ، كما فى الحديث ، ثم دخل يوشع الأرض المقدسة بعد ثلاثة أشهر. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى لموسى عليه السّلام : فَلا تَأْسَ أي : لا تحزن ، عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ ، خاطبه الحق تعالى بذلك لمّا ندم على الدعاء عليهم ، فقال له : إنهم أحق بذلك لفسقهم وعصيانهم.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله للمتوجهين إليه من المريدين : ادخلوا الحضرة المقدسة التي كتب اللّه لكم ، إن دمتم على جهاد أنفسكم ، وصدقتم فى طلب ربكم ، وبقيتم فى تربية شيوخكم ، ولا ترتدوا على أدباركم بالرجوع عن صحبة شيوخكم من الملل مع طول الأمل ، فتنقلبوا خاسرين ، فإن حضرتى محفوفة بالمكاره ، والطريقة الموصلة إليها مرصودة للقواطع والعوائق ، فإن كان ممن لم يكتب له فيها نصيب ، قال : لن ندخلها أبدا مادام القواطع فيها ، ورجع على عقبيه ، يتيه فى مهامه شكوكه وأوهامه ، وإن كان ممن سبقت له العناية وحقت به الرعاية قال :

ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فيبادر إلى قتل نفسه ، من غير تأن ولا خوف ولا فزع ، فحضرة التحقيق لا ينالها إلا الشجعان ، ولا يسكنها إلا الأكابر من أهل العرفان ، وإلى ذلك أشار صاحب العينية بقوله :

وإيّاك جزعا لا يهولك أمرها فما نالها إلا الشّجاع المقارع

وقال الورتجبي فى قوله تعالى : لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي : من بلغ عين التمكين ملك نفسه وملك نفوس المريدين لأنه عرفها بمعرفة اللّه ، وقمعها من اللّه بسلطان سائس قاهر ، من نظر إليه يفزع من اللّه ، لا يطيق عصيانه ظاهرا وباطنا ، فأخبر عليه السّلام عن محلّ تمكينه وقدرته على نفسه ونفس أخيه ، وأعلمنا أن بينهما اتحادا ، بحيث إنه إذا حكم على نفسه صار «١» نفس أخيه مطمئنة طائعة لله بالانفعال. قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «المؤمنون كنفس واحدة» «٢». هـ.

ثم تكلم الحق جل جلاله على بقية حفظ الأبدان ، فبيّن أول من سنّ القتل ووبال من تبعه ، فقال :

---

(١) هكذا فى الأصول وكذا فى تفسير الورتجبي ، وأرى أنها (صارت). [.....]

(٢) أخرجه مسلم فى (البر والصلة ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم) عن النعمان بن بشير ، بلفظ : (المؤمنون كرجل واحد ..).

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٢٧ الى ٣٠]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ (٣٠)

قلت : الضمير فى (عليهم) : لبنى إسرائيل لتقدم شأنهم ، ولاختصاصهم بعلم قصة ابني آدم ، ولإقامة الحجة عليهم بهمهم ببسط اليد إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

يقول الحق جل جلاله : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ أي : على بنى إسرائيل إذ الكلام كان معهم ، أو على جميع الأمة ، أو على جميع الناس ، إذ هو أول الكلام على بقية حفظ الأبدان – نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ وهو قابيل وهابيل بِالْحَقِّ أي :

تلاوة ملتبسة بالحق ، أو نبأ ملتبسا بالحق موافقا لما فى كتب الأوائل.

إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وهو هابيل ، وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ وهو قابيل ، وسبب تقريبهما القربان أن آدم – عليه السّلام – كان يولد له من حواء توأمان فى كل بطن : غلام وجارية ، إلا شيتا ، فإنه ولد منفردا ، وكان جميع ما ولدته حواء أربعين ، بين ذكر وأنثى ، فى عشرين بطنا ، أولهم قابيل ، وتوأمته أقليما ، وآخرهم عبد المغيث ، ثم بارك اللّه فى نسل آدم. قال ابن عباس : لم يمت آدم حتى بلغ ولده ، وولد ولده ، أربعين ألفا ، ورأى فيهم الزنا وشرب الخمر والفساد ، وكان غشيان آدم لحواء بعد مهبطهما إلى الأرض ، وقال ابن إسحاق عن بعض العلماء بالكتاب الأول : إن آدم كان يغشى حواء فى الجنة ، قبل أن يصيب الخطيئة ، فحملت فى الجنة بقابيل وتوأمته ، ولم تجد عليهما وحما ولا غيره ، وحملت فى الأرض بهابيل وتوأمته ، فوجدت عليهما الوحم والوصب والطلق والدم.

وكان آدم إذا كبر ولده يزوج غلام هذا البطن بجارية بطن آخر ، فكان الرجل يتزوج أىّ أخواته شاء إلا توأمته ، لأنه لم يكن نساء يومئذ ، فأمر اللّه تعالى آدم أن يزوج قابيل لوداء توأمة هابيل ، وينكح هابيل أقليما أخت قابيل ، وكانت أحسن الناس ، فرضى هابيل وسخط قابيل ، وقال : أختى أحسن ، وهى من ولادة الجنة ، وأنا أحق بها ، فقال له أبوه : لا تحل لك ، فأبى ، فقال لهما آدم : قربا قربانا ، فأيكما قبل قربانه فهو أحق بها.

وكان قابيل صاحب زرع ، فقرّب حملا من زرع ردىء ، وأضمر فى نفسه : لا أبالى قبل أو لا ، لا يتزوج أختى أبدا ، وكان هابيل صاحب غنم ، فقرّب أحسن كبش عنده ، وأضمر فى نفسه الرضا لله تعالى ، وكانت العادة حينئذ

أن تنزل نار من السماء فتأكل القربان المقبول ، وإن لم يقبل لم تنزل ، فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل ، وتركت قربان قابيل ، فحسده ، وقال له : لَأَقْتُلَنَّكَ ، حسدا على تقبل قربانه دونه ، فقال له أخوه : إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ الكفر ، أي : إنما أوتيت من قبل نفسك بترك التقوى ، لا من قبلى ، فلم تقتلنى؟

قال البيضاوي : وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغى أن يرى حرمانه من تقصيره ، ويجتهد فى تحصيل ما به صار المحسود محظوظا ، لا فى إزالة حظه ، فإن ذلك مما يضره ولا ينفعه ، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقى. هـ.

وفيه نظر : فإن تقوى المعاصي ليست شرطا فى قبول الأعمال بإجماع أهل السنة ، إلا أن يحمل على تقوى الرياء والعجب. انظر الحاشية.

ثم قال له أخوه هابيل : لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ أي : لئن بدأتنى بالقتل لم أبدأك به ، أو لم أدفعك عنى ، وهل تركه للدفع تورع ، وهو الظاهر ، أو كان واجبا عندهم ، وهو قول مجاهد؟ وأما فى شرعنا : فيجوز الدفع ، بل يجب ، قاله ابن جزى. وقال البيضاوي :

قيل : كان هابيل أقوى منه ، فتحرج عن قتله ، واستسلم له خوفا من اللّه ، لأن الدفع لم يبح بعد ، أو تحريا لما هو الأفضل. قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «كن عبد اللّه المقتول ، ولا تكن عبد اللّه القاتل» «١». وإنما قال : (ما أنا بباسط) فى جواب (لئن بسطت) للتبرى من هذا الفعل الشنيع ، والتحرز من أن يوصف به ، ولذلك أكد النفي بالباء. هـ.

ثم قال له هابيل : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ أي : إنى أريد بالاستسلام وعدم الدفع أن تنقلب إلى اللّه ملتبسا بإثمى ، أي : حاملا لإثمى لو بسطت إليك يدى ، وإثمك ببسطك يديك إلىّ ، ونحوه قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «المستبّان ما قالا فعلى البادئ منهما ما لم يعتد المظلوم» «٢». أو بإثم قتلى وبإثمك الذي لم يتقبل من أجله قربانك ، أو بسائر ذنوبى فتحملها عنى بسبب قتلك لى فإن الظالم يجعل عليه يوم القيامة ذنوب المظلوم ثم يطرح فى النار ، ولذلك قال : وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ ، يحتمل أن يكون من كلام هابيل ، أو استئناف من كلام اللّه تعالى ، أي : جزاؤهم يوم القيامة أن يحملوا أوزار المظلومين ، ثم يطرحون فى النار ، كما فى حديث المفلس.

ولم يرد هابيل بقوله : إِنِّي أُرِيدُ ، أنه يحب معصية أخيه وشقاوته ، بل قصد بذلك الكلام أنه إن كان القتل لا محالة واقعا فأريد أن يكون لك لا لى ، والمقصود بالذات : ألا يكون له ، لا أن يكون لأخيه. ويجوز أن يكون المراد بالإثم عقوبته. وإرادة عقاب العاصي جائزة. قاله البيضاوي.

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ أي : سهلت له ووسعته ولم تضق منه ، أو طاوعته عليه وزينته له ، فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ دينا ودنيا ، فبقى مدة عمره مطرودا محزونا. قال السدى : لما قصد قابيل قتل

هابيل ،

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند (٥/ ١١٠) من حديث خباب بن الأرت.
(٢) أخرجه مسلم فى (البر والصلة ، باب النهى عن السباب) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه ، ومعنى الحديث : أن إثم السباب الواقع من اثنين مختص بالبادىء منهما كله ، إلا أن يتجاوز الثاني قدر الانتصار فيقول للبادئ أكثر مما قاله له.

راغ هابيل فى رؤوس الجبال ، ثم أتاه يوما من الأيام ، فوجده نائما فشدخ رأسه بصخرة فمات ، وقال ابن جريج : لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل؟ فتمثل له إبليس ، وأخذ طيرا فوضع رأسه على حجر ، ثم شدخه بحجر آخر ، وقابيل ينظر ، فعلمه القتل ، فوضع رأس أخيه على حجر وشدخه بحجر آخر.
وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة ، وقبره قيل : عند عقبة حراء ، وقال ابن عباس : عند ثور ، وقال جعفر الصادق : بالبصرة ، فى موضع المسجد الأعظم.
الإشارة : قد تضمنت هذه الآية من طريق الإشارة ثلاث خصال ، يجب التحقق بها على كل مؤمن متوجه إلى اللّه تعالى : أولها : التطهير من رذيلة الحسد ، الذي هو أول معصية ظهرت فى السماء والأرض ، وقد تقدم الكلام عليه فى النساء «١» ، الثانية : التطهير من الشرك الجلى والخفي ، والتغلغل فى التبري من الذنوب التي توجب عدم قبول الأعمال ، ويتحصل ذلك بتحقيق الإخلاص ، والثالثة : عدم الانتصار للنفس والدفع عنها إلا فيما وجب شرعا ، فقد قالوا : (الصوفي دمه هدر ، وماله مباح) فلا ينتصر لنفسه ولو بالدعاء ، فإما أن يسكت ، أو يدعو لظالمه بالرحمة والهداية ، حتى يأخذ اللّه بيده اقتداء برسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، حيث قال : «اللهم اغفر لقومى فإنّهم لا يعلمون».
ولمّا قتل قابيل أخاه ، لم يدر ما يفعل به لأنه أول من مات من بنى آدم ، فعلّمه اللّه كيفية دفنه ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٣١]
فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قالَ يا وَيْلَتى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)
قلت : (ليريه) أي : يعلمه ، وضمير الفاعل يعود على «اللّه» أو الغراب ، و(كيف) : حال من الضمير

فى (يوارى) والجملة مفعول ثان ليرى ، أي : ليعلمه اللّه ، أو الغراب ، كيفية مواراة أخيه ، و(يا ويلتا) : كلمة جزع وتحسر ، والألف فيها بدل من ياء المتكلم ، كيا حسرتا ويا أسفا ، و«أصبح» هنا بمعنى صار.

يقول الحق جل جلاله : فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ أي : يحفر فيها ، لِيُرِيَهُ أي : اللّه ، أو الغراب ، كَيْفَ يُوارِي أي : يستر سَوْأَةَ أَخِيهِ أي : جسده لأنه مما يستقبح أن يرى ، وخصت بالذكر لأنها أحق بالستر من سائر الجسد ، فعلّم اللّه قابيل كيف يصنع بأخيه لأنه لم يدر ما يصنع به ، إذ هو أول ميت مات من بنى آدم ، فتحير فى أمره ، فبعث اللّه غرابين فاقتتلا ، فقتل أحدهما الآخر ، فحفر له بمنقاره ورجليه ، ثم ألقاه فى الحفرة وغطاه بالتراب.

قال قابيل لما رأى ذلك : يا وَيْلَتى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فأهتدى إلى ما اهتدى إليه ، فحفر لأخيه ودفنه فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ على قتله لما كابد فيه من التحير فى أمره ، وحمله على رقبته سنة أو أكثر ، وتلمذة الغراب له ، واسوداد لونه ، وتبرى أبويه منه ، إذ روى أنه لما قتله اسود وجهه ،

---

(١) عند إشارة الآية ٥٤.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٢

فسأله آدم عن أخيه ، فقال : ما كنت عليه وكيلا. فقال : بل قتلته فلذلك اسود جسدك ، وتبرأ منه ، ومكث بعد ذلك مائة سنة لم يضحك ، وعدم الظفر بما فعله من أجله. قاله البيضاوي ، فانظره مع ما سيأتى عن الثعلبي.

واختلف فى كفره فقال ابن عطية : الظاهر أنه لم يكن قابيل كافرا ، وإنما كان مؤمنا عاصيا ، ولو كان كافرا ما تحرج أخوه من قتله ، إذ لا يتحرج من قتل كافر لأن المؤمن يأبى أن يقتل موحدا ، ويرضى بأن يظلم ليجازى فى الآخرة. ونحو هذا فعل عثمان رضي اللّه عنه لما قصد أهل مصر قتله مع عبد الرحمن بن أبى بكر ، لشبهة ، وكانوا أربعة آلاف ، فأراد أهل المدينة أن يدفعوا عنه ، فأبى واستسلم لأمر اللّه. قال عياض : منعه من الدفع إعلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بأن ذلك سبق به القدر. حيث بشره بالجنة على بلوى تصيبه ، كما فى البخاري «١» ، ونقل عن بعض أهل التاريخ : أن شيتا سار إلى أخيه قابيل ، فقاتله بوصية أبيه له بذلك ، متقلدا بسيف أبيه. وهو أول من تقلد بالسيف ، فأخذ أخاه أسيرا وسلسله ، ولم يزل كذلك حتى قبض كافرا. هـ.

قلت : ولعل تحرّج أخيه من قتله لأنه حين قصد قتله لم يظهر كفره ، وظهر بعد ذلك ، فلذلك قاتله أخوه شيت بعد ذلك وأسره ، وذكر الثعلبي : أن قابيل لما طرده أبوه ، أخذ بيد أخته أقليما ، فهرب بها إلى أرض اليمن ، فأتاه إبليس فقال له : إنما أكلت النار قربان هابيل ، لأنه كان يخدم النار ويعبدها ، فانصب أنت أيضا نارا تكون لك ولعقبك ، فبنى بيت نار ، وهو أول من عبد النار. هـ. فهذا صريح فى كفره. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا كان الحق جل جلاله يدل العصاة من عباده إذا تحيروا على ما يزيل حيرتهم ، فكيف لا يدل الطائعين إذا تحيروا على ما يزيل شبهتهم ، إذا فزعوا إليه والتجئوا إلى حماه؟! فكل من وقع فى حيرة دينية أو دنيوية وفزع إلى اللّه تعالى ، مضطرا إليه ، فلا شك أن اللّه تعالى يجعل له فرجا ومخرجا من أمره ، إما بواسطة أو بلا واسطة. كن صادقا تجد مرشدا ، فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من قتل نفسا بغير حق ، كما فعل قابيل ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٣٢]

مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)

قلت : (من أجل ذلك) : يتعلق بكتبنا ، فيوقف على ما قبله ، وقيل : بالنادمين ، فيوقف على (ذلك) ، وهو ضعيف ، قاله ابن جزى ، وأصل (أجل) : مصدر أجل يأجل ، كأخذ يأخذ ، أجلا ، أي : جنا جناية ، استعمل فى تعليل الجنايات ، ثم اتسع فيه ، فاستعمل فى كل تعليل.

---

(١) انظر صحيح البخاري (كتاب أصحاب النبي ، باب مناقب عثمان بن عفان – رضى اللّه عنه –).

يقول الحق جل جلاله : مِنْ أَجْلِ ذلِكَ القتل الذي صدر من قابيل لأخيه هابيل ، وما نشأ عنه من التجرؤ على الدماء والمفاسد ، حيث سنه أولا ولم يكن يعرفه أحد ، فاقتدى به من بعده ، كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ فى التوراة الذي حكمه متصل بشريعتكم ، أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أي : فى غير قصاص ، وبغير فساد فى الأرض ، كقطع الطريق والكفر ، فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً من حيث إنه هتك حرمة الدماء ، وسن القتل ، وجرأ الناس عليه.

وفى البخاري عن ابن مسعود قال : قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا تقتل نفس مسلمة بغير حق إلّا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنّه أوّل من سن القتل» «١». أو من حيث إن قتل الواحد والجميع سواء فى استجلاب غضب اللّه والعذاب العظيم ، أو يكون الناس خصماءه يوم القيامة لأن هتك حرمة البعض كالكل.

وَمَنْ أَحْياها أي : تسبب فى حياتها بعفو أو منع من القتل ، أو استبقاء من بعض أسباب الهلكة كإنقاذ الغريق والحريق وشبه ذلك ، فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً أعطى من الأجر مثل ما لو أحيا الناس جميعا ، وفى البخاري : «من أحياها – أي من حرّم قتلها إلا بحق حيى الناس منه جميعا». قال ابن جزى : والقصد بالآية تعظيم قتل النفس والتشديد فيه ، ليزدجر الناس عنه وكذلك الثواب فى إحيائها كثواب إحياء الجميع لتعظيم الأمر والترغيب فيه. هـ. فما كتبه اللّه على بنى إسرائيل هو أيضا شرع لنا. قال أبو سعيد : (و الذي لا إله إلا هو ما جعل دم بنى إسرائيل أكرم على اللّه من دمائنا).

وإنما خصهم بالذكر لأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم فى قتل النفس فى كتاب ، وغلظ عليهم بسبب طغيانهم ، ولتلوح مذمتهم. انظر ابن عطية. وعنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «من سقى مؤمنا شربة ماء والماء موجود ، فكأنما أعتق سبعين رقبة ، ومن سقى فى غير موطنه فكأنّما أحيا الناس جميعا».

الإشارة : كل من صدّ نفسا عن إحياء قلبها وعوقها عن من يعرفها بربها فكأنما قتلها ، ومن قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا لأن المؤمنين كلهم كالجسد الواحد ، كما فى الحديث ، ومن أحياها بأن أنقذها من الغفلة إلى اليقظة ، ومن الجهل إلى المعرفة ، فكأنما أحيا الناس جميعا لأن الأرواح جنس واحد ، فإحياء البعض كإحياء الكل.

وبهذا يظهر شرف مقدار العارفين ، الدالين على اللّه ، الدعاة إلى معرفة اللّه ، الذين أحيا اللّه بهم البلاد والعباد ، وفى بعض الأثر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمنّ لكم : إنّ أحبّ عباد اللّه إلى اللّه الذين يحبّبون اللّه إلى عباده ، ويحببون عباد اللّه إلى اللّه ، ويمشون فى الأرض بالنصيحة».

---

(١) أخرجه البخاري فى (كتاب الأنبياء ، باب خلق آدم) ومسلم فى (القسامة ، باب بيان إثم من سنّ القتل).

وهذه حالة شيوخ التربية : يحببون اللّه إلى عباده لأنهم يطهرون القلوب من دنس الغفلة حتى ينكشف

لها جمال الحق فتحبه وتعشقه ، ويذكرون لهم إحسانه تعالى وآلاءه فيحبونه ، فإذا أحبوه أطاعوه فيحبهم اللّه ويقربهم ، واللّه تعالى أعلم. وقال الورتجبي : فيه إشارة لطيفة من الحق سبحانه أن النية إذا وقعت من قبل النفس الأمارة فى شيء ، وباشرته ، فكأنها باشرت جميع عصيان اللّه تعالى لأنها لو قدرت على جميعها لفعلت ، لأنها أمارة بالسوء ، ومن السوء خلقت ، فالجزاء يتعلق بالنية. وكذلك إذا وقعت النية من قبل القلب الروحاني فى خير ، وباشره ، فكأنه باشر جميع الخيرات لأنه لو قدر لفعل. قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «نية المؤمن أبلغ من عمله».

وفيه إشارة أخرى أن اللّه سبحانه خلق النفوس من قبضة واحدة مجتمعة ، بعضها من بعض وصرّفها مختلفة ، وتعلقت بعضها من بعض من جهة الاستعداد والخلقة. فمن قتل واحدا منها أثّر قتلها فى جميع النفوس عالمة بذلك أو جاهلة ، ومن أحيا نفس مؤمن بذكر اللّه وتوحيده ، ووصف جلاله وجماله ، حتى تحب خالقها ، وتحيا بمعرفته ، وجمال مشاهدته ، فأثر حياتها وتزكيتها فى جميع النفوس ، فكأنما أحيا جميع النفوس. وفيه تهديد لأئمة الضلالة ، وعز وشرف وثناء حسن لأئمة الهدى. انتهى كلامه.

وقوله فى النفس الأمارة : (من السوء خلقت) ، فيه نظر فإن النفس هى الروح عند المحققين ، فما دامت الطينية غالبة عليها ، وهى مائلة إلى الحظوظ والهوى ، سميت نفسا ، فإن كانت منهمكة سميت أمارة ، وإن خف عثارها ، وغلب عليها الخوف ، سميت لوامة ، فإذا انكشف عنها الحجاب ، وعرفت ربها ، واستراحت من تعب المجاهدة ، سميت روحا ، وإن تطهرت من غبش الحس بالكلية سميت سرا ، وأصلها من حيث هى نور ربانى وسر لاهوتى.

ولذلك قال تعالى فيها : قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، «١» فالسوء عارض لها ، لا ذاتى ، فما خلقت إلا من نور القدس. واللّه تعالى أعلم.

ثم عاتب بنى إسرائيل على سفك الدماء والإفساد فى الأرض ، بعد ما حرم ذلك عليهم فى التوراة ، فقال :

وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ أي : بنى إسرائيل ، رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ أي : بالمعجزات الواضحات ، ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ بسفك الدماء وكثرة المعاصي.

قال البيضاوي : أي : بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل إتيان تلك الجناية ، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيدا للأمر وتجديدا للعهد ، كى يتحاموا عنها ، كثير منهم يسرفون فى الأرض بالقتل ولا يبالون ، وبهذا اتصلت القصة بما قبلها ، والإسراف : التباعد عن حد الاعتدال فى الأمر. هـ.

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٥

الإشارة : قد قيض اللّه لهذه الأمة المحمدية من يقوم بأمر دينها ، ظاهرا وباطنا ، وهم ورثته فى الظاهر والباطن ، وفى الخبر : «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل» ، فلكل زمان رجال يقومون بالشريعة الظاهرة وهم العلماء ، ورجال يقومون بالحقيقة الباطنة ، وهم الأولياء ، فمن قصر فى الجهتين قامت عليه الحجة ، ولله الحجة البالغة ، فمن أسرف أو طغى أدبته الشريعة وأبعدته الحقيقة. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر وبال المسرفين من بنى إسرائيل وغيرهم ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]

إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)

قلت : سبب نزول الآية عند ابن عباس : قوم من اليهود كان بينهم وبين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عهد ، فنقضوا العهد وقطعوا السبيل. وهو مناسب لما قبله ، وقال جماعة : نزلت فى نفر من عكل وعرينة ، أظهروا الإسلام بالمدينة ، ثم خرجوا وقتلوا راعى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأخذوا إبله ، فبعث فى إثرهم ، فأخذوا ، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم «١» ، فماتوا ، ثم حكمها جار فى كل محارب ، والمحاربة عند مالك : هى حمل السلاح على الناس فى بلد أو فى خارج عنه ، وقال أبو حنيفة : لا يكون المحارب إلا خارج البلد ، و(فسادا) : منصوب على العلة ، أو المصدر ، أو على حذف الجار.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ حيث حاربوا عباده. فهو تغليظ ومبالغة ، وَيحاربون رَسُولَهُ كما فعل العرينيون أو غيرهم ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً بالفساد كإخافة الناس ، ونهب أموالهم. قال ابن جزى : هو بيان للحرابة ، وهى درجات فأدناها : إخافة الطريق ، ثم أخذ الأموال ، ثم قتل النفس.

فجزاؤهم أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ، فالصلب مضاف للقتل ، فقيل : يقتل ثم يصلب ، إرهابا لغيره ، وهو قول أشهب ، وقيل : يصلب حيا ويقتل فى الخشبة ، وهو قول ابن القاسم ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ ،

---

(١) سمل أعينهم ، أي : فقأها بحديدة محماة ، أو غيرها.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٦

فيقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ، وإن عاد قطعت يده اليسرى ورجله اليمنى ، وقطع اليد من الرسغ ، والرجل من المفصل كالسرقة ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ أي : ينفوا من بلد إلى بلد ، ويسجنوا فيه حتى تظهر توبتهم. وقال أبو حنيفة : يسجن فى البلد بعينه. ومذهب مالك : أن الإمام مخير فى المحارب بين ما تقدم ، إلا أنه قال : إن كان قتل فلا بد من قتله ، وإن لم يقتل فالأحسن أن يؤخذ فيه بأيسر العقاب.

أولئك المحاربون لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا : ذل وفضيحة ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ لعظم ذنوبهم. ظاهره أن العقوبة فى الدنيا لا تكون كفارة للمحاربين بخلاف سائر الحدود. ويحتمل أن يكون الخزي فى الدنيا لمن عوقب ، وفى الآخرة لمن لم يعاقب ، إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ بأن جاءوا تائبين فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، فيسقط عنهم حكم الحرابة ، واختلف : هل يطالب بما عليه من حقوق الناس كالدماء أم لا؟

فقال الشافعي : يسقط عنه بالتوبة حد الحرابة ، ولا يسقط حقوق بنى آدم ، وقال مالك : يسقط عنه جميع ذلك ، إلا أن يوجد معه مال رجل بعينه ، فيردّ إلى صاحبه ، أو يطلبه ولى دم بدم تقوم البينة فيه ، فيقاد به ، وأما الدماء والأموال التي لم يطالب بها ، فلا يتبعه الإمام بشيء منها.

وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة ، يدل على أنها بعد القدرة لا تسقط الحد ، وإن أسقطت العذاب ، والآية فى قطّاع المسلمين لأن توبة المشرك تدرا عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها. هـ. قاله البيضاوي. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فرق كبير بين من يرجع إلى اللّه بملاطفة الإحسان ، وبين من يقاد إليه بسلاسل الامتحان ، هؤلاء المحاربون لم يرجعوا إلى اللّه حتى أخذوا وقتلوا وصلبوا أو قطعت أيديهم وأرجلهم. وإن رجعوا إليه اختيارا قبلهم ، وتاب عليهم ورحمهم وتعطف عليهم ، وكذلك العباد : من رجع إلى اللّه قبل هجوم منيته قبله وتاب عليه ، وإن جد فى الطاعة قرّبه وأدناه ، وإن تقدمت له جنايات ، وقد خرج من اللصوص كثير من الخصوص ، كالفضيل ، وابن أدهم ، وغيرهما ، ممن لا يحصى ، سبقت لهم العناية فلم تضرهم الجناية. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم حضّ على التقوى التي هى مجمع الخير والفوز من كل شر ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٣٥]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ، ولا تسلكوا سبيل بنى إسرائيل الذين جاءتهم

الرسل ، فعصوا وأفسدوا وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ أي : اطلبوا ما تتوسلون به إلى رضوانه ، والقرب من جناب قدسه

(٣٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٧

من الطاعات ، وترك المخالفات ، وَجاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ بالوصول إلى اللّه والفوز بكرامته.

الإشارة : لا وسيلة أقرب من صحبة العارفين ، والجلوس بين أيديهم وخدمتهم ، والتزام طاعتهم ، فمن رام وسيلة توصله إلى الحضرة غير هذه فهو جاهل بعلم الطريق. قال أبو عمرو الزجّاجى رضي اللّه عنه : لو أن رجلا كشف له عن الغيب ، ولا يكون له أستاذ لا يجيء منه شيء.

وقال إبراهيم بن شيبان رضي اللّه عنه : لو أن رجلا جمع العلوم كلها ، وصحب طوائف الناس ، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح ، ومن لا يأخذ أدبه من آمر له وناه يريه عيوب أعماله ورعونات نفسه ، لا يجوز الاقتداء به فى تصحيح المعاملات. هـ.

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضي اللّه عنه : كل من لا يكون له فى هذا الطريق شيخ لا يفرح به. هـ. ولو كان وافر العقل منقاد النفس ، واقتصر على ما يلقى إليه شيخ التعليم فقط ، فلا يكمل كمال من تقيد بالشيخ المربى لأن النفس أبدا كثيفة الحجاب عظيمة الإشراك ، فلابد من بقاء شيء من الرعونات فيها ، ولا يزول عنها ذلك ، بالكلية ، إلا بالانقياد للغير والدخول تحت الحكم والقهر ، وكذلك لو كان سبقت إليه من اللّه عناية وأخذه الحق إليه ، وجذبه إلى حضرته ، لا يؤهل للمشيخة ، ولو بلغ ما بلغ ، والحاصل : أن الوسيلة العظمى ، والفتح الكبير ، إنما هو فى التحكيم للشيخ لأن الخضوع لمن هو من جنسك تأنفه النفس ، ولا تخضع له إلا النفس المطمئنة ، التي سبقت لها من اللّه العناية. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر ضد أهل التقوى ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٣٦ الى ٣٧]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (٣٧)

قلت : (لو أن لهم) : الجار متعلق بالاستقرار ، لأنه خبر «إن» مقدما ، والضمير فى (به) : يعود على ما ومثله ، ووحده باعتبار ما ذكر كقوله : عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ «١».

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا حين يشاهدون العذاب يتمنون الفداء ، فلو أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً من الأموال والعقار وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ

---

(١) من الآية ٦٨ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٨

ولا ينفعهم وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ لا خلاص لهم منه ، وهذا كما ترى فى الكفار ، وأما عصاة المؤمنين فيخرجون منها بشفاعة نبيهم – عليه الصلاة والسلام – ولا حجة للمعتزلة فى الآية ، خلافا لجهالة الزمخشري.

الإشارة : كل من مات تحت قهر الحجاب ، ونكّبته المشيئة عن دخول الحضرة مع الأحباب ، حصل له الندم يوم القيامة ، فلو رام أن يفتدى منه بملء الأرض ذهبا ما تقبل منه ، بل يبقى مقيما فى غم الحجاب ، معزولا عن رؤية الأحباب ، يتسلى عنهم بالحور والولدان ، وتفوته نظرة الشهود والعيان فى كل حين وأوان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ثم ذكر حكم السارق الذي تقدم ذكره فى قضية طعمة بن أبيرق لما تقدم أن هذه السورة مكملة لما قبلها ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٣٨ الى ٤٠]

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)

قلت : (السارق) : مبتدأ والخبر محذوف عند سيبويه ، وهو الجار والمجرور ، أي : مما يتلى عليكم حكم السارق والسارقة ، وقال المبرد : الخبر هو جملة : (فاقطعوا) ، ودخلت الفاء لمعنى الشرط لأن الموصول – وهو «ال» – فيه معنى الشرط ، ومثله : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا «١» ، قلت : وهو أظهر ، فإن قلت : ما الحكمة فى تقديم المذكر فى هذه الآية ، وفى آية الزنا قدم المؤنث ، فقال : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي؟ فالجواب : أن السرقة فى الرجال أكثر ، والزنى فى النساء أكثر ، فقدّم الأكثر وقوعا. وقدّم العذاب هنا على المغفرة لأنه قابل بذلك تقدم السرقة على التوبة ، أو لأن المراد به القطع ، وهو مقدم فى الدنيا ، و(جزاء) و(نكالا) : علة أو مصدر.

يقول الحق جل جلاله : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما أي : أيمانهما من الرسغ ، بشروط ، منها :

ألّا يكون مضطرا بالجوع ، على قول مالك ، فيقدم السرقة على الميتة ، إن علم تصديقه. ومنها : ألّا يكون السارق أبا أو عبدا سرق مال ولده أو سيده. ومنها : أن يكون سرق من حرز ، وأن يكون نصابا ، وهو ربع دينار ، أو ثلاثة دراهم ، أو ما يساويهما عند مالك والشافعي ، وقال أبو حنيفة : لا قطع فى أقل من عشرة دراهم ، وقال عثمان البتى : يقطع فى درهم فما فوق. وفى السرقة أحكام مبسوطة فى كتب الفقه.

---

(١) من الآية ٢ من سورة النور.

وعلة القطع : الزجر ، ولذلك قال : جَزاءً بِما كَسَبا نَكالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. فإن قلت : ما الحكمة فى قطعها فى ربع دينار ، مع أن ديتها إن قطعت ، خمسمائة دينار؟ قلت : ذل الخيانة أسقطت حرمتها بعد عز الصيانة. فافهم حكمة الباري.

فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ أي : بعد سرقته ، كقوله فى سورة يوسف : كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ «١» أي : السارقين ، وَأَصْلَحَ بأن ردّ ما سرق ، وتخلص من التبعات ما استطاع ، وعزم ألا يعود ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، فيتقبل توبته ، فلا يعذبه فى الآخرة ، وأما القطع : فهل يسقط ، وهو مذهب الشافعي لظاهر الآية ، أو لا يسقط ، وهو مذهب مالك ، لأن الحدود لا تسقط عنده بالتوبة إلا عن المحارب؟ .. قاله ابن جزى ، تبعا لابن عطية ، وفيه نظر ، فإن مشهور مذهب الشافعي موافق لمالك ، ولعله تصحف عنده الشافعي بالشعبي ، كما نقل الثعلبي عنه. واللّه أعلم.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يتصرف فيهما كيف شاء ، فالخطاب للرسول – عليه الصلاة السّلام – أو لكل أحد ، يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ قال السدى : يعذب من مات على كفره ، ويغفر لمن تاب من كفره. وقال الكلبي : يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ على الصغيرة إذا أقام عليها وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ على الكبيرة إذا نزع منها ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه شىء.

الإشارة : كما أمر الحق – جل جلاله – بقطع سارق الأموال ، أمر بقطع سارق القلوب ، وهو الشيطان ، وجنوده الخواطر الردية فإن القلب بيت كنز السر – أي : سر الربوبية – لأن القلب بيت الرب ، والبصيرة حارسة له ، فإذا طرقه الشيطان بجنوده ، فإن وجد البصيرة متيقظة دفعته وأحرقته بأنوار ذكرها ، وإن وجدها نائمة فإن كان نومها خفيفا اختلس منها وفطنت له ، وإن كان نومها ثقيلا بتراكم الغفلات ، خرب البيت ولم تفطن له ، فيسكن فيه بجنوده الخواطر وهى نائمة. فالواجب على الإنسان حفظ

قلبه ، قبل أن يسكنه الشيطان ، فيصعب دفعه ، وحفظه بدوام ذكر اللّه القلبي ، فإن لم يستطع فبدوام اللسان ، فإن لم يستطع فبالنية الصالحة. وربنا المستعان.

ثم تكلم على ما يتعلق باللسان ، وهو الأمر الخامس مما تضمنته السورة ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٤١]

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (٤١)

قلت : الباء فى : (بأفواههم) – متعلقة بقالوا.

---

(١) من الآية ٧٥.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٠

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ صنع المنافقين ، الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ أي : يقعون فيه سريعا ، فيظهرونه إن وجدوا فرصة ، ثم بينهم بقوله : مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا ، قالوه بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ، فلا يهولنّك شأنهم ولا تحتفل بكيدهم ، فإن اللّه سيكفيك أمرهم.

الإشارة : من شأن العارفين باللّه تذكير عباد اللّه ، ثم ينظرون إلى ما يفعل اللّه ، فلا يحزنون على من لم تنفعه الموعظة ، ولا يفرحون بسبب نجاح موعظتهم ، إلا من حيث موافقة رضا ربهم ، فهم فى ذلك على قدم نبيهم ، آخذين بوصية ربهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم رجع إلى عتاب اليهود ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٤٢ الى ٤٣]

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣)

قلت : (و من الذين هادوا) : يحتمل أن يكون عطفا على (الذين قالوا) أي : لا يحزنك شأن المنافقين واليهود ، و(سماعون) : خبر ، أي : هم سماعون ، ويحتمل أن يكون استئنافا ، فيكون (سماعون) : مبتدأ على حذف الموصوف ، و(من) : خبر ، أي : ومن الذين هادوا قوم سماعون ، واللام فى :

(للكذب) : إما مزيدة للتأكيد ، أو لتضمين السماع معنى القبول ، وجملة (لم يأتوك) : صفة لقوم ، وجملة (يحرفون) : صفة أخرى له.

يقول الحق جل جلاله : وَمِنَ الَّذِينَ هادُوا صنف سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أي : كثيروا السماع للكذب والقبول له ، وهم يهود بنى قريظة ، سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ وهم يهود خيبر ، لَمْ يَأْتُوكَ أي : لم يحضروا مجلسك ، تكبرا وبغضا ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ أي : يميلونه عن مواضعه الذي وضعه اللّه فيها ، إما

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤١

لفظا أو تأويلا : يَقُولُونَ : أي : الذين لم يأتوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهم يهود خيبر : إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ أي : إن أوتيتم هذا المحرّف وأفتاكم محمد بما يوافقه فخذوه ، وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ بأن أفتاكم بغيره فَاحْذَرُوا أن تقبلوا منه.

وسبب نزولها : أن شريفا من يهود خيبر زنى بشريفة منهم ، وكانا محصنين ، وكرهوا رجمهما ، فأرسلوا مع رهط منهم إلى بنى قريظة ليسألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقالوا لهم : إن أمركم بالجلّد والتّحميم «١» فاقبلوا ، وإن أمركم بالرّجم فاحذروا أن تقبلوه منه ، فأتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بالزّانيين ، ومعهما ابن صوريا ، فاستفتوه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال لابن صوريا :

أنشدك اللّه الذي لا إله إلا هو ، الذي فلق البحر لموسى ، ورفع فوقكم الطور ، وأنجاكم وأغرق آل فرعون ، والذي أنزل عليكم كتابه ، وأحلّ حلاله وحرّم حرامه ، هل تجد فيه الرّجم على من أحصن؟

فقال : نعم ، فوثبوا عليه ، فقال :

خفت إن كذبته أن ينزل علينا العذاب ، فأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بالزّانيين فرجما عند باب المسجد ، وفى رواية : دعاهم إلى التوراة فأتوا بها ، فوضع ابن صوريا يده على آية الرجم ، وقرأ ما حولها ، فقال له عبد اللّه بن سلام : ارفع يدك ، فإذا آية الرجم تلوح ، فرجما. وفى القصة اضطراب كثير. ولعل القضية تعددت.

قال تعالى : وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ أي : ضلالته أو فضيحته ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أي : تقدر على دفعها عنه ، أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ من الكفر والشرك ، لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ أي : هوان وذل بضرب الجزية والخوف من المؤمنين ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ وهو الخلود فى النيران.

هم سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ، كرر للتأكيد ، وليرتب عليه قوله : أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ أي : الحرام ، كالرشا وغيرها ، وسمى سحتا لأنه يسحت البركة ويستأصل المال ، كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «من جمع المال

من نهاوش أذهبه اللّه فى نهابر» «٢».

ثم خيّر نبيه – عليه الصلاة والسّلام – فى الحكم بينهم ، فقال : فَإِنْ جاؤُكَ متحاكمين إليك فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وقيل : نسخ بقوله : وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ «٣». والجمهور : أن ما كان من باب التظالم والتعدي فإن الحاكم يتعرض بهم ويبحث عنه ، وأما النوازل التي لا ظلم فيها ، وإنما هى دعاوى ، فإن رضوا بحكمنا فالإمام مخير ، وإن لم يرضوا فلا نتعرض لهم ، انظر ابن عطية ، وقال البيضاوي : ولو تحاكم كتابيان إلى القاضي لم يجب عليه الحكم ، وهو قول الشافعي ، والأصح : وجوبه إذا كان المترافعان أو أحدهما ذميا ، لأنا التزمنا الذب عنهم ، ومذهب أبى حنيفة : يجب مطلقا. هـ.

وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً لأن اللّه عصمك من الناس ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ أي : العدل الذي أمر اللّه به إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، فيحفظهم ويعظم شأنهم.

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وهم لا يؤمنون بك ، وَعِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ أي : والحال أن الحكم منصوص عليه فى الكتاب الذي هو عندهم ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ ، أو ثم يتولون عن حكمك

---

(١) التحميم : تسويد الوجه بالفحم.

(٢) النهاوش : المظالم. والنهابر : المهالك والأمور المتبددة.

(٣) من الآية ٤٩ من السورة [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٢

الموافق لكتابهم من بعد التحكيم ، وفيه تنبيه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع ، وإنما قصدوا به ما يكون عونا لهم على هواهم ، وإن لم يكن حكم اللّه فى زعمهم ، وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ بكتابهم ولا بكتابك لإعراضهم عنه أولا ، وعنك ثانيا ، بل أولئك هم الفاسقون التابعون لأهوائهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من تعرض للشيخوخة وادعى مقام التربية ، وهو يأمر أصحابه باتباع رخص الشريعة ، والبقاء مع العوائد ، ويقول لهم : (إن أوتيتم هذا فخذوه) ويزعم أنه سنة ، وإن لم تؤتوه ، ولقيتم من يأمركم بقتل النفوس ، وحط الرؤوس ودفع الفلوس ، وخرق العوائد فاحذروه. فمن كان حاله هذا ، فالآية تجر ذيلها عليه ، لأنه تعرض لفتنة نفسه بحب الجاه وغرور أولاد الناس ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ من الهوى ، ولا بصيرتهم من شهود

السّوى لأن تطهير القلوب مشروط بقتل النفوس ، وقتل النفوس إنما يكون باتباع ما يثقل عليها من خرق عوائدها ، كالذل والفقر وغير ذلك من الأعمال الشاقة عليها ، ومن لم يطهر قلبه من الهوى يعش فى الدنيا فى ذل الحجاب مسجونا بمحيط انه ، محصورا فى هيكل ذاته ، وله فى الآخرة أشد العتاب ، حيث تعرض لمقام الرجال وهو عنه بمعزل ، ويقال لمن تبعه فى اتباع الرخص :

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه : من كان من فقراء الزمان يسمع الغناء ، ويأكل أموال الظلمة ، ففيه نزعة يهودية ، قال تعالى : سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ. هـ فإن جاءوك أيها العارف ، يستخبرونك ، ويخاصمونك فى الأمر بخرق العوائد ، ويزعمون أنهم موافقون للسنة ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، وهو الأخذ بكل ما يقتل النفوس ، ويجهز عليها ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ وكيف يحكمونك أو يخاصمونك ، وعندهم القرآن فيه حكم اللّه بذلك ، قال تعالى : وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا «١» ، ولا يكون جهاد النفس إلا بمخالفتها ، وقتلها بترك حظوظها وهواها. واللّه تعالى أعلم.

ثم قرر صحة كتابه التوراة ، ووبال من أعرض عنه من اليهود ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٤٤]

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ (٤٤)

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٣

قلت : (للذين هادوا) : متعلق بيحكم ، أو بأنزلنا ، أو بهدى ونور ، و(الربانيون) : عطف على (النبيون) ، وهم العباد والزهاد منهم ، والأحبار : علماؤهم ، جمع حبر – بكسر الحاء وفتحها ، وهو أشهر استعمالا للفرق بينه وبين المداد ، و(بما استحفظوا) : سببية متعلق بيحكم ، أو بدل من (بها) والعائد إلى «ما» محذوف ، أي : استحفظوه.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً أي : ما يهدى إلى إصلاح الظواهر من النواهي والأوامر ، ونُورٌ تستنير به السرائر ، وتشرق به القلوب والضمائر ، من الاعتقادات الصحيحة والعقائد

الراجحة ، والعلوم الدينية والأسرار الربانية. يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الذين أتوا بعد موسى – عليه السّلام – إلى محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهم الَّذِينَ أَسْلَمُوا أي : انقادوا بكليتهم إلى ربهم ، ولم تبق بقية لغير محبوبهم ، وفيه تنويه بشأن الإسلام وأهله ، وتعريض باليهود فإنهم بمعزل عن دين الأنبياء واقتفاء هديهم ، حيث لم يتصفوا به ، يحكم بها لِلَّذِينَ هادُوا وعليهم ، وهم اليهود ، وَيحكم بها أيضا الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ أي : زهادهم وعلماؤهم السالكون طريقة أنبيائهم ، بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ أي : بسبب أمر اللّه تعالى لهم أن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف. وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ أي : رقباء ، فلا يتركون من يغيرها أو يحرفها ، ولما طال العهد عليهم حرفوا وغيروا ، بخلاف كتابنا ، حيث تولى حفظه الحق ربنا ، فلا يزال محفوظا لفظا ومعنى إلى قيام الساعة ، قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «١». فلله الحمد.

ثم خاطب الحكام ، فقال : فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ أي : فلا تداهنوا فى حكوماتكم خشية ظالم أو مراقبة كبير ، فكل كبير فى جانب الحق صغير ، وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا أي : لا تستبدلوا بالحكم بالحق ثمنا قليلا كالرشوة والجاه ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مستهينا به ومنكرا له فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ لاستهانتهم به.

قال ابن عباس : نزلت الثلاثة فى اليهود ، الكافرون والظالمون والفاسقون ، وقد روى فى هذا أحاديث عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقالت جماعة : هى عامة ، فكل من لم يحكم بما أنزل اللّه من اليهود والمسلمين وغيرهم ، إلا أن الكفر فى حق المسلمين كفر معصية ، وقال الشافعي : الكافرون فى المسلمين ، والظالمون فى اليهود ، والفاسقون فى النصارى ، وهو أنسب لسياق الكلام ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد وصف اللّه تعالى القرآن بأعظم مما وصف به التوراة. قال تعالى : قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً «٢» فجعل التوراة ظرفا للهداية والنور ، وجعل القرآن نفس النور والهداية. وربانيو هذه الأمة : أولياؤها العارفون بالله ، الذين يربون الناس ويرشدونهم إلى معرفة الشهود والعيان ، وأحبارها : علماؤها.

---

(١) الآية ٩ من سورة الحجر.

(٢) الآية ١٧٤ من سورة النساء.

وقال الورتجبي : الرباني الذي نسب إلى الرب بالمعرفة والمحبة والتوحيد ، فإذا وصل إلى الحق بهذه المراتب ، واستقام فى شهود جلاله وجماله ، صار متصفا بصفات اللّه – جل جلاله – ، حاملا أنوار ذاته ، فإذا فنى عن نفسه وبقي بربه ، صار ربانيّا ، مثل الحديد فى النار ، إذا لم يكن فى النار كان مستعدا لقبول النار ، فإذا وصل إلى النار واحمر ، صار ناريا ، هكذا شأن العارف ، فإذا كان منورا بتجلى الرب ، صار ربانيا نورانيا ملكوتيا جبروتيا ، كلامه من الرب إلى الرب مع الرب ، ثم قال : العارف مخاطب من اللّه فى جميع أنفاسه ، وحركاته ، ينزل على قلبه من اللّه وحي الإلهام ، وربما يخاطبه بنفسه ، ويكلمه بكلامه ، ويحدثه بحديثه ، لقوله – عليه الصلاة السّلام – : «إنّ فى أمتى محدّثين أو مكلّمين وإنّ عمر منهم» «١». هـ.

ثم بين الحق تعالى ما كتب على بنى إسرائيل فى التوراة ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٤٥]

وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)

قلت : من نصب الجميع : فعطف على النفس ، وقصاص : خبر إن ، ومن رفع العين : فيحتمل أن يكون مستأنفا مرفوعا بالابتداء ، و«قصاص» : خبر ، من عطف الجمل ، أو يكون عطفا على موضع النفس لأن المعنى : قلنا لهم :

النفس بالنفس ، أو على الضمير المستكن فى الخبر ، ومن رفع الجروح فقط ، فعلى ما تقدم فى العين.

يقول الحق جل جلاله : وَكَتَبْنا على بنى إسرائيل ، أي : فرضنا وألزمنا عليهم فى التوراة أَنَّ النَّفْسَ تقتل بالنفس فى القتل العمد إن كان المقتول مسلما حرا ، فلا يقتل مسلم بكافر إلا إن قتله غيلة ، ولا حر بعبد ، للحديث ، وَالْعَيْنَ تفقأ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنْفَ تجدع بِالْأَنْفِ ، وَالْأُذُنَ تصلم بِالْأُذُنِ ، وَالسِّنَّ تقلع بِالسِّنِّ ، وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ يقتص من الجارح بمثل ما فعل ، إلا ما يخاف منه كالمأمومة «٢» ، والجائفة ، وكسر الفخذ ، فيعطى الدية ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ أي : بالدم ، بأن عفى عن الجارح أو القاتل فلم يقتص ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ أي للمقتول ، يغفر اللّه ذنوبه ويعظم أجره ، أو كفارة للقاتل أو الجارح ، يعفو اللّه بذلك عن القاتل لأن صاحب الحق قد عفا عنه ، أو كفارة للعافى لأنه مسامح فى حقه ، أو من تصدق بنفسه ومكنها من القصاص فهو كفارة له ، اقتص منه أو عفى عنه.

---

(١) أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب ٥٤) ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب فضائل عمر رضى اللّه عنه) عن أبى هريرة ، بلفظ :

«إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون وإنه إن كان فى أمتى هذه ، فإنه عمر بن الخطاب»
(٢) المأمومة : هى الشجة التي تبلغ أم الرأس ، وهى الجلدة التي تجمع الدماغ.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٥
وفيه دليل على أن الحدود مكفرة لا زواجر ، وزعم ابن العربي : أن المقتول يطالب يوم القيامة ، ولو قتل فى الدنيا قصاصا لأنه لم يتحصل للمقتول من قتل قاتله شيء ، وأن القصاص إنما هو ردع ، وأجيب بمنع أنه لم يتحصل له شيء ، بل حصلت له الشهادة وتكفير لذنوبه ، كما فى الحديث : «السيف محاء للخطايا» «١». ولو كان القصاص للردع خاصة لم يشرع العفو ، قاله ابن حجر ، وفى حديث البخاري : «من أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا ، فهو كفارة له ، وإن ستره اللّه فهو فى المشيئة».
وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ من القصاص وغيره فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ المتجاوزون حدود اللّه ، وما كتب اللّه على بنى إسرائيل هو أيضا مكتوب علينا ، لأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ ، ولا ناسخ هنا ، بل قررته السنة والإجماع. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : القصاص مشروع وهو من حقوق النفس لأنها تطلبه تشفيا وغيظا ، والعفو مطلوب ومرغب فيه ، وهو من حقوق اللّه ، هو طالبه منك ، وأين ما تطلبه لنفسك مما هو طالبه منك؟ ومن شأن الصوفية الأخذ بالعزائم ، واتباع أحسن المذاهب ، قال تعالى : الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ «٢» ، ومن شأنهم أيضا : الغيبة عن حظوظ النفس ، ولذلك قالوا : (الصوفي دمه هدر ، وماله مباح) ، وقالوا أيضا : (الصوفي كالأرض ، يطرح عليها كل قبيح ، وهى تنبت كلّ مليح) ، – ومن أوكد الأمور عندهم عدم الانتصار لأنفسهم. وباللّه التوفيق.
ولما فرغ من الكلام مع اليهود شرع يتكلم مع النصارى ، فقال :
[سورة المائدة (٥) : الآيات ٤٦ الى ٤٧]
وَقَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (٤٧)
قلت : (قفينا) : اتبعنا ، مشتق من القفا كأن مجيء عيسى كان فى قفا مجيء النبيين وخلفهم ، وحذف المفعول الأول ، أي : أتبعناهم ، وبِعِيسَى مفعول ثان ، وجملة : (فيه هدى ونور) : حال من «الإنجيل» ، و(مصدقا) : عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله : وأتبعنا النبيين المتقدمين وجئنا على إثرهم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ أي : ما تقدم أمامه مِنَ التَّوْراةِ وتصديقه للتوراة إما لكونه مذكورا فيها ثم ظهر ، أو بموافقة ما جاء به من التوحيد والأحكام لما فيها ، أو لكونه صدّق بها وعمل بما فيها.

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد فى المسند ٤/ ١٨٥. من حديث عتبة بن عبد السلمى.

(٢) من الآية : ١٨ من سورة الزمر.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٦

وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ فالهدى لإصلاح الظواهر بالشرائع ، والنور لإصلاح الضمائر بالعقائد الصحيحة والحقائق الربانية ، وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ بتقرير أحكامها ، والشهادة على صحتها ، وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ أي : وإرشادا وتذكيرا للمتقين لأنهم هم الذين ينفع فيهم الموعظة والتذكير ، دون المنهمكين فى الغفلة ، قد طبع اللّه على قلوبهم فهم لا يسمعون.

ثم أمر اللّه أهل الإنجيل بالحكم بما فيه ، فقال : وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ من الأحكام ، وقرأ حمزة : (و ليحكم) بلام الجر أي : وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل الإنجيل بما فيه ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ الخارجون عن طاعة الحق. قال البيضاوي : والآية تدل على أن الإنجيل مشتملة على الأحكام ، وأن اليهودية منسوخة ببعث عيسى عليه السّلام ، وأنه كان مستقلا بالشرع. وحملها على : وليحكموا بما أنزل اللّه ، فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة خلاف الظاهر. هـ.

الإشارة : قد جمع اللّه فى هذه الأمة المحمدية ما افترق فى غيرها فى الأزمنة المتقدمة ، فعلماؤها وأولياؤها كالأنبياء والرسل ، كلما مات عالم أو ولى قفاه اللّه بآخر ، أما العلماء فأمرهم متفق وحالهم متقارب ، فمدار أمرهم على تحصيل العلوم الرسمية والأعمال الظاهرية ، وأما الأولياء – رضى اللّه عنهم – ، فأحوالهم مختلفة ، فمنهم من يكون على قدم نوح عليه السّلام فى القوة والشدة ، ومنهم من يكون على قدم إبراهيم عليه السّلام فى الحنانة والشفقة. ومنهم من يكون على قدم موسى عليه السّلام فى القوة أيضا ، ومنهم من يكون على قدم عيسى عليه السّلام فى الزهد والانقطاع إلى اللّه تعالى ، ومنهم من يكون على قدم نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو أعظمهم لجمعه ما افترق فى غيره ، وكل واحد يؤتيه اللّه نورا فى الباطن يجذب به القلوب إلى الحضرة ، وهدى فى الظاهر يصلح به الظواهر فى الشريعة. واللّه تعالى أعلم.

ثم شرع يتكلم مع الأمة الإسلامية المحمدية ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٤٨]

وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)

قلت : (مهيمنا) أي : شاهدا ، والشرعة والمنهاج : قال ابن عطية : معناهما واحد ، وقال ابن عباس : أي : سبيلا وسنة. قلت : والظاهر : أن الشرعة يراد بها الأحكام الظاهرة ، وهى التي تصلح الظواهر ، والمنهاج يراد به علوم الطريقة الباطنية ، وهى التي تصلح الضمائر ، وهو مضمن علم التصوف.

(٤٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٧

يقول الحق جل جلاله : وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ يا محمد الْكِتابَ أي : القرآن ملتبسا بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ من جنس الكتاب ، أي : مصدقا لما تقدمه من الكتب ، بموافقته لهم فى الأخبار والتوحيد ، وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ أي : شاهدا عليه بالصحة ، أو راقبا عليه من التغيير فى المعنى ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ إليك وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ منحرفا عما جاءك من الحق إلى ما يشتهونه ، لكل نبى جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً ظاهرة يصلح بها الظواهر ، وَمِنْهاجاً أي : طريقا واضحا يسلك منها إلى معرفة الحق ، وهو ما يتعلق بإصلاح السرائر ، واستدل به على أنا غير متعبدين بالشرائع المتقدمة.

وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً أي : جماعة واحدة متفقة على دين واحد ، وَلكِنْ عدد الشرائع وخالف بينها لِيَبْلُوَكُمْ أي : يختبركم فيما آتاكم من الشرائع المختلفة ، أيكم ينقاد ويخضع للحق أينما ظهر ، فإن اختلاف الأحوال وتنقلات الأطوار فيه يظهر الإقرار والإنكار ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ أي : بادروا إلى الانقياد إلى الطاعات واتباع الحق والخضوع لمن جاء به أينما ظهر ، انتهازا للفرصة ، وحيازة لفضل السبق والتقدم ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فيظهر السابقون من المقصرين ، فَيُنَبِّئُكُمْ أي : يخبركم بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ من أمر الدين بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل ، والمبادر والمقصر ، واختلاف الشرائع إنما هى باعتبار الفروع ، وأما الأصول كالتوحيد والإيمان بالرسل ، والبعث ، وغير ذلك من القواعد الأصولية ، فهى متفقة قال – عليه الصلاة السّلام – : «نحن أبناء علات ، أمهاتنا شتى وأبونا واحد» «١». يعنى التوحيد. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أن نبينا – عليه الصلاة والسّلام – جمع اللّه له ما افترق فى غيره ، فذاته الشريفة

جمعت المحاسن كلها ظاهرة وباطنة ، وكتابه جمع ما فى الكتب كلها فهو شاهد عليها ، وشريعته جمعت الشرائع كلها ، ولذلك كان الولي المحمدي هو أعظم الأولياء.

واعلم أن الحق – جل جلاله – جعل لكل عصر تربية مخصوصة بحسب ما يناسب ذلك العصر ، كما جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا بحسب الحكمة ، فمن سلك بالمريدين تربية واحدة ، وأراد أن يسيرهم على تربية المتقدمين ، فهو جاهل بسلوك الطريق ، فلو كان السلوك على نمط واحد ما جدد اللّه الرسل بتجديد الأزمنة والأعصار ، فكل نبى وولى يبعثه اللّه تعالى بخرق عوائد زمانه ، وهى مختلفة جدا ، فتارة يغلب على الناس التحاسد والتباغض ، فيبعث بإصلاح ذات البين والتآلف والتودد وتارة يغلب حب الرياسة والجاه فيربى بالخمول وإسقاط المنزلة ، وتارة يغلب حب الدنيا وجمعها فيربى بالزهد فيها والتجريد والانقطاع إلى اللّه.

وهكذا فليقس مالم يقل. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب «واذكر فى الكتاب مريم ..») ومسلم فى (الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السّلام) عن أبى هريرة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٨

ولما قصدت اليهود أن يفتنوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بأن يحكم لهم بما يشتهون ، أنزل اللّه تعالى :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٤٩ الى ٥٠]

وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)

قلت : (و أن احكم) : عطف على الكتاب ، أي : وأنزلنا إليك الكتاب والحكم بينهم بما أنزل اللّه ، أو على الحق ، أي : أنزلناه بالحق وبالحكم بما أنزل اللّه ، و(أن يفتنوك) : بدل اشتمال من الضمير ، أي : احذر فتنتهم ، واللام فى قوله : (لقوم) : للبيان ، أي : هذا الاستفهام لقوم يوقنون ، فإنهم هم الذين يعلمون ألّا أحسن حكما من اللّه.

يقول الحق جل جلاله لرسوله – عليه الصلاة والسّلام – : وَأمرناك أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ أي : بين اليهود بِما أَنْزَلَ اللَّهُ ، قيل هو ناسخ للتخيير المتقدم ، وقيل : لا ، والمعنى أنت مخير ، فإن أردت أن تحكم بينهم فاحكم بما أنزل اللّه وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ الباطلة ، التي أرادوا أن يفتنوك بها ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ

عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، فيصرفوك عن الحكم به.

روى أن أحبار اليهود قالوا : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه ، فقالوا : يا محمد ، قد عرفت أنّا أحبار اليهود ، وأنّا إن اتبعناك اتبعتك اليهود كلهم ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة ، فنتحاكم إليك ، فتقضى لنا عليهم ، ونحن نؤمن بك ونصدقك ، فأبى ذلك عليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وردّهم ، فنزلت الآية «١».

قال تعالى لنبيه – عليه الصلاة السّلام – : فَإِنْ تَوَلَّوْا عن الإيمان ، بل وأعرضوا عن اتباعك ، فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ فى الدنيا ، ويدخر جلّها للآخرة ، وقد أنجز اللّه وعده ، فأجلى بنى النضير ، وقتل بنى قريظة ، وسبا نساءهم وذراريهم ، وباعهم فى الأسواق ، وفتح خيبر ، وضرب عليه الجزية ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ خارجون عن طاعة اللّه ورسوله ، أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ أي : يطلبون منك حكم الملة الجاهلية التي هى متابعة الهوى ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أي : لا أحد أحسن حكما من اللّه تعالى عند أهل الإيقان لأنهم هم الذين يتدبرون الأمر ، ويتحققون الأشياء بأنظارهم ، فيعلمون ألّا أحسن حكما من اللّه عز وجل.

الإشارة : إذا كثرت عليك الخصوم الوهمية أو الواردات القلبية ، والتبس عليك أمرهم ، ولم تدر أيهما تتبع؟

فاحكم بينهم بالكتاب والسنة ، فمن وافق كتاب اللّه وسنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فاتبعه ، فإن من أمّر الكتاب والسّنة على نفسه نطق بالحكمة ، وإن وافق أكثر من واحد الكتاب أو السنة ، فانظر أثقلهم على النفس ، فإنه لا يثقل عليها إلا ما هو

---

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسير الآية ، والبيهقي فى دلائل النبوة (باب ما جاء فى دخول عبد اللّه بن سلام على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم) عن ابن عباس.

حق ، ولا تتبع أهواء النفوس والخواطر ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل على قلبك من العلوم والأسرار ، فإن متابعة الهوى يعمى القلب عن مطالعة الأسرار ، إلا إن وافق السّنة.

قيل لعمر بن عبد العزيز : ما الدّ الأشياء عندك؟ قال : حق وافق هواى. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم «لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تابعا لما جئت به» ، وفى الحكم : «يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك ، إنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك».

فمن تولى عن هذا المنهاج الواضح ، وجعل يتبع الهوى ويسلك طريق الرخص ، فليعلم أن اللّه أراد أن يعاقبه ببعض سوء أدبه ، حتى يخرج عن منهاج السالكين ، والعياذ بالله ، أو يؤدبه فى الدنيا إن كان متوجها إليه.

ثم حذّر من صحبة أهل الأهواء ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٥١ الى ٥٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ (٥٣)

قلت : (يقول الذين آمنوا) قرىء بغير واو استئنافا ، وكأنه جواب عن سؤال ، أي : ماذا يقول المؤمنون حينئذ؟

فقال : يقول ... إلخ ، وقرىء بالواو والرفع عطف جملة على جملة ، وقرىء بالواو والنصب عطف على (فيصبحوا) أو (يأتى).

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ تنتصرون بهم ، أو تعاشرونهم معاشرة الأحباب ، أو تتوددون إليهم ، وأما معاملتهم من غير مودة فلا بأس ، ثم علل النهى عن موالاتهم فقال : هم بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ أي : لأنهم متفقون على خلافكم ، يوالى بعضهم بعضا لاتحادهم فى الدين ، وإجماعهم على مضادتكم ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ أي : من والاهم منكم فإنه من جملتهم.

قال البيضاوي : وهذا تشديد فى وجوب مجانبتهم ، كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم «المؤمن والمشرك لا تتراءى نارهما» «١» أو لأن الموالين لهم كانوا منافقين. هـ.

---

(١) أخرجه أبو داود فى (الجهاد ، باب النهى عن قتل من اعتصم بالسجود) والترمذي فى (السير ، باب كراهة المقام بين أظهر المشركين) من حديث جرير : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بعث سرية إلى خثعم ، فاعتصم ناس بالسجود .. الحديث ، وفيه : وقال : أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ، قالوا : ولم؟ «لا تترأى نارهما».

ومعناه : لا ينبغى لمسلم أن يساكن الكفار حتى إذا أوقدوا نارا كان منهم بحيث يراها. أنظر معالم السنن للخطابى على هامش سنن أبى داود ٣/ ١٠٥.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٠

وقال ابن عطية : من تولهم بمعتقده ودينه فهو منهم فى الكفر واستحقاق النقمة والخلود فى النار ، ومن تولاهم بأفعاله من العضد ونحوه ، دون معتقد ولا إخلال بإيمان ، فهو منهم فى المقت والمذمة الواقعة عليهم وعليه. هـ.

وسئل ابن سيرين عن رجل أراد بيع داره للنصارى يتخذونها كنيسة ، فتلا هذه الآية : وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ. هـ. وفى أبى الحسن الصغير : أن بيع غير السلاح للعدو الكافر فسق ، وبيع السّلاح له كفر.

قلت : ولعله إذا قصد تقويتهم على حرب المسلمين ، وأما الفداء بالسلاح إذا لم يقبلوا غيره ، فيجوز فى القليل دون الكثير. وأجازه سحنون مطلقا ، إذا لم يرج فداؤه بالمال. انظر الحاشية.

إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أي : ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار.

فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وهم المنافقون ، يُسارِعُونَ فِيهِمْ أي : فى موالاتهم ومناصرتهم ، يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ أي : يعتذرون بأنهم يخافون أن تصيبهم دائرة من الدوائر ، بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار. روى أن عبادة بن الصامت قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : إن لى موالى من اليهود ، كثير عددهم ، وإنى أبرأ إلى اللّه ورسوله من ولايتهم ، فقال ابن أبى : إنى امرؤ أخاف الدوائر ، لا أبرأ من ولاية موالى ، فنزلت الآية ، قال تعالى ردا عليه : فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على أعدائه وإظهار المسلمين ونصرهم ، أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ، يقطع شأفة اليهود ، من القتل والإجلاء ، فَيُصْبِحُوا أي : هؤلاء المنافقون ، عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ من الكفر والنفاق ، ومن مظاهرة اليهود نادِمِينَ.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا حينئذ – أي : حين فتح اللّه على رسوله وفضح سريرة المنافقين – : أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ، يقوله المؤمنون بعضهم لبعض ، تعجبا من حال المنافقين وتبجحا بما منّ اللّه عليهم من الإخلاص ، أو يقولونه لليهود لأن المنافقين حلفوا لهم بالمناصرة ، كما حكى تعالى عنهم وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ «١» قاله البيضاوي. وقوله : حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ. يحتمل أن يكون من كلام المؤمنين ، أو من قول اللّه تعالى ، شهادة عليهم بحبوط أعمالهم ، وفيه معنى التعجب ، كأنه قال : ما أحبط أعمالهم وما أخسرهم! واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد تقدم مرارا النهى عن موالاة الغافلين ، وخصوصا الفجار منهم ، ويلتحق بهم القراء المداهنون وهم فسقة الطلبة الذين هم على سبيل الشيطان ، والفقراء الجاهلون وهم من لا شيخ لهم يصلح للتربية ، والعلماء المتجمدون ، فصحبة هؤلاء تقدح فى صفاء البصيرة ، وتخمد نور السريرة ، وكل من تراه من الفقراء يميل إلى هؤلاء خشية الدوائر ، ففيه نزعة من المنافقين. واللّه تعالى أعلم.

(١) من الآية ١١ من سورة الحشر.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥١

ثم تكلم على بقية حفظ الإيمان ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٥٤ الى ٥٦]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ (٥٦)

قلت : (من) : شرطية ، و(يرتدد) «١» : فعل الشرط ، فمن قرأه بالتفكيك فعلى الأصل ، ومن قرأه بالإدغام ففتحه تخفيفا. وجملة (فسوف يأتى) : جواب ، والعائد من الجملة محذوف ، أي : فسوف يأتى اللّه بقوم مكانهم .. إلخ.

و(أذلة) : نعت ثان لقوم ، جمع ذليل ، وأتى به مع على لتضمنه معنى العطف والحنو ، و(لا يخافون) : عطف على يجاهدون ، وجملة : (و هم راكعون) : حال ، إن نزلت فى علىّ رضى اللّه عنه ، أو عطف إن كانت عامة.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ويرجع عنه بعد الدخول فيه ، فسيأتى اللّه بقوم مكانهم يُحِبُّهُمْ فيثبتهم على دينهم ، وَيُحِبُّونَهُ فيجاهدون من رجع عن دينه ، وهم أهل اليمن ، والأظهر أنهم أبو بكر الصدّيق وأصحابه ، الذين قاتلوا أهل الردة ، ويدل على ذلك الأوصاف التي وصفهم اللّه بها من الجد فى قتالهم ، والعزم عليه ، التي كانت من أوصاف الصدّيق ، وكذلك قوله : أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ فقد كان أبو بكر ضعيفا فى نفسه ، قويا فى ذات اللّه ، لم يخف فى اللّه لومة لائم ، حين لامه بعض الصحابة فى قتالهم.

وفى الآية إخبار بالغيب قبل وقوعه ، فقد ارتد من العرب فى أواخر عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ثلاث فرق : بنو مدلج ، وكان رئيسهم الأسود العنسي ، تنبأ باليمن ، واستولى على بلادهم ، ثم قتله فيروز الديلمي ، ليلة قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من غدها ، وأخبر بموته الرسول – عليه الصلاة والسّلام – فسر المسلمون. وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب ، تنبأ باليمامة ، وكتب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : من مسيلمة رسول اللّه إلى محمد رسول اللّه ، أما بعد : فإن

الأرض نصفها لى ونصفها لك ، فأجابه صلّى اللّه عليه وسلّم : «من محمد رسول اللّه إلى مسيلمة الكذاب ، أمّا بعد : فإنّ الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين» ، فحاربه أبو بكر بجند المسلمين ، وقتله وحشي قاتل حمزة ، وبنو أسد قوم طليحة ، تنبأ فبعث إليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم خالد بن الوليد فقاتله ، فهرب إلى الشام ، ثم أسلم وحسن إسلامه.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر (يرتدد) بدالين ، وقرأ الباقون (يرتد) بدال واحدة.

وفى عهد أبى بكر ، بنو فزارة قوم عيينة بن حصن ، وغطفان قوم قرة بن مسلمة ، وبنو سليم ، وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة ، وبعض تميم ، قوم سجاح المتنبئة زوجة مسيلمة ، وكندة قوم الأشعث بن قيس ، وبنو بكر بن وائل بالبحرين ، فكفى اللّه أمرهم على يديه. وفى مدة عمر رضى اللّه عنه غسان ، قوم جبلة بن الأيهم ، الذي ارتد من اللطمة.

فهؤلاء جملة من ارتد من العرب. فأتى اللّه بقوم أحبهم وأحبوه ، فجاهدوهم حتى ردوهم إلى دينهم.

ومحبة اللّه للعبد : توفيقه وعصمته وتقريبه من حضرته. ومحبة العبد للّه : طاعته والتحرز من معصيته ، وسيأتى فى الإشارة الكلام عليها.

ثم وصفهم بقوله : أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أي : عاطفين عليهم خافضين جناحهم لهم ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ شداد متغالبين عليهم ، وهذا كقوله فيهم : أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ ، «١» يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ من ارتد عن دين اللّه ، وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ لصلابتهم فى دين اللّه ، وفيه إشارة إلى خطأ من لام الصّدّيق فى قتال أهل الردة ، وقالوا له : كيف تقاتل قوما يقولون : لا إله إلا اللّه؟ فقال : (و اللّه لنقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة) – فلم يلتفت إلى لومهم. ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ ، الإشارة إلى ما خصهم اللّه به ، من المحبة والأخلاق الكريمة ، وَاللَّهُ واسِعٌ الفضل والعطاء عَلِيمٌ بمن هو أهله.

ولمّا نهى عن موالاة الكفار ذكر من هو أهل للموالاة فقال : إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا لم يقل : أولياؤكم بالجمع ، تنبيها على أن الولاية للّه على الأصالة ، ولرسوله وللمؤمنين على التبع ، ثم وصفهم بقوله :

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ أي : خاضعون للّه ، ولعباده متواضعون ، منقادون لأحكامه ، أو يتصدقون فى حال ركوعهم فى الصلاة ، حرصا على الخير ومسارعة إليه ، قيل : نزلت فى على – كرم اللّه وجهه – سأله سائل وهو راكع فى صلاة ، فطرح له خاتمه ، وقيل : عامة ، وذكر

الركوع بعد الصلاة لأنه من أشرف أعمالها.

وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، أي يتخذهم أولياء ، فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ أي : فإنهم الغالبون ، ووضع الظاهر موضع المضمر ليكون كالبرهان عليه ، فكأنه قال : ومن يتول هؤلاء فهم حزب اللّه ، وحزب اللّه هم الغالبون ، وتنويها بذكرهم وتعظيما لشأنهم ، وتعريضا بمن يوالى غير هؤلاء ، فإنه حزب الشيطان ، وأصل الحزب : القوم يجتمعون لأمر حزبهم. قاله البيضاوي.

الإشارة : محبة الحق تعالى لعبده سابقة على محبته له ، كما أن توبته عليه سابقة لتوبته ، قال تعالى : يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا «٢» ، قال أبو يزيد رضى اللّه عنه : غلطت فى ابتداء أمرى فى أربعة أشياء : توهمت أنى أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه ، فلما انتهيت ، رأيت ذكره سبق ذكرى ، ومعرفته تقدمت معرفتى ، ومحبته أقدم من محبتى ، وطلبه لى من قبل طلبى له. هـ.

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(٢) من الآية ١١٨ من سورة التوبة. [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٣

وفى الحكم : «أنت الذاكر من قبل الذاكرين ، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين ، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين ، وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين».

ومحبة اللّه لعبده : حفظه ورعايته ، وتقريبه واصطفاؤه لحضرته ، وقال القطب ابن مشيش – رضى اللّه عنه – :

المحبة أخذة من اللّه قلب من أحب ، بما يكشف له من نور جماله ، وقدس كمال جلاله ، وشراب المحبة : مزج الأوصاف بالأوصاف ، والأخلاق بالأخلاق ، والأنوار بالأنوار ، والأسماء بالأسماء ، والنعوت بالنعوت ، والأفعال بالأفعال.

قلت : ومعنى ذلك : غيبة العبد فى شهود الحق ، وهو مقام الفناء ، ثم قال رضى اللّه عنه : والشراب – أي : الشرب – سقى القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب ، حتى يسكر ، ويكون الشرب بالتدريب بعد التدريب والتهذيب ، أي يكون شرب الخمرة شيئا فشيئا ، ووقتا فوقتا ، حتى يتمكن من شهود المعاني بلا فترة ، فذلك الرّى ، وذلك بعد كمال التهذيب ، فيسقى كل على قدره ، فمنهم من يسقى بغير واسطة ، واللّه سبحانه يتولى ذلك منه ، (قلت : وهو نادر ، والغالب عليه الانحراف) ، ومنهم من يسقى من جهة الوسائط ، كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين ، (قلت :

قوله : كالملائكة ... تمثيل للوسائط ، فالملائكة للأنبياء ، والعلماء باللّه وأكابر المقربين لغيرهم) ، ثم قال : فمنهم من يسكر بشهود الكأس ، ولو لم يذق بعد شيئا ، فما ظنك بعد بالذوق ، وبعد بالشرب ، وبعد بالري ، وبعد بالسكر بالمشروب ، ؟! ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى ، كما أن السكر أيضا كذلك. انظر بقية كلامه مع شرحه فى شرحنا لخمرية ابن الفارض.

وقال شيخنا البوزيدى رضى اللّه عنه : المحبة لها ثلاث مراتب : بداية ووسط ونهاية فبدايتها لأهل الخدمة ، كالعباد والزهاد والصالحين والعلماء المجتهدين. ووسطها لأهل الأحوال ، الذين غلب عليهم الشوق حتى صدرت منهم شطحات ورقصات وأحوال غريبة ربما ينكرها أهل ظاهر الشريعة ، فمنهم من يغلب عليه الجذب حتى يصطلم ، ومنهم من يبقى معه شىء من الصحو ، وهؤلاء تظهر عليهم كرامات وخوارق العادات ، ونهايتها لأهل العرفان ، أهل مقام الشهود والعيان ، الذين شربوها من يد الوسائط وسكروا بها ، وصحوا. هـ. بالمعنى.

وفى الورتجبي ما حاصله : أن محبتهم بعد المشاهدة ، وإلا لم تكن محبة حقيقة لأن محبة الآلاء والنعماء معلولة ، ولا كذلك هذه ، لأن من رآه عشقه ، وكيف يرجع عنه من كان مسلوب القلب بعشقه لجماله؟ ولذلك لم يرتدوا عن دينهم الذي هو المحبة. هـ.

وللمحبة علامات وثمرات ، ذكر بعضها الحق تعالى بقوله : أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أي : متواضعين عاطفين عليهم ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ ، أي : القواطع ، غالبين عليهم ، يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي :

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٤

أنفسهم وأهواءهم ، وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ إذ لا يراقبون سوى المحبوب ، وليس للمحبة طريق إلا محض الفضل والكرم. ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ لكن صحبة المحبوبين عند اللّه من أسبابها العادية ، وهم أولياء اللّه الذين هم حزب اللّه ، فولايتهم والقرب منهم من أسباب القرب والمحبة ، ومن موجبات النظر والغلبة وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ ثم نهى عن صحبة ضدهم ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٥٧ الى ٥٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَلَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (٥٨)

قلت : (و الكفار) : من نصب عطف على الموصول الأول ، ومن جرّ فعلى الموصول الثاني.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً من شدة كفرهم ، وغلبة سفههم مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ كاليهود والنصارى ، وَلا تتخذوا أيضا الْكُفَّارَ من المشركين أَوْلِياءَ وأصدقاء ، أو : لا تتخذوا من اتخذ دينكم هزوا ولعبا من أهل الكتاب ومن المشركين أولياء ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فى موالاتهم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن الإيمان يقتضى الوقوف عند الأمر والنهى.

وكيف توالون من يستهزىء بدينكم ، وَإِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَلَعِباً ، روى أن نصرانيا بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول : أشهد أن محمدا رسول اللّه ، قال : أحرق اللّه الكاذب. فدخل خادمه ذات ليلة بنار ، وأهله نيام ، فطارت شرارة فى البيت ، فأحرقته وأهله). وفى الآية دلالة على مشروعية الأذان من القرآن. ثم قال تعالى : ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ فإن السفه يؤدى إلى الجهل بالحق والهزء به ، والعقل يقتضى المنع من الجهل والإقرار بالحق وتعظيمه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد حذّر الحق جل جلاله من صحبة الأشرار ، ويفهم منه الترغيب فى موالاة الأخيار ، وهم الصوفية الأبرار ، ففى صحبتهم سر كبير وخير كثير ، ولابن عباد رضى اللّه عنه فى نظم الحكم :

إنّ التّواخى فضله لا ينكر وإن خلا من شرطه لا يشكر

والشرط فيه أن تواخى العارفا عن الحظوظ واللحوظ صارفا

مقاله وحاله سيّان ما دعونا إلّا إلى الرحمان

أنواره دائمة السّراية فيك وقد حفّت به الرّعاية

وفى الحكم : «لا تصحب من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على اللّه مقاله». وباللّه التوفيق.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٥

ثم وبخ أهل الكتاب ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٥٩]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ (٥٩)

قلت : نقم – بفتح القاف – ينقم – بالكسر – ، بمعنى : عاب وأنكر ، وانتقم إذا كافأه على إنكاره ، ويقال : نقم – بالكسر – ينقم – بالفتح – وقرىء به فى الشاذ ، و(أن أكثركم) : عطف على (آمنا) أي : ما تعيبون منا إلا أنا مؤمنون وأنتم فاسقون.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا أي : ما تنكرون علينا وتعيبونه منا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ من الكتب كلها ، وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ خارجون عن هذا الإيمان ،

وهذا أمر لا ينكر ولا يعاب ، ونظير هذا فى الاستثناء العجيب قول النابغة :

لا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب.

الإشارة : أهل الخصوصية يقرون أحوال أهل الشريعة كلها ، ولا ينكرون على أهلها شيئا من أمورهم ، وأهل الشريعة ينكرون كثيرا من أحوال أهل الخصوصية ويعيبونها عليهم ، وهى من أفضل القربات إلى اللّه عندهم ، فيقولون لهم : هل تنقمون منا إلا أن آمنا بشريعتكم ، وأنتم خارجون عن حقيقتنا ورؤية خصوصيتنا ، لكن أهل الشريعة معذورون فى إنكارهم ، إذ ذاك مبلغهم من العلم ، فإن كان إنكارهم غيرة على ما فهموا من الدين فعذرهم صحيح ، وإن كان حسدا أو حمية فهم ممقوتون عند اللّه. واللّه تعالى أعلم.

ولما جاء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم جماعة من اليهود ، فقالوا يا محمد : أخبرنا بمن تؤمن من الرسل ، فتلا عليهم :

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ إلى قوله : وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى «١» فلما سمعوا ذكر عيسى قالوا : ما رأينا شرا من دينك ، فأنزل اللّه تعالى فى الرد عليهم :

[سورة المائدة (٥) : آية ٦٠]

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (٦٠)

قلت : مشاركة اسم التفضيل هنا باعتبار زعمهم واعتقادهم ، وإلا فلا مشاركة بين المسلمين وبينهم فى الشر والضلال ، و(مثوبة) : تمييز عن شر ، وضع موضع الجزاء ، وأصل المثوبة : فى الخير ، والعقوبة : فى الشر ، فوضع هذا المثوبة موضع العقوبة تهكما بهم ، كقوله :

تحيّة بينهم ، ضرب وجيع.

---

(١) الآية ٨٤ من سورة آل عمران.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٦

و(من لعنة اللّه) : إما خبر ، أي : هو من لعنه اللّه ، أو بدل من شر ، ولا بد من حذف مضاف ، إما من الأول أو الثاني ، أي : بشر من أهل ذلك الدين من لعنه اللّه ، أو دين من لعنه اللّه.

ومن قرأ : (عبد) بفتح الباء ، ففعل ماض ، صلة لموصول محذوف ، أي : ومن عبد ، و(الطاغوت) : مفعول به ، ومن قرأ بضم الباء ، فاسم للمبالغة ، كيقظ ، أي : كثير اليقظة ، وهو عطف على القردة ،

والطاغوت مضاف.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : هَلْ أخبركم بأقبح من ذلك الدين الذي قلتم ما رأيتم شرا منه ، هو دين مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ ، أو نفس من لعنه اللّه ، أي : أبعده من رحمته وَغَضِبَ عَلَيْهِ بكفره وعصيانه ، وهم اليهود ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنازِيرَ أي : مسخ بعضهم قردة وخنازير ، وهم أصحاب السبت ، مسخ شبابهم قردة ، وشيوخهم خنازير ، وَجعل منهم أيضا من عَبَدَ الطَّاغُوتَ ، وهم عباد العجل ، أو الكهنة ، أو كل من أطاعوه فى معصية اللّه ، أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً أي : أقبح مكانا ، أي : أقبح مرتبة وأخس حالا ، جعل مكانهم شرا ، ليكون أبلغ فى الدلالة على شريتهم ، وَهم أيضا أَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ أي : عن وسط الطريق ، بل حادوا عنه إلى طرق تفريط أو إفراط ، حيث تركوا طريق الإسلام ، الذي هو الصراط المستقيم.

الإشارة : من كان متلطخا بالمعاصي والذنوب ، وباطنه محشو بالمساوئ والعيوب كالحسد والجاه وحب الدنيا وسائر أمراض القلوب ، ثم جعل يطعن فى طريق الخصوص ، يقال له : هل أنبئك بشر من ذلك ، هو من أبعده اللّه بسبب المعاصي والذنوب ، وغضب عليه بسبب أمراض القلوب ، ومسخ قلبه عن مطالعة أنوار الغيوب ، فهذا أقبح مكانا وأضل سبيلا ، فكل من أولع بالطعن على الذاكرين ، يمسخ قلبه بالغفلة والقسوة ، حتى يفضى إلى سوء الخاتمة. والعياذ باللّه.

ثم وسمهم الحق تعالى بالنفاق ، أي : اليهود ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٦١]

وَإِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ (٦١)

قلت : جملة : (و قد دخلوا) ، وجملة : (و هم قد خرجوا) ، حالان من فاعل (قالوا) ، ودخلت (قد) على دخلوا وخرجوا تقريبا للماضى من الحال ، ليصح وقوعه حالا أي : ذلك حالهم فى دخولهم وخروجهم على الدوام ، وأفادت أيضا – لما فيها من التوقع – أن أمارات النفاق كانت لائحة عليهم.

يقول الحق جل جلاله فى ذكر مساوئ اليهود : وَإِذا جاؤُكُمْ ودخلوا عليكم ، أظهروا الوفاق لكم ، وقالُوا آمَنَّا بدينكم وَهم قَدْ دَخَلُوا عليكم ملتبسين بِالْكُفْرِ فى قلوبهم ، وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا أيضا بِهِ ، فلم ينفع فيهم وعظ ولا تذكير ، بل كتموا النفاق وأظهروا الوفاق ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ فيفضحهم على رؤوس الأشهاد.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٧

الإشارة : من سبق له الطرد والإبعاد لا تنفعه خلطة أهل المحبة والوداد ، بل يخرج من عندهم كما

دخل عليهم ، لا ينفع فيه وعظ ولا تذكير ، ولا ينجح فيه زاجر ولا نذير ، وأما من سبقت له العناية فلا يخرج من عندهم إلا مصحوبا بالهداية والرعاية ، إذا كان فى أسفل سافلين أصبح فى أعلى عليين لأنهم قوم لا يشقى جليسهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية مساوئ اليهود ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٦٢ الى ٦٤]

وَتَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْ لا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)

قلت : (لو لا) : إذا دخلت على الماضي أفادت التوبيخ ، وإذا دخلت على المستقبل أفادت التحضيض.

يقول الحق جل جلاله : وَتَرى يا محمد ، أو يا من تصح منه الرؤية كَثِيراً من اليهود يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ أي : فى الذنوب والمعاصي المتعلقة بهم فى أنفسهم ، وَالْعُدْوانِ المتعلقة بغيرهم ، كالتعدى على أموال الغير وأعراضهم وأبدانهم ، وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ : الحرام كالرشا والربا وغير ذلك ، لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أي :

قبح عملهم بذلك ، وتناهى فى القبح.

لَوْ لا يَنْهاهُمُ أي : هلا ينهاهم الرَّبَّانِيُّونَ أي : عبّادهم ورهبانهم ، (و الأحبار) أي : علماؤهم وأساقفتهم ، عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ أي : الكذب ، وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ : الحرام ، لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ من السكوت عنهم ، وعدم الإنكار عليهم ، عبّر أولا بيعلمون وثانيا بيصنعون لأن الصنع أبلغ ، ولأن الصنع عمل بعد تدريب وتدقيق وتحرى إجادته وجودته ، بخلاف العمل ، ولا شك أن ترك التغيير والسكوت على المعاصي من العلماء وأولى الأمر أقبح وأشنع من مواقعة المعاصي ، فكان جديرا بأبلغ الذم ، وأيضا : ترك التغيير لا يخلو من تصنع ، فناسب التعبير بيصنعون ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «ما من رجل يجاور قوما فيعمل بالمعاصي بين أظهرهم إلّا أوشك اللّه تعالى أن يعمّهم منه بعقاب». وقد قال تعالى : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً «١» ، فالوبال الذي يترتب على ترك الحسبة أعظم من الوبال الذي يترتب على المعصية ، فكان التوبيخ على ترك الحسبة أعظم.

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

ثم نعى عليهم مقالاتهم الشنيعة ، التي هى من جملة قولهم الإثم ، فقال : وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ أي :

مقبوضة عن بسط الرزق. روى أن اليهود أصابتهم سنة جدبة بشؤم تكذيبهم للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم فقالوا هذه المقالة الشنيعة ، والذي قالها فنحاص ، ونسبت إلى جملتهم لأنهم رضوا بقوله ، فغل اليد كناية عن البخل ، وبسطها كناية عن الجود ، ومنه : وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ «١».

ثم رد عليهم فقال : غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ، يحتمل أن يكون دعاء أو خبرا ، ويحتمل أن يكون فى الدنيا بالأسر والقبض ، أو فى الآخرة بجعل الأغلال فيها إلى عنقهم فى جهنم ، قال تعالى : بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ أي : نعمه مبسوطة على عباده ، سحاء عليهم ، الليل والنهار ، وإنما ثنيت اليدان هنا ، وأفردت فى قول اليهود ليكون أبلغ فى الرد عليهم ، ومبالغة فى وصفه تعالى بالجود والكرم ، كما تقول : فلان يعطى بكلتا يديه إذا كان عظيم السخاء ، أو كناية عن نعم الدنيا والآخرة ، أو عن ما يعطيه استدارجا وما يعطيه للإكرام. ثم أكده بقوله : يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ أي : هو مختار فى إنفاقه ، يوسع تارة ويضيق تارة أخرى ، على حسب مشيئته ومقتضى حكمته.

ولمّا عميت بصيرتهم بالكفر ، وقست قلوبهم بالذنوب ، كانوا كلما ازدادوا تذكيرا بالقرآن ، زادوا فى العتو والطغيان ، كما قال تعالى : وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً إذ هم متعصبون بالكفر والطغيان ، ويزدادون طغيانا وكفرا بما يسمعون من القرآن ، كما يزداد المريض مرضا من تناول الغذاء الصالح للأصحاء.

ومن مساوئهم أيضا : تفريق قلوبهم بالعداوة والشحناء ، كما قال تعالى : وَأَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ فلا تتوافق قلوبهم ولا تجتمع آراؤهم كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ أي : كلما أرادوا حرب الرسول – عليه الصلاة السّلام – وإثارة شر عليه ، ردهم اللّه ، وأبطل كيدهم ، بأن أوقع بينهم منازعة كف بها شرهم ، أو : كلما أرادوا حرب عدو لهم هزمهم اللّه ، فإنهم لما خالفوا حكم التوراة سلط عليهم بختنصر ، ثم أفسدوا فسلط عليهم فطرس الرومي ، ثم أفسدوا فسلط عليهم المجوس ، ثم أفسدوا فسلط عليهم المسلمون. فكان شأنهم الفساد ، ولذلك قال تعالى فيهم : وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أي : الفساد بإثارة الحروب والفتن ، وهتك المحارم ، واجتهادهم فى الحيل والخدع للمسلمين ، وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ أي : لا يرضى فعلهم فلا يجازيهم إلا شرا وعقوبة.

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الإسراء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٩

الإشارة : قال الورتجبي : فى الآية تحذير الربانيين العارفين باللّه وبحقوق اللّه ، والأحبار العلماء باللّه وبعذاب اللّه لمن عصاه ، وبثواب اللّه لمن أطاعه لئلا يسكنوا عن الزجر للمبطلين والمغالطين ، المائلين عن طريق الحق إلى طريق النفس ، وبيّن تعالى أن من داهن فى دينه عذب وإن كان ربانيا. هـ. وفى بعض الأثر : «إذا رأى العالم المنكر وسكت ، فعليه لعنة اللّه». والذي يظهر أن نهى الربانيين يكون بالهمة والحال ، كقضية معروف الكرخي وغيره ، ونهى الأحبار يكون بالمقال ، وقد تقدم هذا. واللّه تعالى أعلم.

ثم ندبهم إلى الإسلام فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٦٥ الى ٦٦]

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ (٦٦)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ اليهود والنصارى ، آمَنُوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم وبما جاء به ، وَاتَّقَوْا ما ذكرنا من معاصيهم ومساويهم ، لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ المتقدمة ، ولم نؤاخذهم بها ، وَلَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ مع المؤمنين ، وفيه تنبيه على أن الإسلام يجب ما قبله ولو عظم ، وأن الكتابي لا يدخل الجنة إلا أن يسلم.

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ بالإيمان بما فيهما ، وإذاعة علمهما ، والقيام بأحكامهما ، من غير تفريق بينهما ، وآمنوا بما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ ، يعنى : بسائر الكتب المنزلة ، ومن جملتها القرآن العظيم ، فإنهم لما كلفوا بالإيمان بها صارت كأنها منزلة عليهم ، فلو فعلوا ذلك لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ أي :

لوسعنا عليهم أرزاقهم ، وبسطنا عليهم النعم بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض ، أو : لأكلوا من فوقهم بكثرة ثمرة الأشجار ، ومن تحت أرجلهم بكثرة الزروع ، أو من فوقهم ما يجنون من ثمار أشجارهم ، ومن تحت أرجلهم ما يتساقط منها ، والمراد : بيان علة قبض الرزق عنهم ، وأن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم ، لا لقصور القدرة عن ذلك.

ولو أنهم أقاموا ما ذكرنا لو سعنا عليهم ، ولحصل لهم خير الدارين ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ أي : جماعة عادلة غير غالية ولا مقصرة ، وهم الذين آمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما

يَعْمَلُونَ أي : قبح عملهم ، وفيه معنى التعجب ، أي : ما أسوأ عملهم! ، وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراض عنه ، والإفراط فى العداوة. قاله

(٥٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٠

البيضاوي. قال فى الحاشية : وفى الآية شاهد لما ورد من افتراق أهل الكتابين على فرق ، كما أن شاهد افتراق هذه الأمة آية : وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ «١» ، وهذه هى الناجية من هذه الأمة هـ. يعنى التي تهدى بالحق إلى الحق ، وتعدل به فى جميع الأمور.

الإشارة : كل من حقق الإيمان الكامل والتقوى الكاملة ، وسع اللّه عليه فى أرزاق العلوم ، وفتحت له مخازن الفهوم ، ودخل جنة المعارف ، فلم يشتق إلى جنة الزخارف ، وقال الورتجبي : لو كانوا على محل التحقيق فى المعرفة لأكلوا أرزاق اللّه باللّه من خزائن غيبه ، كأصحاب المن والسلوى والمائدة من السماء ، ويفتح لهم كنوز الأرض وهم على ذلك ، بإسقاط رؤية الوسائط. هـ.

وقال القشيري : لو سلكوا سبيل الطاعات لوسعنا عليهم أسباب المعيشة ، وسهلنا لهم الحال ، إن ضربوا يمنة ، لا يلقون غير اليمن ، وإن ضربوا يسرة ، لا يجدون إلا اليسر. هـ.

ثم أمر رسوله بالتبليغ من غير مبالاة بأهل التشغيب ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٦٧]

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (٦٧)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ جميع ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ غير مراقب أحدا ولا خائف مكروها ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ بأن لم تبلغ جميع ما أمرتك وكتمت شيئا منه ، فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ أي : كأنك ما بلغت شيئا من رسالة ربك لأن كتمان بعضها يخل بجميعها ، كترك بعض أركان الصلاة. وأيضا كتمان البعض يخل بالأمانة الواجبة فى حق الرسل ، فتنتقض الدعوة للإخلال بالأمانة ، وذلك محال. ولا يمنعك أيها الرسول عن التبليغ خوف الإذاية فإن اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ بضمان اللّه وحفظه ، إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ أي : لا يمكنهم مما يريدونه منك. وقد قصده قوم بالقتل مرارا ، فمنعهم اللّه من ذلك كما فى السير عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «بعثني اللّه برسالته ، فضقت بها ذرعا ، فأوحى اللّه لى : إن لم تبلّغ رسالتى عذّبتك ، وضمن لى العصمة فقويت» «٢».

---

(١) من الآية ١٨١ من سورة الأعراف.
(٢) عزاه المناوى فى الفتح السماوي ٢/ ٥٧٤ لاسحاق بن راهويه فى مسنده من حديث أبى هريرة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦١
وعن أنس : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يحرس ، حتى نزلت ، فأخرج رأسه من قبة أدم ، فقال : «انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمنى اللّه من الناس» «١». وظاهر الآية يوجب تبليغ جميع ما أنزل اللّه. ولعل المراد تبليغ ما يتعلق به مصالح العباد ، وقصد بإنزاله اطلاعهم عليه ، فإن من الأسرار الإلهية ما يحرم إفشاؤه. قاله البيضاوي.
الإشارة : قال الورتجبي : أمره بإبلاغ ما أنزل إليه من الذي يتعلق بأحكام العبودية ، ولم يأمرهم بأنه يعرفهم أسرار ما بينه وبين اللّه ، وما بين اللّه وبين أنبيائه وأوليائه. ثم قال : (و اللّه يعصمك) أي : يعصمك أن يوقعك أحد فى التمويه والغلط والحيل فى طريقك إلىّ ، وهذا لكونه مختارا بالرسالة ، وحقائق الرسالة فى الرسول : ظهور أنوار الربوبية فى قلبه ، وبيان أحكام العبودية فى سرّه. وقال الأستاذ ، يعنى القشيري : يقال فى قوله : (و اللّه يعصمك من الناس) أي : حتى لا تغرق فى بحر التوهم ، بل تشاهدهم كما هم وجودا بين طرفى العدم. انتهى نقل الورتجبي.
وقال القشيري أيضا : لا تكتم شيئا مما أوحينا إليك ملاحظة غير ، إذ لا غير فى التحقيق إلا رسوما موضوعة ، أحكام القدرة عليها جارية. ثم قال : (و اللّه يعصمك) أي : يعصم ظاهرك من أن يمسّك من أذاهم شيء ، فلم يتسلط عليه بعد هذا عدو ، أي : وما وقع له من الشج وغيره كان قبل ذلك ، وقيل : المراد عصمته من القتل ، ثم قال :
ونصون سرّك عنهم ، حتى لا يقع على إحساسهم. وقال شيخنا السلمى : قيل : يعصمك منهم أن يكون منك إليهم التفات ، أو يكون لك بهم اشتغال. انتهى.
قلت : صدق الباطن ، لا ينفك عنه من أول الأمر لأنه من ضروريات كونه رسول اللّه باللّه ، وهذا قد يتحقق للمأذون من أتباعه ، فضلا عنه ، والظاهر ما صدر به من عصمة ظاهره ، أو أن يقع خلل فى طريقه بتمويه أو غلط أو حيلة ، كما أشار إليه الورتجبي. فلله دره. قاله المحشى الفاسى. واللّه تعالى أعلم.
ثم أبطل دين من حاد عن رسالة نبيه ، فقال :
[سورة المائدة (٥) : آية ٦٨]
قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً

مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (٦٨)
يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : يا أَهْلَ الْكِتابِ اليهود والنصارى ، لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ أي : لستم على دين يعتد به ، حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ على لسان محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، ومن إقامتها الإيمان بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم والإذعان لحكمه ، فإن الكتب الإلهية بأسرها ، أمرت بالإيمان والإذعان ، لمن صدقته المعجزة ، وهى ناطقة بوجوب الطاعة له ، والمراد بإقامة الكتابين : إقامة أصولهما وما لم ينسخ من فروعهما ، لا جميعهما. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (التفسير ، سورة المائدة) والحاكم فى (التفسير ٢/ ٣١٣) ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، كما أخرجه البيهقي فى الدلائل (باب قول اللّه عز وجل : يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ) من حديث السيدة عائشة رضى اللّه عنها.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٢
الإشارة : ما قيل لأهل الكتاب يقال لهذه الأمة المحمدية على طريق الإشارة ، فيقال لهم : لستم على شىء ، يعبا به من أعمالكم وأحوالكم ، حتى تقيموا كتابكم القرآن ، فتحلوا حلاله ، وتحرموا حرامه ، وتقفوا عند حدوده ، وتمتثلوا أوامره ، وتجتنبوا نواهيه ، وتقيموا – أيضا – سنة نبيكم فتقتدوا بأفعاله ، وتتأدبوا بآدابه ، وتتخلقوا بأخلاقه ، على جهد الاستطاعة ، ولذلك قال بعض السلف : ليس علىّ فى القرآن أشد من هذه الآية : قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ الآية. كما فى البخاري «١».
ثم ذكر عتو اليهود وطغيانهم ، فقال :
...
وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ يقول الحق جل جلاله : وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً من اليهود ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ من القرآن والوحى طُغْياناً وَكُفْراً على ما عندهم ، فلا تحزن عليهم بزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبلغه إليهم ، فإن ضرر ذلك لا حق بهم ، لا يتخطاهم ، قال ابن عباس : جاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم رافع بن حارثة وسلام بن مشكم وملك بن الصيف ورافع بن حريملة فى جماعة من اليهود ، فقالوا : يا محمد ، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ، وأنك مؤمن بالتوراة وبنبوة موسى ، وأن جميع ذلك حق؟ قال : بلى ، ولكنكم أحدثتم وكتمتم وغيرتم». فقالوا : إنا نأخذ بما فى أيدينا فإنه الحق ، ولا نصدقك ولا نتبعك ، فنزلت فيهم هذه الآية.
الإشارة : من شأن أهل المحبة والاعتقاد ، الذين سبقت لهم من اللّه العناية والوداد ، إذا ازداد على

أشياخهم فيض علوم وأنوار وأسرار زادهم ذلك يقينا وإيمانا وعرفانا ، يجدون حلاوة ذلك فى قلوبهم وأسرارهم فيزدادون قربا وشهودا ، وأهل العناد الذين سبق لهم من اللّه الطرد والبعاد إذا سمعوا بزيادة علوم وأنوار على أولياء اللّه ، زادهم ذلك طغيانا وبعدا ، فلا ينبغى الالتفات إليهم ، ولا الاحتفال بشأنهم ، فإن اللّه كاف شرهم ، وباللّه التوفيق.

ثم رغب أهل الملل فى الإسلام ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٦٩]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)

قلت : (و الصابئون) : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن باللّه واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والصابئون كذلك. انظر البيضاوي وابن هشام.

---

(١) القائل هو سيدنا سفيان بن عيينة ، وذكره البخاري فى (الرقاق – باب الرجاء والخوف).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٣

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئُونَ : قوم بين النصارى والمجوس ، أو عباد الكواكب ، أو قوم بقوا على دين نوح – عليه السّلام – وَالنَّصارى : قوم عيسى ، مَنْ آمَنَ منهم بِاللَّهِ إيمانا حقيقيا بلا شرك ولا تفريق ، وآمن باليوم الآخر ، وَعَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، قال ابن عباس : نسخها : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ «١» ، وقيل : إن هؤلاء الطوائف من آمن منهم إيمانا صحيحا فله أجره ، فيكون فى حق المؤمنين : الثبات عليه إلى الموت ، وفى حق غيرهم : الدخول فى الإسلام ، فلا نسخ. وقيل : إنها فيمن كان قبل بعث النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فلا نسخ أيضا. قاله ابن جزى.

الإشارة : الذي طلب اللّه من العباد ورغبهم فى تحصيله ، وجعله سببا للنجاة من كل هول فى الدنيا والآخرة ثلاثة أمور : أحدها : تحقيق الإيمان باللّه ، والترقي فيه إلى محل شهود المعبود ، الثاني : تحقيق الإيمان بالبعث وما بعده ، حتى يكون نصب عينيه ، ويقربه كأنه واقع يشاهده إذ كل آت قريب. والثالث : إتقان العمل إظهارا للعبودية ، وتعظيما لكمال الربوبية ، على قدر الاستطاعة من غير تفريط ولا إفراط ، وباللّه التوفيق.

ثم خص اليهود بالعتاب لعظم جرأتهم ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٧٠ الى ٧١]

لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَأَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (٧١)

قلت : المضارع إذا وقع بعد العلم وجب إهمال (أن) معه ، فتكون مخففة ، وإن وقعت بعد الظن يصح فيها الوجهان ، فمن قرأ : (و حسبوا ألا تكون) بالرفع ، فأن مخففة ، ومن قرأ بالنصب فأن مصدرية. والفرق بين العلم والظن ، أن علم العبد إنما يتعلق بالحال ، و(أن) تخلص للاستقبال ، فلا يصح وقوعها بعد العلم ، فأهملت وكانت مخففة من الثقيلة ، بخلاف الظن فيتعلق بالحال والاستقبال ، فصح وقوع (أن) بعده. و(كلما) : ظرف لكذبوا أو يقتلون ، و(كثير) : بدل من فاعل عموا وصموا.

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ أن يعملوا بأحكام التوراة ، وَأَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلًا يجددون العهد ويحثون على الوفاء به ، ثم إنهم طغوا وعتوا كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ من عند اللّه بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ من الشرائع التي تخالف أهواءهم ومشاق الطاعة ، فَرِيقاً منهم كذبوهم وَفَرِيقاً يقتلونهم ، أي : كذبوا فريقا كداود وسليمان ، وفريقا قتلوهم بعد تكذيبهم كزكريا ويحيى ، وقصدوا قتل عيسى عليه السّلام فليس ما فعلوا معك ببدع منهم ، فلهم سلف فى ذلك.

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة آل عمران.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٤

وَحَسِبُوا أي : ظنوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ أي : لا يقع بهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء – عليهم السّلام – ، وتكذيبهم ، فَعَمُوا عن أدلة الهدى ، أو عن الدين ، وَصَمُّوا عن استماع الوعظ والتذكير ، كما فعلوا حين عبدوا العجل ، ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لما تابوا ، ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا لما قتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء ، واستمر على ذلك كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، وقليل منهم بقوا على العهد وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ فيجازيهم وفق أعمالهم.

الإشارة : لقد أخذ اللّه العهد على جميع بنى آدم فى شأن حمل الأمانة ، التي حملها أبوهم آدم ، وبعث الأنبياء والأولياء يجددون العهد فى حملها ، ويعرفون الناس بشأنها ، وهى المعرفة الخاصة ، التي هى شهود عظمة الربوبية فى مظاهر العبودية ، وحملها لا يكون إلا بمخالفة الهوى وخرق عوائد النفوس ، ولا يطيقها إلا الخصوص ، فلذلك كثر الإنكار على الأنبياء والأولياء إذ لم يأت أحد بخرق العوائد إلا

عودى وأنكر ، فكلما جاءهم رسول أو ولى بما لا تهوى أنفسهم فريقا منهم كذبوا وفريقا يقتلون ، وظنوا أن اللّه لا يعاقبهم على ذلك ، ولا تصيبهم فتنة فى قلوبهم على ما هنالك ، فعموا عن مشاهدة أنوار الحق ، وصموا عمن يذكرهم بالحق ، وقد تلمع لهم تارة قبس من أنوارهم ، فيتوبون ، ثم يصرّون على الإنكار. واللّه بصير بما يعملون.

ثم ذكر مساوئ النصارى ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٧٢ الى ٧٦]

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْواهُ النَّارُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦)

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ لما رأوا على يديه من الخوارق ، وَقالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ المعنى : لقد كفر من اتخذ عيسى إلها مع أنه كان يتبرأ من هذا الاعتقاد ، ويقول لبنى إسرائيل : اعبدوا اللّه خالقى وخالقكم.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٥

والمشهور فى الأخبار ، أن النصارى هم الذين اعتقدوا هذا الاعتقاد دون بنى إسرائيل ، نعم ، أصل دخول هذه الشبهة على النصارى من يهودى يقال له : بولس ، حسدا منه ، وذلك أنه دخل فى دينهم ، وفرق أموالهم ، وتأهب للتعبد معهم ، ثم سار إلى بيت المقدس وقطع نفسه تقربا عند قبرى مريم وعيسى – عليهما السلام – فى زعمهم ، وكان معه رجلان اسمهما : يعقوب وناسور ، فأخذ يعلمهما ذلك الفساد ويقول لهما : عيسى هو اللّه أو ابن اللّه ، فلما قطع نفسه صار الرجلان يفشيان ذلك عنه ، فشاع مذهب الرجلين ، وكان منهما الطائفة اليعقوبية والناسورية.

ثم هددهم على الشرك فقال ، أي : عيسى : إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فى عبادته ، أو فيما يختص به من الصفات والأفعال ، فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ أي : يمنع من دخولها لأنها دار الموحدين ، وَمَأْواهُ النَّارُ أي : محله النار ، لأنها معدة للمشركين ، وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ أي : وما لهم أحد ينصرهم من النار. ووضع المظهر موضع المضمر ، تسجيلا على أنهم ظلموا بالإشراك ، وعدلوا عن طريق الحق ، وهو

يحتمل أن يكون من تمام كلام عيسى عليه السّلام ، أو من كلام اللّه تعالى.
ثم ذكر تعالى صنفا آخر منهم ، فقال : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ أي : أحد ثلاثة ، عيسى وأمه وهو ثالثهم ، أو أحد الأقانيم الثلاثة ، الأب والابن وروح القدس ، يريدون بالأب الذات ، وبالابن العلم ، وبروح القدس الحياة ، لكن فى إطلاق هذا اللفظ إيهام وإيقاع للغير فى الكفر ، وهذه المقالة – أعنى التثليث ، هى قوله النسطورية والملكانية ، وما سبق فى قوله : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ قول اليعقوبية ، القائلة بالاتحاد ، وكلهم ضالون مضلون ، وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ فى ذاته وصفاته وأفعاله ، لا شريك له فى ألوهيته ، متصلا ولا منفصلا ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ ، ولم يوحدوا لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أي : ليمس الذين بقوا منهم على الكفر ولم يتوبوا ، عذاب موجع.
أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ أي : أفلا يرجعون عن تلك العقائد الزائفة والأقوال الفاسدة ، ويستغفرونه بالتوحيد والتوبة عن الاتحاد والحلول ، فإن تابوا غفر اللّه لهم ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وهذا الاستفهام :
تعجب من إصرارهم ، مع كون التوبة مقبولة منهم.
ثم رد عليهم بقوله : مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ بشر قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وخصه اللّه بآيات ، كما خصهم بها ، فإن كان قد أحيا اللّه الموتى على يديه ، فقد أحيا العصى ، وجعلها حية تسعى على يد موسى ، بل هو أعجب ، وإن كان قد خلقه اللّه من غير أب ، فقد خلق آدم من غير أب وأم ، وهو أغرب ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ فقط ، كسائر النساء اللاتي يلازمن الصدق أو التصديق ، كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ ويفتقران إليه افتقار

(٦٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٦
الحيوانات ، قال البيضاوي : بيّن أولا أقصى مالهما من الكمال ، ودل أنه لا يوجب لهما ألوهية لأن كثيرا من الناس يشاركهما فى مثله ، ثم نبه على نقصهما ، وذكر ما ينافى الربوبية ويقتضى أن يكون من عداد المركبات الكائنة الفاسدة ، أي : القابلة للفساد ، ثم عجب ممن يدعى الربوبية لهما مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة ، فقال : انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ أي : كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمله ، و(ثم) للتفاوت بين العجبين ، أي : أن بياننا للآيات عجب ، وإعراضهم عنها أعجب. هـ ثم أبطل عبادتهم لعيسى عليه السّلام فقال : قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً بل هو عاجز عن صرفه عن نفسه وجلب الخير لها ، فكيف يقدر أن يدفعه عن غيره؟ وعبّر عنه بما ، دون (من) – إشارة إلى أنه من جنس ما لا يعقل ، وما كان مشاركا فى الحقيقة لجنس ما لا يعقل

، يكون معزولا عن الألوهية ، وإنما قدّم الضر لأن التحرز منه أهم من تحرى النفع ، ثم هددهم بقوله : وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ بالأقوال والعقائد ، فيجازى عليهما ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للعبد أن يصفى مشرب توحيده ، ويعتنى بتربية يقينه ، بصحبة أهل اليقين ، وهم أهل التوحيد الخاص ، فيترقى من توحيد الأفعال إلى توحيد الصفات ، ومن توحيد الصفات إلى توحيد الذات ، فنهاية توحيد الصالحين والعلماء المجتهدين تحقيق توحيد الأفعال ، وهو ألّا يرى فاعلا إلا اللّه ، لا فاعل سواه ، وثمرة هذا التوحيد :

الاعتماد على اللّه ، والثقة باللّه ، وسقوط خوف الخلق من قلبه ، لأنه يراهم كالآلات ، والقدرة تحركهم ، ليس بيدهم نفع ولا ضرر ، عاجزون عن أنفسهم فكيف عن غيرهم؟ ونهاية توحيد العباد والزهاد والناسكين المنقطعين إلى اللّه تعالى توحيد الصفات ، فلا يرون قادرا ولا مريدا ولا عالما ولا حيا ولا سميعا ولا بصيرا ولا متكلّما إلا اللّه ، قد انتفت عنه صفات الحدث وبقيت صفات القدم. وثمرة هذا التوحيد : الانحياش من الخلق والتأنس بالملك الحق ، وحلاوة الطاعات ولذيذ المناجاة. ونهاية توحيد الواصلين من العارفين والمريدين السائرين : توحيد الذات فلا يشهدون إلا اللّه ، ولا يرون معه سواه. قال بعضهم : لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع ، فإنه لا غير معه حتى أشهده.

وقال شاعرهم :

مذ عرفت الإله لم أر غيرا وكذا الغير عندنا ممنوع

مذ تجمعت ما خشيت افتراقا فأنا اليوم واصل مجموع

وقال فى التنوير : أبى المحققون أن يشهدوا مع اللّه سواه لما حققهم به من شهود الأحدية وإحاطة القيومية. هـ.

وفى الحكم : «الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته». وهؤلاء هم الصديقون المقربون. نفعنا اللّه بذكرهم ، وخرطنا فى سلكهم. آمين.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٧

ثم نهى أهل الكتاب عن الغلو فى عيسى ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٧٧]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (٧٧)

يقول الحق جل جلاله : يا أَهْلَ الْكِتابِ أي : النصارى ، لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وتقولوا قولا غَيْرَ الْحَقِّ وهو اعتقادكم فى عيسى أنه إله ، أو أنه لغير رشدة ، ولا تفرطوا ، وَلا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ سلفوا قبلكم ، وهم أئمتكم فى الكفر ، قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ أي : من قبل مبعث محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وَأَضَلُّوا أناسا كَثِيراً حملوهم على الاعتقاد الفاسد فى عيسى وأمه ، فقلدوهم وضلوا معهم ، وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ أي : عن قصد السبيل المستقيم ، وهو الإسلام بعد مبعثه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقيل : الضلال الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل ، والثاني إشارة إلى ضلالهم عما جاء به الشرع. قاله البيضاوي.

الإشارة : الغلو كله مذموم كما تقدم ، وخير الأمور أوسطها ، كما تقدم. وقد رخص فى الغلو فى ثلاثة أمور :

أحدها : فى مدح النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فلا بأس أن يبالغ فيه ما لم يخرجه عن طور البشرية ، وهذا غلو ممدوح ، مقرب إلى اللّه تعالى ، قال فى بردة المديح :

دع ما ادّعته النّصارى فى نبيّهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

الثاني : فى مدح الأشياخ والأولياء ، ما لم يخرجهم أيضا عن طورهم ، أو يغض من مرتبة بعضهم ، فقد رخصوا للمريد أن يبالغ فى مدح شيخه ، ويتغالى فيه ، بالقيدين المتقدمين لأن ذلك يقربه من حضرة الحق تعالى.

والثالث : فى تعظيم الحق جل جلاله. وهذا لا قيد فيه ولا حصر. حدث عن البحر ولا حرج ، إذا كان ممن يحسن العبارة ويتقن الإشارة ، بحيث لا يوهم نقصا ولا حلولا. وباللّه التوفيق.

ولما ذكر مساوئ النصارى ذكر مساوئ اليهود ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٧٨ الى ٨١]

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَلكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ (٨١)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٨

يقول الحق جل جلاله : لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ

أي : لعنهم اللّه فى الزبور على لسان نبيه داود عليه السّلام ، وَلعنهم اللّه أيضا فى الإنجيل على لسان

عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، فالأول :
أهل أيلة لما اعتدوا فى السبت لعنهم داود عليه السّلام ، فمسخوا قردة وخنازير ، والثاني أصحاب المائدة ، لمّا كفروا دعا عليهم عيسى ، ولعنهم ، فمسخوا خنازير ، وكانوا خمسة آلاف رجل ، ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ ذلك اللعن الشنيع المقتضى للمسخ بسبب عصيانهم واعتدائهم ما حرم عليهم.
كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ أي : لا ينهى بعضهم بعضا عن معاودة منكر فعلوه ، أو عن منكر أرادوا فعله وتهيأوا له ، أو : لا ينتهون عنه ولا يمتنعون منه ، لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ ، وهو تعجيب من سوء فعلهم مؤكد بالقسم.
تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ أي : من اليهود ، يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : يوالون المشركين بغضا للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وللمؤمنين ، لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أي : لبئس شيئا قدموه ، ليردوا عليه يوم القيامة ، وهو أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَفِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ أي : بئس ما قدموا أمامهم ، وهو سخط اللّه والخلود فى النار ، والعياذ باللّه ، وَلَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ أي : نبيهم كما يزعمون ، وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِ من التوراة وغيره ، مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ لأن النبي لا يأمر بموالاة الكفار ، ولو آمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم وما أنزل إليه – كما هو الواجب عليهم – ما اتخذوا الكفار أولياء ، وَلكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ أي : خارجون عن دينهم ، أو خارجون عن الدين الحق الذي لا يقبل غيره ، وهو الإسلام.
الإشارة : ذكر الحق جل جلاله فى هذه الآية ثلاثة أمور ، وجعلها سببا للعن والطرد ، وموجبة للسخط والمقت ، أولها : الانهماك فى المعاصي والعدوان ، والإصرار على الذنوب والطغيان. والثاني : عدم الإنكار على أهل المعاصي والسكوت عنهم والرضا بفعلهم ، والثالث : موالاة الفجار والمودة مع الكفار ، ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو أزواجهم أو عشيرتهم ، وفى بعض الأخبار : (لو أن رجلا قام الليل وصام النهار ، ثم تودد مع الفجار لبعث معهم ، ولو أن رجلا عمل بالمعاصي ما عمل ، ثم أحب الأبرار لحشر معهم) ، أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم ، ويعضده حديث : «المرء مع من أحبّ».
واللّه تعالى أعلم.
ثم بيّن تفاوت عداوة الكفار للمسلمين ، فقال :
[سورة المائدة (٥) : الآيات ٨٢ الى ٨٦]
لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْباناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (٨٦)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٦٩

قلت : القسيس : العالم ، والراهب : العابد ، و(مما عرفوا) : سببية ، و(من الحق) : بيان أو تبعيض ، وجملة :

(لا نؤمن) : حال ، والعامل فيها متعلق الجار ، أي : أي شيء حصل لنا حال كوننا غير مؤمنين ، و(نطمع) : عطف على (نؤمن) ، أو خبر عن مضمر ، أي : ونحن نطمع.

يقول الحق جل جلاله : لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً للمؤمنين اليهود والمشركين ، لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم ، وانهماكهم فى اتباع الهوى ، وركونهم إلى التقليد ، وبعدهم عن التحقيق ، وتمرنهم على تكذيب الأنبياء ، ومعاداتهم وعدوانهم لا ينقطع إلى الأبد.

وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ، للين جانبهم ، ورقة قلوبهم ، وقلة حرصهم على الدنيا بالنسبة لليهود ، وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل ، وإليه أشار بقوله : ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ أي : علماء ، ومن جملة علمهم : علمهم بوصاية عيسى بالإيمان بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وَرُهْباناً أي : عبادا ، وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ عن قبول الحق إذا عرفوه ، بخلاف اليهود لكثرة جحودهم ، وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل محمود ، وإن كان من كافر. قاله البيضاوي وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ محمد صلّى اللّه عليه وسلّم تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ من البكاء ، جعل أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها ، وإنما يفيض دمعها ، وذلك مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ حين سمعوه ، أو من بعض الحق ، فما بالك لو عرفوا كله؟ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا بذلك ، أو بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ بأنه حق ، أو بنبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، أو من أمته الذين هم شهداء على الأمم.

نزلت فى النجاشي وأصحابه ، حين دعوا جعفرا وأصحابه ، وأحضروا القسيسين والرهبان ، وأمره أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ سورة مريم ، فبكوا وآمنوا بالقرآن. وقيل : نزلت فى ثلاثين أو سبعين رجلا من قومه ، وفدوا من عنده من الحبشة بأمره على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقرأ عليهم سورة يس ، فبكوا وآمنوا ، فصدر الآية عام ، فالنصارى كلهم أقرب مودة للمسلمين ، من آمن ، ومن لم يؤمن ، وإنما جاء التخصيص فى قوله : وَإِذا سَمِعُوا ، فالضمير إنما يرجع إلى من آمن منهم ، كالنجاشي وأصحابه. وإنما جاء الضمير عاما لأن الجماعة تحمد بفعل الواحد. انظر ابن عطية.

ولما دخل الإيمان فى قلوبهم حين سمعوا القرآن ، عاتبوا أنفسهم على التأخر عن الإيمان فقالوا : وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَنحن نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ، وهى أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم التي هى أفضل الأمم ، وهذا منهم استفهام إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام الداعي ، وهو الطمع فى الانخراط مع الصالحين ، والدخول فى مداخلهم ، فَأَثابَهُمُ اللَّهُ أي : جازاهم بِما قالُوا واعتقدوا ، جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ الذي اعتادوا الإحسان فى جميع الأمور ، أو الذين أحسنوا النظر وأتقنوا العمل.

ثم ذكر ضدهم فقال : وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ ، شفع بهم حال المؤمنين المصدقين ، جمعا بين الترغيب والترهيب ، ليكون العبد بين خوف ورجاء. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أشد الناس إنكارا على الفقراء ، وأشدهم عداوة لهم ، من تقدم فى أسلافه رئاسة علم أو جاه أو صلاح أو نسبة شرف ، وأقرب الناس مودة لهم من لم يتقدم له شيء من ذلك ، فالعوام أقرب وأسهل للدخول فى طريق الخصوص من غيرهم. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا تضمن الكلام مدح النصارى على ترهبهم ، والحث على حبس النفس ، ورفض الشهوات ، أعقبه بالنهى عن الإفراط فى ذلك والاعتداء عما حدّه اللّه بجعل الحلال حراما ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٨٧ الى ٨٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ أي : لا تحرموا ما طاب ولذ مما أحله اللّه لكم ، وَلا تَعْتَدُوا فتحرموا ما أحللت لكم ، ويجوز أن يراد : ولا تعتدوا حدود ما أحل لكم إلى ما حرم عليكم ، فتكون الآية ناهية عن تحريم ما أحل وتحليل ما حرم ، داعية إلى القصد بينهما ، والوقوف على ما حد دون التجاوز إلى غيره. روى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وصف القيامة يوما ، وبالغ فى إنذارهم ، فرقوا ، واجتمعوا فى بيت عثمان بن مظعون ، واتفقوا على ألا يزالوا صائمين قائمين ، وألا يناموا على الفرش ، ولا يأكلوا اللحم والودك «١» ، ولا يقربوا النساء والطّيب ، ويرفضوا الدّنيا ، ويلبسوا المسوح ، ويسيحوا فى الأرض ، ويجبّوا مذاكرهم ، فبلغ ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال لهم : «إنى لم أومر بذلك ، إنّ لأنفسكم عليكم حقا ، فصوموا وأفطروا ، وقوموا وناموا ، فإنّى أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وآكل اللحم والدّسم ، وآتى النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى» «٢». ونزلت الآية.

---

(١) الودك : دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه.

(٢) ذكره الواحدي فى أسباب النزول عن المفسرين ، بغير إسناد ، وبنحوه أورده الطبري فى التفسير

عن السدى. وهو منتزع من أحاديث ، وأصله فى الصحيحين. راجع الفتح السماوي : (٥٧٩ – ٥٨١).

(٧٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٧١

ثم قال تعالى : وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً أي : كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم اللّه ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ فأحلوا حلاله واستعملوه ، وحرموا حرامه واجتنبوه.

الإشارة : طريقة العباد والزهاد : رفض الشهوات والملذوذات بالكلية ، زهدا وورعا وخوفا من اشتغال النفس بطلبها ، فيتعطل وقتهم عن العبادة ، وطريقة المريدين السائرين : رفض ما تتعلق به النفس قبل الحصول ، وتشره إليه رياضة وتعففا ، لئلا تتعلق هممهم بغير اللّه ، فما جاءهم من غير طلب ولا شره أكلوه وشكروا اللّه عليه ، ولا يقفون مع جوع ولا شبع. وطريقة الواصلين العارفين : تجنب ما يقبض من غير يد اللّه ، فإذا أخذتهم سنة حتى غفلوا عن التوحيد فقبضوا شيئا ، مع رؤية الواسطة ، أخرجوه عن ملكهم ، كما وقع لأبى مدين رضى اللّه عنه ويأخذون ما سوى ذلك قلّ أو كثر ، ولا يقفون مع أخذ ولا ترك ، وفى الحكم : «لا تمدن يديك إلى الأخذ من الخلائق ، إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك ، فإن كنت كذلك فخذ – ما وافقك العلم».

ولما صدر من بعض الصحابة يمين على ترك ما تقدم ، ذكر لهم الكفارة ، وفيما تجب ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٨٩]

لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)

قلت : (فى أيمانكم) : يتعلق باللغو ، أو بيؤاخذكم.

يقول الحق جل جلاله : لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وهو ما يصدر من الإنسان بلا قصد ، كقوله : لا واللّه ، وبلى واللّه. وإليه ذهب الشافعي ، وقيل : هو الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن ، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة ، وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ عليه ، أي : بما جزمتم عليه بالنية والقصد ، فَكَفَّارَتُهُ أي : ما عقدتم عليه إذا حلفتم ، ويجوز التكفير قبل الحنث لظاهر الآية.

ثم بيّن الكفارة ، فقال : إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ ، فمن أطعم غنيا لم تجزه ، واشترط مالك أن يكونوا أحرارا ، وليس فى الآية ما يدل على ذلك ، ثم بيّن نوعه فقال : مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أي : من

وسط طعام أهليكم فى القدر أو فى الصفة ، أما القدر فقال مالك : يطعم مدا لكل مسكين بمد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إذا كان فى المدينة

(٧١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٧٢

المشرفة ، وفى غيرها وسط من الشبع ، وقال الشافعي وابن القاسم : يجزىء المد فى كل مكان ، وقال أبو حنيفة : إن غذاهم وعشاهم أجزأه. قلت : وهو قول فى المدونة لمالك أيضا. وأما الصنف ، فاختلف : هل يطعم من عيش نفسه ، أو من عيش بلده وهو المشهور؟

فمعنى الآية على هذا : مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أيها الناس أَهْلِيكُمْ على الجملة أَوْ كِسْوَتُهُمْ فيكسو كل مسكين ما تصح به الصلاة ، فالرجل ثوب ، والمرأة قميص وخمار ، أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مؤمنة على مذهب مالك لتقييدها بذلك فى كفارة القتل. وأجاز أبو حنيفة عتق الكافر ، لإطلاق اللفظ هنا ، واشترط مالك أيضا أن تكون مسلّمة من العيوب ، وليس فى الآية ما يدل عليه ، فهذه الثلاثة بالتخيير.

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ واحدا من هذه الثلاثة ، ولم يقدر على شيء منها ، بحيث لم يفضل له عن قوته وقوت عياله فى يومه ما يطعم به ، فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ يستحب تتابعها ، واشترطه أبو حنيفة لأنه قرىء : (أيام متتابعات) ، والشاذ ليس بحجة ، ذلِكَ المذكور هو كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وحنثتم ، وَاحْفَظُوا أَيْمانَكُمْ أي : صونوا ألسنتكم عن كثرة الحلف ، فيكون اللّه عرضة لأيمانكم ، أو احفظوها بأن تبروا فيها ولا تحنثوا ، إلا إن كان فى الامتناع من الخير ، فالحنث فيها أحسن ، كما فى الحديث. أو احفظوها بأن تكفروها إذا حنثتم ، ولا تتهاونوا بها ، كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ أي : مثل ذلك البيان يبين لكم أعلام شرائعه لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نعمة التعليم ، أو نعمه الواجب شكرها ، فإن مثل هذا التبيين يسهل لكم المخرج من ضيق اليمين ، فهو نعمة يجب شكرها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ليس التشديد والتعقيد من شأن أهل التوحيد ، إنما شأنهم الاسترسال مع ما يبرز من عنصر القدرة ، ليس لهم وقت دون الوقت الذي هم فيه ، قد حلّ التوحيد عقدهم ودكّ عزائمهم ، فهم فى عموم أوقاتهم لا يدبرون ولا يختارون ، وإن وقع منهم تدبير أو اختيار رجعوا إلى ما يفعل الواحد القهار ، لا يبشطون إلى شيء ولا يهربون من شيء ، إلا إن كان فيه مخالفة للشرع.

ولا يعقدون على ترك شيء من المباحات ولا على فعله ، لأنهم لا يرون لأنفسهم فعلا ولا تركا ، إن صدرت منهم طاعة شهدوا المنة للّه ، وإن وقعت منهم زلة أو غفلة تأدبوا مع اللّه ، وبادروا بالتوبة إلى اللّه ، وما صدر من الصحابة – رضوان اللّه عليهم – فلعل ذلك كان حالا غالبة عليهم ، قد أزعجهم وعظ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأنهضهم حاله ، فلما رءاهم غلب عليهم الحال ردهم إلى حال

الاعتدال ، ولعل الحق – جل جلاله – ، إنما جعل كفارة اليمين جبرا لخلل ذلك التعقيد ، الذي صدر من الحالف مع تفريطه بالحنث ، فكأنه حلف على فعل غيره ، ففيه نوع من التألى على اللّه. واللّه تعالى أعلم.

(٧٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٧٣

ولما أمر الحق جل جلاله بأكل الحلال الطيب أخرج ضده ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٩٠ الى ٩٢]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٩٢)

قلت : (رجس) : خبر ، وأفرده لأنه على حذف مضاف ، أي : تعاطى الخمر ، أو خبر عن الخمر ، وخبر المعطوفات محذوف ، أي : كذلك.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا تناول الْخَمْرُ وهو كل ما غيب العقل ، دون الحواس ، مع النشوة والطرب ، وَالْمَيْسِرُ وهو القمار وَالْأَنْصابُ وهو ما نصب ليعبد من حجارة أو خشب ، وَالْأَزْلامُ أي : الاستقسام بها ، وقد تقدم تفسيرها «١» ، رِجْسٌ قذر خبيث تعافه العقول السليمة ، مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ أي : من تسويله وتزيينه ، فَاجْتَنِبُوهُ أي : ما ذكر من تعاطى الخمر ، وما بعده ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أي :

تفوزون بالرضوان والنعيم المقيم.

قال البيضاوي : اعلم أن الحق تعالى أكد تحريم الخمر والميسر فى هذه الآية ، بأن صدّر الجملة بإنما ، وقرنها بالأنصاب والأزلام وسماهما رجسا ، وجعلهما من عمل الشيطان ، تنبيها على أن الاشتغال بهما شر محض ، وأمر بالاجتناب عن عينهما ، وجعله سببا يرجى منه الفلاح ، ثم قرّر ذلك بأن بيّن ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقال : إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، وقد وقع ذلك فى زمن الصحابة ، وهى كانت سبب تحريمه ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ إنما خص الخمر والميسر بإعادة الذكر وشرح ما فيهما من الوبال تنبيها على أنهما المقصودان بالبيان. وذكر الأنصاب والأزلام للدلالة على أنّهما مثلهما فى الحرمة والشرارة لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «شارب الخمر كعابد الوثن» «٢».

وخص الصلاة من الذكر بالإفراد للتعظيم والإشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان من حيث إنها عماده ، والفارق بينه وبين الكفر ، ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتبا على ما تقدم من أنواع

---

(١) راجع تفسير الآية ٣ من السورة نفسها.

(٢) أخرجه بلفظه البزار ، كشف الأستار (الأشربة ، باب فى شارب الخمر) من حديث عبد اللّه بن عمرو ، وأخرجه ابن ماجه فى (الأشربة باب مدمن الخمر) بلفظ : (مدمن الخمر).

الصوارف فقال : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟ إيذانا بأن الأمر فى المنع والتحذير بلغ الغاية ، وأن الأعذار قد انقطعت. هـ ولذلك لما سمعها الفاروق رضى اللّه عنه حين نزلت ، قال : (قد انتهينا يا ربنا).

وبهذا الآية وقع تحريم الخمر ، وقد كان حلالا قبلها ، بدليل سكوته صلّى اللّه عليه وسلّم على شربها قبل نزول الآية ، فإن قلت :

حفظ العقول من الكليات الخمس التي اتفقت الشرائع على تحريمها؟ قلنا : لا حكم قبل الشرع ، بل الأمر موقوف إلى وروده ، ولما طالت الفترة ، وانقطعت الشرائع عند العرب ، رجعت الأشياء إلى أصلها من الإباحة بمقتضى قوله تعالى : خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً «١» ، حتى جاءت الشريعة المحمدية فحرمتها كالشرائع قبلها ، فكانت حينئذ حراما ، ودخلت فى الكليات الخمس التي هى : حفظ العقول والأبدان والأموال والأنساب والأديان.

ثم أكد ذلك أيضا بقوله : وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فيما أمر ونهى ، وَاحْذَرُوا غضبهما إن خالفتم ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ أو أعرضتم عن طاعتهما فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ لا تضره مخالفتكم ، إنما عليه البلاغ وقد بلغ.

الإشارة : المقصود هو النهى عن كل ما يصد عن اللّه أو يشغل العبد عن شهود مولاه ، وخص هذه الأربعة ، لأنها أمهات الخطايا ومنبع الغفلة والبلايا ، فالخمر فيه فساد العقل الذي هو محل الإيمان ، والميسر فيه فساد المال وفساد القلب بالعداوة والشحناء ، وفساد الفكر لاستعماله فى الهوى ، والأنصاب فيه فساد الدين الذي هو رأس المال ، والأزلام فيه الفضول والاطلاع على علم الغيب ، الذي هو سر الربوبية ، وهو موجب للمقت والعطب ، والعياذ باللّه.

ثم عفا عما سلف من الخمر والميسر قبل التحريم ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ٩٣]

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)

يقول الحق جل جلاله : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ أي : إثم فِيما طَعِمُوا من الخمر والميسر قبل التحريم ، إِذا مَا اتَّقَوْا أي : إذا اتقوا الشرك ، وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا المحرمات وَآمَنُوا أي : حققوا مقام الإيمان ، ثُمَّ اتَّقَوْا الشبهات والمكروهات وَأَحْسَنُوا أي : حصلوا مقام الإحسان ، وهو إتقان العبادة ، وتحقيق العبودية ، ومشاهدة عظمة الربوبية ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ أي : يقربهم

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٧٥

ويصطفيهم لحضرته ، روى أنه لما نزل تحريم الخمر ، قالت الصحابة – رضى اللّه عنهم – : يا رسول اللّه فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر؟ فنزلت.

ويحتمل أن يكون هذا التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة ، أي : الماضي والحال والاستقبال ، أو باعتبارات الحالات الثلاثة. فيستعمل التقوى فيما بينه وبين نفسه بالتزكية والتحلية ، وفيما بينه وبين الناس بالكف عن التعرض لهم ، وفيما بينه وبين اللّه بامتثال أمره واجتناب نهيه والغيبة عن غيره ، ولذلك بدل الإيمان بالإحسان فى الكرة الثالثة ، أو باعتبار المراتب الثلاثة المبدأ والوسط والنهاية ، أو باعتبار ما يتقى فإنه ينبغى أن يتقى المحرمات توقيا من العقاب ، ثم يتقى الشبهات تحفظا من الحرام ، ثم يتقى بعض المباحات تحفظا للنفس عن خسة الشره ، وتهذيبا لها عن دنس الطبيعة ، قال معناه البيضاوي.

الإشارة : المقامات التي يقطعها المريد ثلاث : مقام الإسلام ، ومقام الإيمان ، ومقام الإحسان ، فما دام المريد مشتغلا بالعمل الظاهر من صلاة وصيام وذكر اللسان ، سمى مقام الإسلام ، فإذا انتقل لعمل الباطن من تخلية وتحلية وتهذيب وتصفية ، سمى مقام الإيمان ، فإذا انتقل لعمل باطن الباطن من فكرة ونظرة وشهود وعيان سمى مقام الإحسان ، وهذا اصطلاح الصوفية سموا ما يتعلق بإصلاح الظواهر : إسلاما ، وما يتعلق بإصلاح القلوب والضمائر : إيمانا ، وما يتعلق بإصلاح الأرواح والسرائر : إحسانا. وجعل الساحلى فى البغية كل مقام مركبا من ثلاثة مقامات ، فالإسلام مركب من التوبة والتقوى

والاستقامة ، والإيمان مركب من الإخلاص والصدق والطمأنينة ، والإحسان مركب من مراقبة ومشاهدة ومعرفة. وأطال الكلام فى كل مقام ، لكن من سقط على شيخ التربية لم يحتج إلى شيء من هذا التفصيل. وباللّه التوفيق.

ثم تكلم على حرمة الصيد فى الإحرام تبيينا لقوله : غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٩٤ الى ٩٦]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٧٦

قلت : (فجزاء) : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : فعليه جزاء ، أو خبر عن مبتدأ محذوف ، أي : فواجبه جزاء ، و(مثل) : صفته ، و(من النعم) : صفة ثانية لجزاء ، أي : فعلية جزاء مماثل حاصل من النعم ، ومن قرأ (مثل) بالجر ، فعلى الإضافة ، من إضافة المصدر إلى المفعول ، أي : فعليه أن يجزى مثل ما قتل ، أو يكون (مثل) مقحمة كما فى قولهم : مثلى لا يقول كذا. وقرىء بالنصب ، أي : فليجزأ جزاء مماثلا. وجملة (يحكم) صفة لجزاء أيضا ، أو حال من ضمير الخبر.

و(هديا) : حال من ضمير (به) ، أو من جزاء لتخصيصه بالإضافة أو الصفة فيمن نون ، و(بالغ) : صفة للحال ، أو بدل من مثل باعتبار محله ، أو لفظه فيمن نصبه ، أو (كفارة) عطف على (جزاء) إن رفعته ، وإن نصبت جزاء فهو خبر ، أي : وعليه كفارة ، و(طعام مساكين) : عطف بيان ، أو بدل منه ، أو خبر عن محذوف ، أي : هى طعام ، ومن جرا طعاما فبالإضافة للبيان ، كقوله : خاتم فضة ، أو (عدل) عطف على (طعام) فيمن رفعه ، أو خبر فيمن جره ، أي : عليه كفارة طعام ، أو عليه عدل ذلك ، و(ليذوق) : متعلق بمحذوف ، أي : فيجب عليه الجزاء أو الطعام أو الصوم ليذوق سوء عاقبة فعله ، و(متاعا لكم) : مفعول من أجله ، و(حرما) : حال ، أي : ما دمتم محرمين ، أو خبر دام على النقص ، ويقال : دام يدوم دمت ، كقال يقول قلت ، ودام يدام دمت ، كخاف يخاف خفت. وبه قرىء فى الشاذ.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ أي : واللّه ليختبرنكم اللَّهُ بِشَيْءٍ قليل مِنَ الصَّيْدِ يسلطه عليكم ويذلله لكم حتى تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ بالأخذ وَرِماحُكُمْ بالطعن لِيَعْلَمَ اللَّهُ علم ظهور وشهادة تقوم به الحجة ، مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فيكف عن أخذه حذرا من عقاب ربه ، نزل عام الحديبية ، ابتلاهم اللّه بالصيد ، كانت الوحوش تغشاهم فى رحالهم ، بحيث يتمكنون من صيده ، أخذا بأيديهم وطعنا برماحهم ، وهم محرمون ، وكان الصيد هو معاش العرب ومستعملا عندهم ، فاختبروا بتركه مع التمكن منه ، كما اختبر بنو إسرائيل بالحوت فى السبت.

وإنما قلله بقوله : بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ إشعارا بأنه ليس من الفتن العظام كبذل الأنفس والأموال ، وإنما هو من الأمور التي يمكن الصبر عنها ، فمن لم يصبر عنده فكيف يصبر بما هو أشد منه؟ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ الابتلاء بأن قتل بعد التحريم ، فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ فى الآخرة ، لأن من لا يملك نفسه فى مثل هذه فكيف يملكها فيما تكون النفس فيه أميل وعليه أحرص؟!.

ثم صرح بالحرمة ، فقال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ أي : محرمون جمع حرم ، والمراد من دخل فى الإحرام أو فى الحرم ، وذكر القتل ليفيد العموم ، فيصدق بالذبح وغيره ، وما صاده المحرم

(٧٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٧٧

أو صيد له ميتة لا يؤكل ، والمراد بالصيد المنهي عن قتله : ما صيد وما لم يصد مما شأنه أن يصاد ، وورد هذا النهى عن قتله قبل أن يصاد ، وبعده ، وأما النهى عن الاصطياد فيؤخذ من قوله : وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً ، وخصص الحديث : الغراب والحدأة ، والفأرة والعقرب والكلب العقور «١» ، فلا بأس بقتلهم ، فى الحل والحرم ، وأدخل مالك فى الكلب العقور كل ما يؤذى الناس من السباع وغيرها ، وقاس الشافعي على هذه الخمسة كل ما لا يؤكل لحمه.

ثم ذكر جزاء قتله فقال : وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ أي : فعليه جزاء مثل ما يماثله من النعم ، وهى الإبل والبقر والغنم ، ففى النعامة بدنة ، وفى الفيل ذات سنامين ، وفى حمار الوحش وبقره بقرة ، وفى الغزالة شاة ، فالمثلية عند مالك والشافعي فى الخلقة والمقدار ، فإن لم يكن له مثل أطعم أو صام ، يقوّم بالطعام فيتصدق به ، أو يصوم لكل مد يوما ، ومذهب أبى حنيفة أن المثلية : القيمة ، يقوم الصيد المقتول ، ويخير القاتل بين أن يتصدق بالقيمة أو يشترى بها من النعم ما يهديه. وذكر العمد ليس بتقييد عند جمهور الفقهاء ، خلافا للظاهرية بل المتعمد ، والناسي فى وجوب الجزاء سواء ، وإنما ذكره ليرتب عليه قوله : وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، ولأن الآية نزلت فيمن تعمد ،

إذ روى أنهم عرض لهم حمار وحشي ، فطعنه أبو اليسر برمحه فقتله ، فنزلت الآية.
ولا بد من حكم الحكمين على القاتل لقوله : يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ ، فكما أن التقويم يحتاج إلى نظر واجتهاد ، فكذلك تحتاج المماثلة فى الخلقة والهيأة إليهما ، فإن أخرج الجزاء قبل الحكم عليه فعليه إعادته ، إلا حمام مكة فإنه لا يحتاج إلى حكمين ، ويجب عند مالك التحكيم فيما حكمت به الصحابة وفيما لم تحكم ، لعموم الآية.
وقال الشافعي : يكتفى فى ذلك بما حكمت به الصحابة ، حال كون المحكوم به هَدْياً بشرط أن يكون مما يصح به الهدى ، وهو الجذع من الضأن ، والثني مما سواه ، وقال الشافعي : يخرج المثل فى اللحم ، ولا يشترط السن ، بالِغَ الْكَعْبَةِ لم يرد الكعبة بعينها ، وإنما أراد الحرم ، وظاهره يقتضى أن يصنع به ما يصنع بالهدى من سوق من الحل إلى الحرم ، وقال الشافعي وأبو حنيفة : إن اشتراه فى الحرم أجزأه.
أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ مد لكل مسكين ، أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً يوم لكل مد ، عدد الحق – تعالى – ما يجب فى قتل الصيد ، فذكر أولا الجزاء من النعم ، ثم الطعام ، ثم الصيام ، ومذهب مالك والجمهور : أنها على

---

(١) أخرج ذلك البخاري فى (جزاء الصيد ، باب ما يقتل من الدواب) ومسلم فى (الحجر ، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب فى الحل والحرام) من حديث السيدة عائشة رضى اللّه عنها.
[.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٧٨
التخيير ، وهو الذي يقتضيه العطف بأو ، ومذهب ابن عباس أنها مرتبة. وقد نظم ابن غازى الكفارات التي فيها التخيير أو الترتيب فقال :
خيّر بصوم ثمّ صيد وأذى وقل لكلّ خصلة : يا حبّذا
ورتّب الظّهار والتّمتعا والقتل ثمّ فى اليمين اجتمعا
وكيفية التخيير هنا : أن يخير الحكمان القاتل فإن أراد الجزاء عينوا له ما يهدى ، وإن أراد الإطعام قوموا الصيد بالطعام فى ذلك المحل ، فيطعم مدّا لكل مسكين ، وإن أراد الصيام صام يوما لكل مدّ ، وكمل لكسره ، فإذا قوم بعشرة مثلا ونصف مدّ ، صام أحد عشر يوما.
ثم ذكر حكمة الجزاء ، فقال : لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ أي : فعليه الجزاء أو الإطعام أو الصيام ليذوق عقوبة

سوء فعله ، وسوء هتكه لحرمة الإحرام ، عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ فى الجاهلية أو قبل التحريم ، وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ فى الآخرة ، وليس فيه ما يمنع الكفارة على العائد كما حكى عن ابن عباس وشريح. وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ ممن أصر على عصيانه.

ثم استثنى صيد البحر فقال : أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وهو ما لا يعيش إلا فى الماء ، وهو حلال كله لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم فى البحر : «هو الطّهور ماؤه ، الحلّ ميتته» «١». وقال أبو حنيفة : لا يحل منه إلا السمك ، وَطَعامُهُ أي : ما قذفه ، أو طفا على وجهه لأنه ليس بصيد إنما هو طعام. وقال ابن عباس : طعامه : ما ملّح وبقي مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ، الخطاب بلكم للحاضرين فى البحر ، والسيارة : المسافرون فى البر ، أي : هو متاع تأتدمون به فى البر والبحر ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ يحتمل أن يريد به المصدر ، أي الاصطياد ، أو الشيء المصيد ، أو كلاهما ، وتقدم أن ما صاده محرم أو صيد له : ميتة ، وحد الحرمة : ما دُمْتُمْ حُرُماً فإذا حللتم فاصطادوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فى ترك ما حرم عليكم ، الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فيجازيكم على ما فعلتم.

الإشارة : إذا عقد المريد مع اللّه عقدة السير والمجاهدة ، قد يختبره اللّه – تعالى – فى سيره بتيسير الشهوات ، وتسليط العلائق والعوائق ليعلم الكاذب من الصادق ، فإن كف عنها وأعرض ، هيأه لدخول الحضرة ، وإن انهمك فيها ، واقتنص فى شبكتها ، بقي مرهونا فى يدها ، أسيرا فى قبضة قهرها ، فإذا نهض حتى دخل حرم الحضرة قاصدا لعرفة المعارف ، حرم عليه صيد البر ، وهو كل ما يخرج من بحر الحقيقة إلى شهود بر السّوى ، فرقا بلا جمع ، كائنا ما كان ، رسوما أو علوما أو أحوالا أو أقوالا ، وحلّ له صيد البحر وطعامه ، من أسرار أو أنوار أو حقائق ،

---

(١) أخرجه مالك فى (الطهارة ، باب الطهور للوضوء) والبيهقي فى الكبرى (١/ ٣) وأبو داود فى (الطهارة ، باب الوضوء بماء البحر) والترمذي فى (الطهارة ، باب ما جاء فى ماء البحر) والنسائي فى (الطهارة ، باب ماء البحر) وابن ماجه فى (الطهارة ، باب الوضوء بماء البحر) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

متاعا لروحه وسره ، وللسيارة من أبناء جنسه ، يطعمهم من تلك الأسرار ، بالهمة أو الحال أو التذكار ، واتقوا اللّه فى الاشتغال بما سواه ، الذي إليه تحشرون ، فيدخلكم جنة المعارف قبل جنة الزخارف. واللّه تعالى أعلم.

ولما عظّم شأن الحرم عظّم شأن الكعبة ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٩٧ الى ٩٩]

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) ما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ (٩٩)

قلت : (البيت الحرام) : عطف بيان على جهة المدح ، و(قياما) : مفعول ثان.

يقول الحق جل جلاله : جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ التي هى الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ أي : سبب انتعاشهم ، يقوم بها أمر معاشهم ومعادهم ، يلوذ به الخائف ، ويأمن فيه الضعيف ، ويربح فيه التجار ، ويتوجه إليه الحجاج والعمار ، أو يقوم به أمر دينهم بالحج إليه ، وأمر دنياهم بأمن داخله ، وتجبى ثمرات كل شىء إليه.

قال القشيري : حكم اللّه – سبحانه – بأن يكون بيته اليوم ملجأ يلوذ به كل مؤمّل ، ويستقيم ببركة زيارته كلّ حائد عن نهج الاستقامة ، ويظفر بالانتقال هناك كل ذى أرب. هـ.

وَالشَّهْرَ الْحَرامَ جعله اللّه أيضا قياما للناس والمراد به ذو الحجة ، فهو قيام لمناسك الحج ، وجمع الوجود إليه بالأموال من كل جانب ، أو الجنس ، وهى أربعة : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، لأنهم كانوا يكفون عن القتال ، ويأمن الناس فيها فى كل مكان ، وَالْهَدْيَ لأنه أمان لمن يسوقه لأنه لم يأت لحرب ، وَالْقَلائِدَ ، كان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلد شيئا من السمر «١» ، وإذا رجع تقلد شيئا من شجر الحرم ليعلم أنه كان فى عبادة ، فلا يتعرض له أحد بشر ، فالقلائد هنا : ما تقلده المحرم من الشجر ، وقيل : قلائد الهدى.

ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أي : جعل ذلك الأمور ، قياما للناس لتعلموا أن اللّه يعلم تفاصيل الأمور ، فشرع ذلك دفعا للمضار وجلبا للمنافع ، وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا يخفى عليه محل مصالح عباده ومضارهم ، وهو تعميم بعد تخصيص ، ومبالغة بعد إطلاق.

---

(١) السمر – بضم الميم والراء : ضرب من الشجر ، صغار الورق قصار الشوك.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٨٠

ثم قال تعالى : اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ لمن عصاه ، وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لمن أطاعه وأقبل عليه ، وهو وعيد ووعد لمن انتهك محارمه ولمن حافظ عليها ، أو لمن أصرّ ورجع ، ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا

الْبَلاغُ وقد بلّغ ، فلم يبق عذر لأحد ، وهو تشديد فى إيجاب القيام بما أمر ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ من تصديق وتكذيب وفعل وعزيمة.

الإشارة : كما جعل اللّه الكعبة قياما للناس ، يقوم به أمر دينهم ودنياهم ، جعل القلوب ، التي هى كعبة الأنوار والأسرار ، قياما للسائرين ، يقوم بها أمر توحيدهم ويقينهم ، أو أمر سيرهم ووصولهم. وفى الحديث : «إنّ فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسددت فسد الجسد كلّه ألا وهى القلب». وكما جعل الشهر الحرام والهدى والقلائد حرمة لأهلها ، جعل النسبة والتزيي بها حفظا لصاحبها ، من تزيا بزى قوم فهو منهم ، يجب احترامه وتعظيمه لأجل النسبة ، فإن كان كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، وقد أخذ اللصوص بعض الفقراء ، وانتهكوا حرمته ، وأخذوا ثيابه ، فاشتكى لشيخه فقال له : هل كانت عليك مرقعتك؟ قال : لا ، فقال له : أنت فرطت والمفرط أولى بالخسارة. هـ. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا كان مدار الأمر كله على صلاح القلوب وفسادها ذكره بإثره ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : آية ١٠٠]

قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ عند اللّه ، فى القلوب والأحوال والأعمال والأموال والأشخاص ، فالطيب من ذلك كله مقبول محبوب ، والرديء مردود ممقوت ، فالطيب مقبول وإن قلّ ، والرديء مردود ولو جلّ ، وهو معنى قوله : وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ، فالعبرة بالجودة والرداءة ، دون القلة والكثرة ، وقد جرت عادته – تعالى – بكثرة الخبيث من كل شىء ، وقلة الطيب من كل شىء ، قال تعالى :

وَقَلِيلٌ ما هُمْ «١» ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ «٢» ، وفى الحديث الصحيح : «النّاس كابل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة» «٣» ، وقال الشاعر :

إنّى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

فأهل الصفا قليل فى كل زمان ، ولذلك خاطبهم بقوله : فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ أي : القلوب الصافية فى تجنب الخبيث وإن كثر ، وأخذ الطيب وإن قلّ ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ بصلاح الدارين.

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة ص.

(٢) من الآية ١٣ من سورة سبأ.

(٣) أخرجه البخاري فى (الرقاق باب رفع الأمانة) ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : الناس كإبل مائة ..) من حديث ابن عمر رضى اللّه عنه ومعنى الحديث : أن الزاهد فى الدنيا ، الكامل فى الزهد فيها قليل جدا ، كقلة الراحلة فى الإبل.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٨١

الإشارة : لا عبرة بالأحوال الظلمانية وإن كثرت ، وإنما العبرة بالأحوال الصافية ولو قلّت ، صاحب الأحوال الصافية موصول ، وصاحب الأحوال الظلمانية مقطوع ، ما لم يتب عنها ، قال بعض الحكماء : (كما لا يصح دفن الزرع فى أرض ردية ، لا يجوز الخمول بحال غير مرضية).

والمراد بالأحوال الصافية : هى التي توافق مراسم الشريعة بحيث لا يكون عليها من الشارع اعتراض ، بأن تكون مباحة فى أصل الشريعة ، ولو أخلت بالمروءة عند العوام ، إذ المروءة إنما هى التقوى عند الخواص ، والمراد بالأحوال ، كل ما يثقل عل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، مما نأمركم به : أن تقع شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، وأراد الوصية فيحضر عدلان منكم ، فإن كنتم فى سفر وتعذر العدلان منكم ، فليشهد آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ممن ليس على دينكم ، ثم إن وقع ارتياب فى شهادتهما ، تَحْبِسُونَهُما بعد صلاة العصر فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ ما كتمنا ، ولا خنّا ، ولا نشترى بالقسم أو باللّه عرضا قليلا من الدنيا ، ولو كان المحلوف له قريبا منا ، وَلا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً ، إن كتمنا ، لَمِنَ الْآثِمِينَ.

---

(١) أخرجه الترمذي فى : (التفسير ، سورة المائدة) عن ابن عباس عن تميم الداري ، وقال الترمذي : ليس إسناده بصحيحه. وأخرجه مختصرا البخاري فى (الوصايا ، باب قول اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ) عن ابن عباس قال : خرج رجل من بنى سهم مع تميم الداري وعدى بن بداء. وذكره مختصرا.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٨٧

فإذا حلفا خلى سبيلهما ، فَإِنْ عُثِرَ بعد ذلك عَلى كذبهما وأَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً بسبب كذبهما ، فَآخَرانِ من رهط الميت يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ المال المسروق ، اللذان هم الْأَوْلَيانِ أي : الأحقان بالشهادة ، فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ فيقولان : واللّه لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما ، وأصدق ، وأولى بأن تقبل ، وَمَا اعْتَدَيْنا : وما تجاوزنا فيها الحق ، إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ، فإن حلفا غرم الشاهدان ما ظهر عليهما ، وتحليف الشهود منسوخ ، وهذا الحكم خاص بهذه القضية.

قال البيضاوي : الحكم منسوخ إن كان الاثنان شاهدين ، فإنه لا يحلف الشاهد ، ولا تعارض يمينه يمين الوارث ، وثابت إن كانا وصيين. هـ. وكذا شهادة غير أهل الملة منسوخة أيضا ، واعتبار صلاة

العصر للتغليظ ، وتخصيص الحلف فى الآية باثنين من أقرب الورثة لخصوص الواقعة. قاله السيوطي.
قال تعالى : ذلِكَ أي : تحليف الشهود ، أَدْنى أي : أقرب أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها كما تحملوها من غير تحريف ولا خيانة فيها ، أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ أي : أو أقرب لأن يخافوا أن ترد اليمين على المدعين بعد أيمانهم ، فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة ، وإنما جمع الضمير ، لأنه حكم يعم الشهود كلهم ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ما توصون به ، فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم قوما فاسقين ، وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ أي : لا يهديهم إلى حجة أو إلى طريق الجنة.
الإشارة : أمر الحق – جل جلاله – فى الآية المتقدمة ، بالاعتناء بشأن الأنفس ، بتزكيتها وتحليتها وأمر فى هذه الآية بالاعتناء بشأن الأموال بحفظها ، والأمر بالإيصاء عليها ودفعها لمستحقها إذ كلاهما يقربان إلى رضوان اللّه ، ويوصلان إلى حضرته ، وقد كان فى الصحابة من قربه ماله ، وفيهم من قربه فقره ، وكذلك الأولياء ، منهم من نال الولاية من جهة المال أنفقه على شيخه فوصله من حينه ، ومنهم من نال من جهة فقره أنفق نفسه فى خدمة شيخه ، وقد روى أن سيدى يوسف الفاسى أنفق على شيخه قناطير من المال ، قيل : أربعين ، وقيل : أقل. واللّه تعالى أعلم.
ولما أمرهم بالتقوى ، ذكر اليوم الذي تجنى فيه ثمراتها ، فقال :
[سورة المائدة (٥) : آية ١٠٩]
يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩)
قلت : (يوم) : بدل من (اللّه) ، بدل اشتمال ، أي : اتقوا يوم الجمع ، أو ظرف لاذكر ، و(ماذا) : منصوب على المصدر ، أي : أىّ إجابة أجبتم.
يقول الحق جل جلاله : واذكر يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ والأمم يوم القيامة فَيَقُولُ للرسل : ما ذا أُجِبْتُمْ؟ أي : ما الذي أجابكم به قومكم ، هل هو كفر أو إيمان ، طاعة أو عصيان؟ والمراد بهذا السؤال توبيخ من

كفر من الأمم ، وإقامة الحجة عليهم ، فيقولون له فى الجواب : لا عِلْمَ لَنا مع علمك ، تأدبوا فوكلوا العلم إليه ، أو علمنا ساقط فى جنب علمك إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ لأن من علم الخفيات لا تخفى عليه الظواهر والبواطن ، وقرىء بنصب علام ، على أن الكلام قد تم بقوله : إِنَّكَ أَنْتَ أي : إنك الموصوف بصفاتك المعروفة ، وعلام نصب على الاختصاص أو النداء. قاله البيضاوي.
الإشارة : من حجة اللّه على عباده ، أن بعث فى كل أمه نذيرا يدعو إلى اللّه ، إما عارفا يعرف باللّه ،

أو عالما يعلم أحكام اللّه ، ثم يجمعهم يوم القيامة فيسألهم : ماذا أجيبوا ، وهل قوبلوا بالتصديق والإقرار ، أو قوبلوا بالتكذيب والإنكار؟ فتقوم الحجة على العوام بالعلماء ، وعلى الخواص بالعارفين الكبراء ، أهل التربية النبوية ، فلا ينجو من العتاب إلا من ارتفع عنه الحجاب ، بصحبة العارفين وتعظيمهم وخدمتهم ، إذ لا يتخلص من العيوب إلا من صحبهم وأحبهم وملك نفسه إليهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم خص عيسى عليه السّلام بتذكير النعم يوم الجمع توطئة لتوبيخ من عبده من دون اللّه ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ١١٠ الى ١١١]

إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (١١١)

قلت : (إذ) : بدل من (يوم يجمع) ، أو باذكر ، وجملة (تكلم) : حال من مفعول (أيدتك).

يقول الحق جل جلاله : واذكر إِذْ يقول اللّه – جل وعز – يوم القيامة : يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ بالنبوة والرسالة ، وعلى أمك بالاصطفائية والصديقية ، وذلك حين أَيَّدْتُكَ أي : قويتك بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وهو جبريل عليه السّلام كان لا يفارقك فى سفر ولا حضر ، أو بالكلام الذي تحيا به الأنفس والأرواح ، الحياة الأبدية. كنت تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ أي : كائنا فى المهد وَكَهْلًا أي : تكلم فى الطفولة والكهولة بكلام يكون سببا فى حياة القلوب ، وبه استدل أنه ينزل ، لأنه رفع قبل أن يكتهل ، وَاذكر إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ أي : الكتابة ،

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٨٩

وَالْحِكْمَةَ : النبوة وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي ، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي وتقدم تفسيرها فى آل عمران. «١» وكرر بِإِذْنِي مع كل معجزة إبطالا لدعوى الربوبية فيه ، إذ قد عزله عن قدرته ومشيئته مع كل معجزة. قال ابن جزى : الضمير المؤنث – يعنى فى «فيها» – يعود على الكاف ، لأنها صفة الهيئة ، وكذلك المذكور فى آل عمران.

فَأَنْفُخُ فِيهِ يعود على الكاف لأنها بمعنى مثل ، وإن شئت قلت : هو فى الموضعين يعود على

الموصوف المحذوف الذي وصف به كهيئة ، فتقديره فى التأنيث : صورة ، وفى التذكير : شخصا ، أو خلقا وشبه ذلك. هـ.

وَاذكر أيضا إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ حين هموا بقتلك ، إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أي : ما هذا الذي جئتنا به إلا سحرا ، أو : قالوا فى شأنك حين جئتهم : ما هذا إلا ساحر مبين ، وَاذكر أيضا إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أي : ألهمتهم ، أو أمرتهم بأن آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي عيسى ، فامتثلوا ، وقالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ أي : منقادون ومخلصون.

الإشارة : قال الورتجبي : من تمام نعمة اللّه – تعالى – عليه صيرورة جسمه بنعت روحه فى المهد على شبابه بالقوة الإلهية ، بأن نطق بوصف تنزيه اللّه وقدسه وجلاله ، وربوبيته وفناء العبودية فيه ، وبقيت تلك القدرة فيه إلى كهولته ، حتى عرّف عباد اللّه تنزيه اللّه وقدس صفات اللّه وحسن جلال اللّه ، وهذا معنى قوله تعالى : تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ، وزاد فى وصفه بقوله : وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ ، تجلى بقدرته بيده حتى يخط بغير تعلم.

هـ. فانظره ، مع ما ورد فى التاريخ أنه كان يذهب مع الصبيان للمكتب.

ثم ذكر معجزة المائدة ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ١١٢ الى ١١٥]

إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَنَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (١١٥)

---

(١) راجع تفسير الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٩٠

قلت : (يا عيسى ابن مريم) : ابن هنا بدل ، ولذلك كتب بالألف ، و(أن ينزل) : مفعول (يستطيع) ، ومن قرأ بالخطاب ، فمفعول بالمصدر المقدر ، أي : سؤال ربك إنزال مائدة ، و(لأولنا وآخرنا) : بدل كل ، من ضمير (لنا) ، لإفادته الإحاطة والشمول كالتوكيد ، و(ذلك) : شرط إبدال الظاهر من ضمير الحاضر ، وأعيدت اللام مع البدل للفصل ، وضمير (لا أعذبه) : ، نائب عن المصدر ، أي : لا أعذب

ذلك التعذيب أحدا.

يقول الحق جل جلاله : واذكر إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ أي : هل يطيعك ربك فى هذا الأمر ، أم لا؟ فالاستفهام عن الإسعاف فى القدرة ، فهو كقول بعض الصحابة لعبد اللّه بن زيد : هل تستطيع أن ترينا كيف كان يتوضا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم؟ مع جزمهم بأن عبد اللّه كان قادرا على تعليمهم الوضوء. فالحواريون جازمون بأن اللّه – تعالى – قادر على إنزال المائدة ، لكنهم شكوا فى إسعافه على ذلك.

قال ابن عباس : كان الحواريون أعلم باللّه من أن يشكوا أن اللّه تعالى يقدر على ذلك ، وإنما معناه ، هل يستطيع لك أي : هل يطيعك ، ومثله عن عائشة ، وقد أثنى اللّه – تعالى – على الحواريين ، فى مواضع من كتابه ، فدل أنهم مؤمنون كاملون فى الإيمان.

قال لهم عيسى عليه السّلام : اتَّقُوا اللَّهَ من أمثال هذا السؤال واقتراح الآيات ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بكمال قدرته وصحة نبوتى ، فإنّ كمال الإيمان يوجب الحياء من طلب المعجزة ، قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها أكلا نتشرف به بين الناس ، وليس مرادهم شهوة البطن ، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال ، أي : نعاين الآية ضرورة ومشاهدة ، فلا تعرض لنا الشكوك التي فى الاستدلال ، وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا علما ضروريا لا يختلجه وهم ولا شك ، وَنَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ أي : نشهد بها عند من لم يحضرها من الناس ، أو من الشاهدين للعين ، دون السامعين للخبر ، وليس الخبر كالعيان ، والحاصل : أنهم أرادوا الترقي إلى عين اليقين ، دون الاكتفاء بعلم اليقين.

قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مسعفا لهم لما رأى لهم غرضا صحيحا فى ذلك ، روى أنه لبس جبّة شعر ، ورداء شعر ، وقام يصلى ويدعو ويبكى ، وقال : اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا أي : لمتقدمنا ومتأخرنا ، يعود علينا وقت نزولها كل عام بالفرح والسرور ، فنتخذه عيدا نحن ومن يأتى بعدنا ، وَيكون نزولها آيَةً مِنْكَ على كمال قدرتك وصحة نبوتى ، وَارْزُقْنا المائدة والشكر عليها ، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ أي : خير من يرزق لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض ، ونسبة الرزق إلى غيره مجاز. قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ كما طلبتم ، فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ أي : من عالمى زمانهم ، أو مطلقا.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٩١

قال ابن عمر : (أشد الناس عذابا يوم القيامة : من كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون ، والمنافقون.) روى أنها نزلت سفرة حمراء بين غمامتين ، وهم ينظرون إليها ، حتى سقطت بين أيديهم ،

فبكى عيسى وقال : اللهم اجعلنى من الشاكرين ، اللهم اجعلها رحمة ، ولا تجعلها مثلة وعقوبة ، ثم قام وتوضأ وصلّى وبكى ، ثم كشف المنديل ، وقال :

بسم اللّه خير الرازقين ، فإذا سمكة مشوية ، تسيل دسما وعند ذنبها خل ، وحولها من أنواع البقول ما خلا الكراث ، وخمسة أرغفة ، على واحد منها زيتون ، وعلى الثاني عسل ، وعلى الثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قديد. قال شمعون : يا روح اللّه أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال : ليس منهما ، ولكنه اخترعه اللّه بقدرته ، كلوا ما سألتم ، واشكروا اللّه يمددكم ويزدكم من فضله ، فقالوا : يا روح اللّه ، لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى ، فقال :

يا سمكة : احيى بإذن اللّه ، فاضطربت ، ثم قال لها : عودى ، فعادت كما كانت ، فعادت مشوية ، ثم طارت المائدة ، ثم عصوا بعدها فمسخوا.

وقيل : كانت تأتيهم أربعين يوما ، غبّا «١» ، يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار ، يأكلون ، فإذا فرغوا ، طارت وهم ينظرون فى ظلها ، ولم يأكل منها فقير إلا غنى مدة عمره ، ولا مريض إلا برىء ولم يمرض أبدا ، ثم أوحى اللّه إلى عيسى : أن اجعل مائدتى فى الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء ، فاضطرب الناس ، فمسخ منهم ثلاثة وثمانون. وقيل : لما وعد اللّه إنزالها بهذه الشريطة ، استغفروا وقالوا : لا نريد ، فلم تنزل. قلت : المشهور أنها نزلت ، ويحكى أن أرجلها باقية بجزيرة الأندلس. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى سؤال الحواريين لسيدنا عيسى عليه السّلام قلة أدب من وجهين : أحدهما : خطابه بقوله : (يا عيسى ابن مريم) وقد كانت هذه الأمة المحمدية تخاطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يا رسول اللّه ، يا نبى اللّه ، لكمال أدبها ، وبذلك شرفت وعظم قدرها ، فالأدب عند الصوفية ركن عظيم ، بل هو روح التصوف وقطب دائرته ، قال بعضهم : (اجعل عملك ملحا ، وأدبك دقيقا) ، والكلام فيه عندهم طويل شهير.

والوجه الثاني : ما فى قولهم : (هل يستطيع ربك) من بشاعة التعبير ، وسوء اللفظ ، حتى اتهموا بالكفر من أجله.

وقد تقدم تأويله ، وأما سؤالهم المائدة ، فقال بعض الصوفية : هى عبارة عن المعارف والأسرار الربانية التي هى قوت الأرواح السماوية ، فقوت الأشباح الأرضية ما يخرج من الأرض من الأقوات الحسية ، وقوت الأرواح السماوية ما ينزل من السماء من العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، ينزل على قلوب العارفين ، ثم يبرز منها إلى قلوب عائلة المستمعين ، ولما طلبوها قبل إبانها وقبل الاستعداد لها ، قال لهم : اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فلما ألحوا فى

---

(١) أي : يوما بعد يوم ، ليكون أشهى وأحب – انظر حاشية الشهاب ٣/ ٣٠٢.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٩٢

السؤال ، بيّن الحق لهم أن إنزالها سهل على قدرته ، لكن فيه خطر وسوء عاقبة ، لأن الحقائق قد تضر بالمريد إذا لم يكمل أدبه واستعداده ، فلما بينوا مرادهم من كمال الطمأنية واليقين دعا اللّه – تعالى – فوعدهم بالإنزال مع دوام الإيمان وكمال الإيقان ، فمن كفر بها ، ولم يعرف قدرها ، عذب بعذاب لم يعذبه أحد من العالمين ، وهو الطرد والبعد من ساحة حضرة رب العالمين. واللّه تعالى أعلم.

ثم وبخ من عبد عيسى من الكفرة ، فقال :

[سورة المائدة (٥) : الآيات ١١٦ الى ١٢٠]

وَإِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما فِيهِنَّ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)

قلت : (من دون اللّه) : صفة لإلاهين ، أو صلة (اتخذوني) ، و(أن اعبدوا) : تفسيرية للمأمور به ، أو بدل من ضمير به ، وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقا لئلا يلزم منه بقاء الموصول بلا راجع ، أو عطف بيان له ، أو خبر عن مضمر ، أي : هو ، أو مفعول به ، أي : أعنى ، ولا يجوز إبداله من (ما) لأن المصدر لا يكون مفعولا للقول لأنه مفرد ، والقول لا يعمل إلا فى الجمل أو ما فى معناه. (يوم ينفع) من نصب جعله ظرفا لقال ، أو ظرف ، مستقر خبر (هذا) والمعنى : هذا الذي مرّ من كلام عيسى ، واقع يوم ينفع ، إلخ ، وأجاز ابن مالك أن يكون مبنيا ، قال فى ألفيته :

وقبل فعل معرب أو مبتدا أعرب ، ومن بنا فلن يفندا «١»

ومن رفع ، فخبر ، وهو ظرف متصرف.

---

(١) أنظر الألفية ، باب الإضافة.

يقول الحق جل جلاله : واذكر إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى بعد رفعه إلى السماء ، أو يقوله له يوم القيامة ، وهو الصحيح ، بدليل قوله : قالَ اللَّهُ هذا إلخ ، فإن اليوم الذي يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ هو يوم القيامة ، فيقول له حينئذ : أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ يريد به توبيخ الكفار الذين عبدوه وتبكيتهم ، وفيه تنبيه على أن من عبد مع اللّه غيره فكأنه لم يعبد اللّه قط ، إذ لا عبرة بعبادة من أشرك معه غيره.

قالَ عيسى عليه السّلام مبرءا نفسه من ذلك وقد أرعد من الهيبة : سُبْحانَكَ أي : تنزيها لك من أن يكون لك شريك ، ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ أي : ما ينبغى لى أن أقول ما لا يجوز لى أن أقوله ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، وكل العلم إلى اللّه لتظهر براءته لأن اللّه علم أنه لم يقل ذلك ، تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ أي : تعلم ما أخفيته فى نفسى ، كما تعلم ما أعلنته ، ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك ، سلك فى اللفظ مسلك المشاكلة ، فعبّر بالنفس عن الذات. إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ لا يخفى عليك شىء من الأقوال والأفعال.

ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ

وهو عبادة اللّه وحده ، فقلت لهم : اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً أي : رقيبا عليهم ، أمنعهم أن يقولوا ذلك أو يعتقدوه. ما دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي بالرفع إلى السماء ، أي : توفيت أجلى من الأرض. والتوفى أخذ الشيء وافيا ، فلما رفعتنى إلى السماء كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ أي : المراقب لأحوالهم وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ : مطلع عليه مراقب له.

إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وأنت مالك لهم ، ولا اعتراض على المالك فى ملكه ، وفيه تنبيه على أنهم استحقوا العذاب ، أي : لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، فلا عجز ولا استقباح ، فإنك القادر والقوى على الثواب والعقاب بلا سبب ، ولا تعاقب إلا عن حكمة وصواب ، فإن عذبت فعدل ، وإن غفرت ففضل ، وعدم غفران الشرك مقتضى الوعيد ، فلا امتناع فيه لذاته ليمتنع الترديد والتعليق بإن.

قاله البيضاوي.

وقال ابن جزى : فيه سؤالان : الأول : كيف قال : إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ وهم كفار ، والكفار لا يغفر لهم؟ فالجواب : أن المعنى تسليم الأمر إلى اللّه ، وإنه إن عذب أو غفر فلا اعتراض عليه لأن الخلق عباده ، والمالك يفعل ما يشاء ، ولا يلزم من هذا وقوع المغفرة للكفار ، وإنما يقتضى جوازها فى حكمة اللّه وعزته ، وفرق بين الجواز والوقوع ، وأما على قول من قال : إن هذا الخطاب وقع لعيسى عليه السّلام حين رفعه اللّه إلى السماء فلا إشكال ، لأن المعنى : إن تغفر لهم بالتوبة ، وكانوا حينئذ أحياء ، وكل حيى معرض للتوبة.

السؤال الثاني : ما مناسبة قوله : الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لقوله : إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ ، والأليق إن قال : فإنك أنت

الغفور الرحيم؟ فالجواب : أنه لما قصد التسليم له والتعظيم ، كان قوله : (فإنك أنت العزيز الحكيم) أليق ، فإن الحكمة

(٩٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٩٤

تقتضى التسليم ، والعزة تقتضى التعظيم ، فإن العزيز هو الذي يفعل ما يريد ، ولا يغلبه غيره ، ولا يمتنع عليه شيء أراده ، فاقتضى الكلام تفويض الأمر إلى اللّه فى المغفرة لهم أو عدمها لأنه قادر على كلا الأمرين لعزته ، وأيهما فعل فهو جميل لحكمته. وقال أبو جعفر بن الزبير : إنما لم يقل الغفور الرحيم لئلا يكون شفيعا لهم بطلب المغفرة ، فاقتصر على التسليم والتفويض ، دون الطلب ، إذ لا نصيب فى المغفرة للكفار. أنظر بقية كلامه.

قال التفتازانيّ : ذكر المغفرة ، يوهم أن الفاصلة : (الغفور الرحيم) ، لكن يعرف بعد التأمل أن الواجب هو العزيز الحكيم لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه ، وهو العزيز ، أي : الغالب ، ثم وجب أن يوصف بالحكمة على سبيل الاحتراس لئلا يتوهم أنه خارج عن الحكمة. هـ.

قال اللّه تعالى : هذا أي : يوم القيامة يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ أي : هنا ينتفع الصادقون فى الدنيا بصدقهم ، ويفتضح الكاذبون على اللّه بكذبهم. والمراد بالصادقين أهل التوحيد ، الذين نزهوا اللّه تعالى عما لا يليق بجلاله وجماله ، فصدقوا فيما وصفوا به ربهم.

ثم ذكر ما وعدهم به ، فقال : لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ حيث رضوا بأحكامه القهرية والتكليفية ، ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما فِيهِنَّ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وهذا تنبيه على تكذيب النصارى ، وفساد دعواهم فى المسيح وأمه ، وإنما لم يقل : ومن فيهن ، تغليبا لغير العقلاء ، وإنما غلب غير أولى العقل للإعلام بأنهم فى غاية القصور عن معنى الربوبية ، وإهانة لهم وتنبيها على أنهم جنس واحد ، فمن يعقل منهم لقصور عقله ونظره كمن لا يعقل ، فيبعد استحقاقهم للألوهية التي تنبىء عن تمام الحكمة وإحاطة العلم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من صدّر نفسه للشيخوخة من غير إذن ، وأشار إلى تعظيمه بلسان الحال أو المقال يلحقه العتاب يوم القيامة فيقال له : أأنت قلت للناس عظمونى من دون اللّه؟ فإن كان مقصوده بالأمر بالتعظيم الوصول إلى تعظيم الحق تعالى ، والأدب معه فى الحضرة دون الوقوف مع الواسطة ، وبذل جهده فى توصيل المريدين إلى هذا المقام ، يقول : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ،

إلى تمام ما قال السيد عيسى عليه السّلام ، فيقال له :
(هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم). وإن كان مقصوده بالتصدر للتعظيم والأمر به ، حظ نفسه ، وفرح بتربية جاهه والإقبال عليه ، افتضح وأهين بما افتضح به الكاذبون المدعون. نسأل اللّه تعالى الحفظ والرعاية بمنّه وكرمه ، وسيدنا محمد رسوله ونبيه – صلى اللّه عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه وسلم – .

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٩٥

سورة الأنعام

مكية غير ست آيات أو ثلاث ، وقال الكلبي : الأنعام كلها مكية إلّا آيتين نزلتا بالمدينة فى فنحاص اليهودي ، وهى : قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى «١» مع ما يرتبط بهذه الآية.
وهى مائة وخمس وستون آية ، قاله البيضاوي. قال ابن عباس : (نزلت سورة الأنعام وحولها سبعون ألف ملك ، لهم زجل «٢» يجأرون بالتسبيح). وقال كعب : (فاتحة الأنعام هى فاتحة التوراة الْحَمْدُ لِلَّهِ ... إلى ... يَعْدِلُونَ ، وخاتمة التوراة خاتمة هود وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ «٣»). وقيل : خاتمتها : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ... «٤» إلى ... تَكْبِيراً. وقال سيدنا على – كرم اللّه وجهه – : (من قرأ سورة الأنعام فقد انتهى فى رضا ربه). قاله ابن عطية.
ومناسبتها لما قبلها : الاستدلال على قدرته تعالى التي ختم بها ما قبلها ، ومضمنها : التعريف بالذات المقدسة ، دلالة وعيانا ، والاستدلال على وحدانيتها وما يجب لها من صفات الكمال ، والرد على طوائف المشركين ، وذم أحوالهم وأفعالهم ، ومدح أهل التوحيد من العارفين أو المؤمنين ، قال الشيخ زرّوق رضى اللّه عنه فى شرح الرسالة : ما ذكره الشيخ ابن أبى زيد ، فى عقائد رسالته ، هو ما تضمنته سورة الأنعام. هـ. بالمعنى.
قال جل جلاله :
[سورة الأنعام (٦) : آية ١]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)
قلت : (ثم الذين كفروا) : عطف على جملة الحمد على معنى : أن اللّه حقيق بالحمد على ما خلقه ، نعمة على العباد ، ثم الذين كفروا بربهم الذي ربّاهم بهذه النعم ، يعدلون به سواه من الأصنام ، يقال : عدلت فلانا بفلان جعلته نظيره. أو عطف على «خلق ، وجعل» : على معنى أنه خلق وقدّر ما لا يقدر عليه غيره ، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء. ومعنى (ثم) : استبعاد عدولهم بعد هذا البيان.

والباء فى «بربهم» متعلقة بكفروا ، على الأول ، وبيعدلون على الثاني. قاله البيضاوي.
يقول الحق جل جلاله : الْحَمْدُ لِلَّهِ أي : جميع المحامد إنما يستحقها اللّه ، إذ ما بكم من نعمة فمن اللّه.
الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ التي تظلّكم ، مشتملة على الأنوار التي تضىء عليكم ، ومحلا لنزول الرحمات والأمطار

---

(١) الآية ٩١ من سورة الأنعام. [.....]
(٢) زجل ، أي : صوت رفيع عال.
(٣) الآية ١٢٣ من سورة هود.
(٤) الآية ١١١ من سورة الإسراء.

عليكم ، وَخلق الْأَرْضَ التي تقلّكم ، وفيها نبات معاشكم فى العادة ، وفيها قراركم فى حياتكم وبعد مماتكم ، مشتملة على بحار وأنهار ، وفواكه وثمار ، وبهجة أزهار ونوار ، وَجَعَلَ الظُّلُماتِ التي تستركم ، راحة لأبدانكم وقلوبكم ، كظلمات الليل الذي هو محل السكون. وَجعل النُّورَ الذي فيه معاشكم وقوام أبدانكم وأنعامكم.
ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بعد هذا كله ، يَعْدِلُونَ عنه إلى غيره ، أو يعدلون به سواه ، فيسوونه فى العبادة معه.
قال البيضاوي : وجمع السموات دون الأرض وهى مثلهن لأن طبقاتها مختلفة بالذات ، متفاوتة الآثار والحركات ، وقدّمها لشرفها وعلو مكانها. ثم قال أيضا : وجمع الظلمات لكثرة أسبابها والأجرام الحاملة لها ، أو لأن المراد بالظلمة : الضلال ، وبالنور : الهدى. والهدى واحد والضلال متعدد. وتقديمها لتقدم الإعدام على الملكة. ومن زعم أن الظلمة عرض يضاد النور احتج بهذه الآية ، ولم يعلم أن عدم الملكة كالعمى ليس صرف العدم حتى لا يتعلق به الجعل. هـ.
الإشارة : أثنى الحق – جل جلاله – على نفسه بإنشاء هذه العوالم ، التي هى محل ظهور عظمته وجلاله وجماله وبهائه. فأنشأ سموات الأرواح ، التي هى مظهر لشروق أنوار ذاته وصفاته ، ومحل لظهور عظمة ربوبيته ، وأنشأ أرض النفوس ، التي هى مظهر لتصرف أقداره ، ومحل لظهور آداب عبوديته ، وتجلى بين الضدين بين الظلمات والنور ، ليقع الخفاء فى الظهور ، كما قال بعض الشعراء :
... لقد تكاملت الأضداد فى كامل البها ثم بعد هذا الظهور التام ، عدل عن معرفته جل الأنام ، إلا من

سبقت له العناية من الملك العلام. وبالله التوفيق.

ثم برهن على كمال قدرته ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٢]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢)

قلت : (أجل) : مبتدأ. و(مسمى) : صفته. و(عنده) : خبر ، وتخصيصه بالصفة أغنى عن تقديم الخبر.

يقول الحق جل جلاله : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ أي : ابتدأ خلقكم منه ، وهو آدم ، لأنه المادة الأولى ، وهو أصل البشر. ثُمَّ قَضى أَجَلًا تنتهون فى حياتكم إليه ، وهو الموت. وَأَجَلٌ مُسَمًّى معيّن للبعث ، لا يقبل التغيير ، ولا يتقدم ولا يتأخر ، عِنْدَهُ استأثر بعلمه ، لا مدخل لغيره فيه بعلم ولا قدرة ، وهو المقصود بالبيان ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ أي : تشكّون فى هذا الأجل المسمى الذي هو البعث.

وثُمَّ : لاستبعاد امترائهم بعد ما ثبت عنه أنه خالقهم ، وخالق أصولهم ومحييهم إلى آجالهم ، فإن من قدر على خلق المواد وجمعها ، وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما شاء ، كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانيا. قاله البيضاوي.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٩٧

الإشارة : القوالب من الطين ، والأرواح من نور رب العالمين ، فالطينية ظرف لنور الربوبية ، الذي هو الروح لأن الروح نور من أنوار القدس ، وسر من أسرار اللّه ، فمن نظّف طينته ولطّفها ظهرت عليها أسرار الربوبية والعلوم اللدنية ، وكشف للروح عن أنوار الملكوت وأسرار الجبروت ، وانخنست الطينية ، واستولت عليها الروح النورانية ، ومن لطّخ طينته بالمعاصي وكثّفها باتباع الشهوات ، انحجبت الأنوار واستترت ، واستولت الطينية الظّلمانية على الروح النّورانية ، وحجبتها عن العلوم اللدنية والأسرار القدسية ، بحكمته تعالى وعدله وظهور قهره. وبالله التوفيق.

ثم برهن على وحدانيته الخاصة ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٣]

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ (٣)

قلت : (هو) : مبتدأ ، و(اللّه) : خبره. و(فى السموات) : خبر ثان ، أي : وهو اللّه كائن أو موجود فى السموات وفى الأرض بنوره وعلمه. قال تعالى : اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ «١». و(يعلم سركم وجهركم) : تقرير له.

يقول الحق جل جلاله : هذا الذي اختص بالحمد وأبدع الكائنات كلها – هُوَ اللَّهُ ظاهر فِي السَّماواتِ

وَفِي الْأَرْضِ بنوره وقدرته وعلمه وإحاطته ، فلا شريك معه يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ من خير أو شر ، فيثيب عليه ويعاقب ، ولعله أراد بالسر والجهر ما يظهر من أحوال النفس ، وبالمكتسب أعمال الجوارح. فالآية الأولى دليل القدرة التي ختم بها السورة ، والآية الثانية دليل البعث ، والآية الثالثة دليل الوحدة.

الإشارة : قال بعض العارفين : الحق تعالى منزّه عن الأين والجهة ، والكيف ، والمادة ، والصورة ، ومع ذلك لا يخلو منه أين ، ولا مكان ، ولا كم ، ولا كيف ، ولا جسم ، ولا جوهر ، ولا عرض. لأنه للطفه سار فى كل شىء ، ولنوريته ظاهر فى كل شىء ، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف ، غير متقيد بذلك ، فمن لم يعرف هذا ولم يذقه ولم يشهده ، فهو أعمى البصيرة ، محروم من مشاهدة الحق تعالى. ولابن وفا :

هو الحقّ المحيط بكلّ شىء هو الرحمن ذو العرش المجيد
هو المشهود فى الأشهاد يبدو فيخفيه الشهود عن الشّهيد
هو العين العيان لكلّ غيب هو المقصود من بيت القصيد
جميع العالمين له ظلال سجود فى القريب وفى البعيد
وهذا القدر فى التّحقيق كاف فكفّ النّفس عن طلب المزيد

---

(١) من الآية : ٣٥ من سورة النور.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٩٨

ثم ذم من أعرض عن دلائل توحيده ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٤ الى ٥]

وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٥)

قلت : (من) الأولى : مزيدة للاستغراق ، والثانية للتبعيض.

يقول الحق جل جلاله : وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ دالّة على توحيد اللّه وكمال صفاته ، إلا أعرضوا عنها ، أي : الكفار ، أو : ما تأتيهم معجزة من المعجزات الدالة على قدرة اللّه وصدق رسوله ، أو : ما تأتيهم آية من آيات القرآن تدل على وحدانيته وكمال ذاته ، إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ تاركين للنظر فيها ، غير ملتفتين إليها.

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ وهو القرآن لَمَّا جاءَهُمْ ، وهو كالدليل لما قبله ، لأنهم لمّا كذبوا بالقرآن – وهو أعظم الآيات – فكيف لا يعرضون عن غيره من الآيات؟ ثم هدّدهم بقوله : فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ أي : أخبار ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أي : سيظهر لهم ، عند نزول العذاب بهم فى الدنيا والآخرة ، ما كانوا يستهزئون به من البعث والحساب ، أو عند ظهور الإسلام وارتفاعه.

الإشارة : من سبق له الخذلان لا تنفعه الأدلة وتواتر البرهان ، ولا تزيده ظهور المعجزات أو الكرامات إلا التحاسد وظهور العداوات ، ولا يزيده الدعاء إلى اللّه والتناد ، إلّا الإعراض عنه والبعاد ، نعود بالله من الشقاء وسوء القضاء.

ثم أمر أهل الإنكار بالنظر والاعتبار ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : آية ٦]

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٦)

قلت : (كم) : خبرية ، مفعول «أهلكنا» ، أي : كثيرا أهلكنا من القرون ، والقرن مدة من الزمان تهلك أشياخها وتقوم أطفالها ، واختلف فى حدّها ، قيل : مائة ، وقيل : سبعون ، وقيل : ثمانون ، وقيل : القرن : أهل زمان فيه نبى أو فائق فى العلم ، قلّت المدة أو كثرت ، مشتق من قرين الرجل. والمطر المدرار هو الغزير ، وهى من أمثلة المبالغة ، كمذكار وميناث.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ يَرَوْا ببصائرهم رؤية اعتبار ، كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ من أهل عصر مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أي : جعلناهم متمكنين فيها بالقرار والسكنى والطمأنينة فيها ، أو أعطيناهم من القوة والآلات

ما تمكّنوا بها من أنواع التصرف فيها فقد مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ يا أهل مكة ، فقد جعلنا لهم من السعة وطول المقام ما لم نجعله لكم ، أو أعطيناهم من القوة والسّعة فى المال والاستظهار على الناس بالعدّة والعدد وتهيّؤ الأسباب ما لم نجعله لكم ، .

وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ أي : المطر أو السحاب عَلَيْهِمْ مِدْراراً أي : مغزارا على قدر المنفعة بحسب الحاجة ، وَجَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ أي : أجرينا الأودية من تحت ديارهم وأراضيهم ، فعاشوا فى الخصب والريف ، بين الأنهار والثمار ، فعصوا وطغوا وبطروا النعمة ، فلم يغن ذلك عنهم شيئا. فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنا أي :

أحدثنا ، مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ بدلا منهم. والمعنى : أنه تعالى كما قدّر أن يهلك من تقدم من القرون ،

بعد أن مكّنهم فى البلاد واستظهروا على العباد ، كعاد وثمود ، وأنشأ بعدهم آخرين عمّر بهم بلاده ، يقدر أن يفعل ذلك بكم يا معشر الكفار المعاصرين لمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم.

الإشارة : النظر والاعتبار يوجب للقلب الرقّة والانكسار. وهى عبادة كبرى عند العباد والزهاد ، أولى العزم والاجتهاد. وفوقها : فكرة الشهود والعيان ، وهى الفكرة التي تطوى وجود الأكوان ، وتغيب الأوانى بظهور المعاني ، أو تريها حاملة لها قائمة بها ، فالأولى فكرة تصديق وإيمان ، والثانية فكرة شهود وعيان. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر عنادهم ، وأنهم لا تنفع فيهم المعجزة ، فقال :

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٧ الى ٩]

وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (٩)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ يا محمد كِتاباً مكتوبا فِي قِرْطاسٍ أي : رقّ ، فرأوه بأعينهم ، ولمسوه بأيديهم ، حتى لا يبقى فيه تزوير ، لعاندوا ، ولَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا منهم بعد ذلك : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ تعنتا وعنادا ، وتخصيص اللمس لأن التزوير لا يقع فيه ، فلا يمكنهم أن يقولوا : إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا ، وتقييده بالأيدى لدفع التجوز ، فإنه قد يتجوز فيه فيطلق على الفحص كقوله : وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ «١».

ثم اقترحوا معجزة أخرى ، وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ يكلمنا أنه نبى ، فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أو شهيدا له بالرسالة ، روى أن العاص بن وائل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود هم الذين سألوا ذلك. قال تعالى :

---

(١) من الآية ٨ من سورة الجن.